فتاة غسان

رواية تاريخية غرامية

تشرح حال الاسلام من أول ظهوره الى فتوح
العراق والشام مع بسط عوائد العرب
في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم
ووصف أخلاقهم وأزيائهم
وسائر أحوالهم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الاول

(الطبعة السادسة)

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر
سنة ١٩٢١

فتاة غسان

رواية تاريخية غرامية

تشرح حال الاسلام من أول ظهوره الى فتوح
العراق والشام مع بسط عوائد العرب
في آخر جاهليتهم وأول اسلامهم
ووصف أخلاقهم وأزيائهم
وسائر أحوالهم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الأول

(الطبعة السادسة)

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١

وهذه الس.

مقدمة

الطبعة الثالثة

من فتاة غسان

هذه الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وقد صدرت طبعتها الاولى سنة ١٨٩٧ ونفدت فطبعناها الطبعة الثانية سنة ١٩٠٣ وهذه الطبعة الثالثة وقد حازت هذه الرواية رغبة القراء على الخصوص لانها تتضمن ظهور الدعوة الاسلامية وفتوح الشام والعراق . وقد اهتم بها أدباء اللغات الاخرى فنقلوها الى السنتهم فنقلها المولوي محمد حليم الانصاري الى اللغة الاوردية (الهندستانية) وطبعت في مطبعة جريدة وكيل الهندية في أمرتسار الهند ونشرت وعندنا مثال منها . ونقلها البرنس عبد الحسين مرزا الى الفارسية ونشرت في طهران . وترجمها الشيخ احمد غني مريكر من سكان ناقور في سنغافورة الى اللغة الارويدية وهي لغة التاميل الشائعة في سيلان وجزائر الهند الشرقية وقد طبعت وجاءنا نسخة منها . ونقلها الى الانكليزية قسطنطين افندي ثابت في بيروت والمخابرة جارية بشأن طبعها

وقد أصبحت حلقات سلسلة روايات تاريخ الاسلام التي ظهرت الى الان ثلاث عشرة حلقة صدر منها ١٢ حلقة في كتب على حدة وهي : فتاة غسان وأرمانوسة المصريه وعذراء قريش و١٧ رمضان وغادة كربلاء والحجاج بن يوسف وفتح الاندلس وشارل وعبد الرحمن وأبو مسلم الخراساني والعباسة أخت الرشيد ولامين والمأمون وعروس فرغانة . والثالثة عشرة تظهر تباعاً ملحقة بالسنة السابعة عشرة من الهلال واسمها « احمد بن طولون » فنطلب اليه تعالى أن يوفقنا الى اتمام هذه السلسلة انه السميع المجيب

وقد طبعت رابعة في شهر سبتمبر سنة ١٩١٦ وخامسة في سنة ١٩٢٠ وهذه السادسة في سنة ١٩٢١

الفصل الاول

ملوك غسان

بنو غسان عرب متنصرة كانوا عمالاً لقياصرة الروم في الشام وأصلهم يمنيون من بني قحطان هاجروا اليمن بعد سيل العرم . والعرم سدّ كان بجوار مدينة مأرب باليمن يعرف بسد مأرب يقال انه تهدم نحو القرن الثاني للميلاد وطافت مياهه على ما جاوره من البلاد والقرى فقلّ سبيل الناس الى الاستقاء فنزح أهلها التماساً للرزق ومنهم الغساسنة نزلوا ضواحي الشام بقرب ماء اسمه غسان فنسبوا اليه (١) واعتنقوا الديانة المسيحية ويسميهم مؤرخو المسلمين (العرب المتنصرة) ويعرفون بملوك غسان . وأول من عرف منهم جفنة عاش في القرن الثاني للميلاد واتصل الملك بعده بنسله فحكم منهم نحو ٣٠ ملكاً آخرهم جبلة ابن الايهم وفي أيامه ظهر الاسلام وفتحت الشام على عهد الخليفة ابي بكر الصديق وانقرضت دولتهم كما سترى . ولكن منهم الآن بقية في ضواحي البلقاء واليرموك وحمص (٢)

ومن العرب المتنصرة ملوك الحيرة ويقال لهم المناذرة (جمع المنذر) أو الملوك اللخميون نسبة الى لخم بن عدي وهم من عرب اليمن نزحوا أيضاً بعد السيل وقاموا في العراق وكانوا عمالاً للفرس هناك ونسبتهم الى ملوك الفرس كنسبة ملوك غسان الى قياصرة الروم أي ان كلاً من الفريقين كانوا عمالاً لاحدى هاتين الدولتين

فالغسانيون كانوا يقيمون في حوران والبلقاء وما جاورهما وكانوا أشبه شيء بالولاة المستقلين تحت رعاية الرومانيين فيمتازون عن ولاة الروم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية تحت شروط معلومة فيمدون الرومانيين بالجند من قبيلتهم عند الحاجة وخصوصاً في حروبهم مع الفرس (٣)

---

(١) ابو الفدا (٢) نهاية الارب في معرفة قبائل العرب

(٣) تاريخ العرب لدوزي

وكان العالم قبيل الاسلام تتنازعه دولتان عظيمتان الفرس في الشرق والروم في الغرب لا يكاد يفتر النزاع بينهما فيستعين الفرس بالمناذرة ويستعين قياصرة الروم بالغساسنة فتولد بين تينك القبيلتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثها الابناء عن الاباء وكثيراً ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى يكاد يبيد احدها الآخر

والنزاع بين الفرس والروم قديم وكأنه طبيعي بين المشرق والمغرب فقد كانت الحروب متواصلة قبلاً بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرومان. وكانت عاصمة الفرس المدائن بالعراق وعاصمة الروم القسطنطينية فقضوا أجيالا متوالية وهم بين حرب وصلح تارة يجردون الجند وطوراً يعقدون الصلح . في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد كان ملك الفرس كسرى برويز وامبراطور الروم موريسيوس (والعرب تسميه موريق) فثارت في بلاد الفرس ثورة داخلية آلت الى خلع كسرى فالتجأ الى موريسيوس فساعده وأعاده الى ملكه وكان ذلك داعياً الى مصالحة وهدنة . وفي سنة ٦٠٢ م قتل موريسيوس هذا قتله فوكاس (فوقا) وتولى هو الملك مكانه . وكان على الفرس كسرى برويز المذكور وكان صهراً لموريسيوس فقد تزوج ابنته ماريا . فلما سمع بقتل حميه اعتبر معاهدة الصلح بينهما ملغاة وحمل بجيشه على القسطنطينية متظاهراً بالانتقام من قاتل حميه وهو يضمر الرغبة في الاستيلاء على مملكة الروم فظلت القسطنطينية في أثناء حكم هذا الامبراطور في حصار دائم فمل الناس حكومته فثاروا عليه وأرادوا خلعه فاستدعوا هراكليوس (هرقل) ابن والي سيرينيا عن الروم فجاء سنة ٦١٠ م بعمارة بحرية ودخل القسطنطينية عنوة وقتل فوقا وتولى مكانه والفرس قد قاموا على الروم قومة واحدة فكان كسرى محاصراً القسطنطينية بنفسه وكان قائد من قواده محاصراً بيت المقدس وآخر محاصراً الاسكندرية والناس يفرون من وجه الفرس من كل صوب فلم تأت السنة الخامسة من حكم هرقل حتى استولى الفرس على القدس وفي الثامنة (سنة ٦١٨) دخلوا الاسكندرية واستولوا على مصر السفلى فلاقوا من أهل الشام ومصر ترحاباً وارتياحاً

لارتباطهم معهم ومع جندهم اللخميين برابطة الوطن الشرقي والعادات الشرقية فلبثوا تحت نيرهم عشر سنوات ثم اشتغل الفرس بعصيان بعض ولاياتهم فضعف امرهم فاغتنم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجنده فاخرجهم من الشام ومصر واعاد المملكتين الى حوزة الروم ولم يكد يستريح هرقل من هذه الحروب حتى جاء المسلمون في أوائل الهجرة مفتتحين وهو لا يزال في سوريا وحصونه لا تزال متهدمة وجيوشه مبعثرة وسائر قواته متضعضعة (١)

وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالي الروماني المقيم بدمشق بامر امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم في القسطنطينية فترد الاوامر الامبراطورية من الامبراطور الى والي دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان

وكان كرسي حكومة الغسانيين تارة في عمان بالبلقاء وطوراً في الجولان وأحياناً في بصرى عاصمة حوران في ذلك العهد

ففي نحو السنة السابعة للهجرة (٦٢٩ م) كان على الغسانيين في الشام ملكان في وقت واحد احدهما الحارث بن ابي شمر والآخر جبلة بن الايهم (٢) وكان الحارث يقيم في بصرى وفي مكانها الآن قرية صغيرة اسمها اسكي شام أي الشام القديمة (٣) وسيأتي ذكرها . وبجوار بصرى هذه دير بحيراء الذي نزل عنده ابو طالب ومعه ابن أخيه صاحب الشريعة الاسلامية يوم قدموا الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الاسلامية ببضع وعشرين سنة (٤)

وأما جبلة فهو ابن عم الحارث المشار اليه وكان يقيم بالبلقاء

الفصل الثاني

فتاة غسان

وكان لجبلة هذا ابنة بارعة في الجمال مع تعقل ورزانة اسمها هند ربيت منذ حداثتها على ظهور الخيل فشبت مولعة بركوبها ومجاراة أعاظم الفرسان في

(١) صموئيل شارب (٢) الاغاني جزء ١٤ (٣) دائرة المعارف
(٤) ابن الاثير

حلبة السباق حتى طار صيتها في القبائل وأصبحت حديث القوم ومضرب أمثالهم قبل أن بلغت العشرين من عمرها

وكانت تقيم غالباً في صرح الغدير وهو قصر بديع شاهق بناه ثعلبة بن عمرو أحد ملوك غسان في القرن الرابع للميلاد[1] في أطراف حوران مما يلي البلقاء من حجارة ضخمة فيه غرف واسعة تحدق بها الحدائق والبساتين تجري من تحتها الجداول والسواقي معظم أيام السنة

وكان بجوار القصر سهل واسع الارجاء خصصوه لسباق الخيل في مواقيت معينة من السنة ينخرط في سلكه أمهر فرسان البلقاء وحوران وقد يقصده أهل البلاد الاخرى . وكانت هند تنزل السباق بنفسها وكثيراً ما أحرزت قصب السبق . وكان ذلك السباق تحت رعاية والدها جبلة فيخلع على السابقين خلعاً يعينها قبل الشروع في السباق فمن نال قصب السبق احتفلوا بالباسه الخلعة في مساء يوم السباق احتفالا يحضره الشعراء ينظمون القصائد في مدح السابق ثم تحمل هند الخلعة بيدها وتلبسها للسابق . فاذا جاء يوم السباق تقاطر الفرسان من انحاء الشام وحوران والبلقاء وغيرها يتسابقون الى احراز تلك الجائزة

ففي سنة ٦٢٩ م (سنة ٧ للهجرة) بعث جبلة المنادين ينبئون الناس بسباق ذلك الفصل وهو فصل الربيع وعين له الجائزة درعاً سليمانية كاملة وأمر باعداد حاجيات الاحتفال بجوار صرح الغدير حتى اذا دنا اليوم المعين تقاطر الفرسان الى تلك الساحة زرافات ووحداناً بخيولهم وسلاحهم وفيهم جماعة كبيرة من الامراء الغسانيين وغيرهم بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلانس تشبهاً بالروم

ففي صباح يوم الموعد كانت الخيول مصفوفة بجانب السهل صفوفاً غير منتظمة والخيام منصوبة ليأوي اليها الفرسان أثناء السباق في صدرها خيمة جبلة وهي فسطاط كبير مبطن بالحرير الاحمر أرضه مكسوة بالبسط والسجاد وقد علقت تلك الدرع في بعض أعمدته ليراها الفرسان ويشتاقوا الى احرازها

(١) ياقوت

فلما أشرقت الغزالة وأعدت الخيول شاعت أعين الفرسان نحو القصر في انتظار هند وأبيها فاذا بالابواب قد فتحت وخرج جبلة وكان قد جاء من مساء الامس وبات في القصر استعداداً لحضور السباق فلما انبيء الناس بخروجه تأدبوا في موقفهم فمرّ بالحديقة ثم فتحت أبوابها فخرج جبلة وحاشيته وعلى رأسه تاج مرصع تنعكس أشعة الشمس عن جواهره فتبهر الابصار [1] وكان طويل القامة أصهب (أي يخالط بياض وجهه حمرة) ذا سبال وعثنون [2] عليه أزار من الديباج المزركش يغطي أثوابه ويديه ويجر وراءه . فمشى والخدم تقود أفراسه وراءه معقودة أذنابها وعليها القلائد من الذهب والفضة حتى جاء فسطاطه فجلس في صدره على سرير من خشب العرعر محلى بالذهب وساقوا خيله الى مرابطها في خيمة خاصة بها ووقف في باب الفسطاط الحاجب ووراءه جماعة من الحاشية بعضهم يحمل سيف جبلة وآخر يحمل قوسه ولم يكد يستوي على سريره حتى استأذن الشعراء بالدخول عليه فأذن لبعضهم فدخلوا والقوا التحية وتربعوا على البساط في أرض الفسطاط فلما رآهم جبلة تذكر حساناً بن ثابت وكان يختلف اليه كثيراً ويمدحه فيصله بالهبات الوافرة [3] ولكن حساناً لما اعتنق الاسلام أقام في المدينة وانقطع عن الغساسنة وغيرهم

وبعد هنيهة خرجت هند بنت جبلة من قصرها تحف بها جواريها وقد يعرف الناس خروجها برائحة طيبها قبل أن يروها فمرت بحديقة القصر حتى خرجت من بابها وأعين الفرسان شائعة نحوها واكثرهم انما يأتي السباق ليتمتع بنظرة منها . فمشت من باب الحديقة مشية تدل على صحة ورزانة وكانت ممشوقة القوام ممتلئة الجسم مستديرة الوجه قمحية اللون مشربة بالحمرة سوداء العينين مع كحل طبيعي لا يكاد يصدق الناظر اليها الا انها مكحلة بالأثمد . وكان شعرها أسود مضفراً قد أرسلت ضفائره خصلة واحدة على ظهرها وفي أطراف الضفائر قطع من النقود الذهبية أو الحلى وفي اذنيها قرطان في كل منهما لؤلؤة كبيرة وجعلت على رأسها تاجاً صغيراً مرصعاً وضعته مائلاً نحو اليمين . وفي عنقها عقد من المرجان وفي أحد معصميها دملج من الذهب عريض مرصع

(١) ابن الاثير (٢) الاغاني ج ٢ (٣) الاغاني جزء ١٤

بالياقوت وفي أصابعها الخواتم من العقيق والزمرد وقد ارخت من كتفها رداء حريرياً مخططاً بألوان بديعة يغطيها الى الرسغ فلا يظهر من أثوابها الا أسفل الحذاء . فتخلف بعض جواريها في الحديقة ورافقتها اثنتان منهن الى الفسطاط وعيون الناس شاخصة اليها عن بعد وهي تنظر اليهم بطرف عينها حياء ورفعة حتى دخلت الفسطاط فرحب والدها بها وأجلسها الى جانبه وكان كثير الولع بها حتى تسلطت على عقله ورأيه وكثيراً ما كان يستشيرها في أموره . ثم وقف الاتباع والخدم خارج الفسطاط ومعهن خادمتاها وكان مقعد جبلة وهند هناك بحيث يشرفان على ساحة السباق ويريان المتسابقين في أول الشوط

ثم سمعوا جلبة وقيل ان ثعلبة بن الحارث بن ابي شمر صاحب بصرى قد جاء بحاشيته فلما سمعت هند بقدومه غلب عليها الانقباض حتى كاد يظهر على وجهها. أما جبلة فنهض عن سريره الى باب الفسطاط لاستقبال ثعلبة وكان ثعلبة شاباً قصير القامة خفيف العضل نحيف الوجه كبير العينين والاذنين ليس عليه من مهابة الملوك الا ملابسه الفاخرة فقد كان لابساً قباء من الحرير مزركشاً يجر وراءه على عادة الرومان وسيفه اعقف مرصع يتدلى من حمائله الى يساره وقد أوقف طرفي شاربيه انفة وكبراً واعتداداً بمنصب والده

وكان الغسانيون يتحدثون بهند وثعلبة يزعمون انهما لابد من تزوجهما نظراً لما بينهما من النسبة والنسب . ولكن ذلك لم يخرج الى حيز الوجود ولا تخاطب الوالدان بشأنه . على ان ثعلبة كان كثير الاعتداد بنفسه وربما حدثته خيلاؤه ان يترفع عن هند لو خوطب بشأنها . أما هي فكانت خالية الذهن من امر الزواج ولكنها كانت تستنكف من اخلاق ابن عمها ولا تميل اليه ولولا رابطة القرابة ما خاطبته ولا جالسته مطلقاً

فلما وصل ثعلبة استقبله جبلة وعانقه ورحب به وادخله الفسطاط واجلسه على سرير بجانب سريره وأخذ يسأله عن والده وسبب تخلفه عن ذلك السباق فاعتذر عنه أنه في شاغل خصوصي حال بينه وبين ما يريد وكان جبلة انما يكرم ثعلبة اكراماً لمنزلة والده ومراعاة لآداب الملوك فيما بينهم

اما هند فسلمت على ثعلبة سلاماً اعتيادياً وجلست تتشاغل بالتفرج بمنظر ذلك السهل الواسع وما يتراءى في آخره من الجبال وتتظاهر انها مهتمة بمنظر الخيول المتزاحمة هناك

اما ثعلبة فكان يخاطب عمه وعيناه على هند لا لحبه لها بل رغبة في اعجابها به . وهي كلما التمس اعجابها زادته ازدراء . فلما اتم حديثه مع عمه تحول نحوها فسألها عن عزمها هذه المرة على النزول في ساحة السباق فاجابت وهي تنظر الى الميدان انها لا تنوي النزول الان ولكنها ربما نزلت اذا رأت ما يشوق الى ذلك

فلما اقترب الضحى خرج بعض امراء جبلة وأخذوا يهيئون معدات السباق ويرتبونها فنصبوا حبلاً يقف الفرسان عنده اذا عزموا على السباق فيكونون صفاً واحداً على استواء واحد ثم تناول أحدهم قصبة طويلة اعدت لذلك اليوم وسار بها الى آخر الساحة فنصبها هناك فمن سبق اقتلعها وأخذها ليعلم الحاضرون انه السابق من غير نزاع فيقال لمن اقتلع تلك القصبة انه أحرز قصب السبق (١)

الفصل الثالث

السباق

فلما تمت المعدات على هذه الصورة نودي في الناس ان يتهيأوا للسباق فركبوا جميعاً وجاؤوا واحداً واحداً يلقون التحية على ملكهم جبلة فاذا وصل احد امام الفسطاط ترجل ودخل يقبل يد جبلة ويد ثعلبة وخرج وكانت هند في اثناء ذلك تنظر في وجوه الداخلين كأنها تتوقع رؤية فارس تعرفه وكانت تفعل ذلك وتحاذر أن يشعر بها أحد . فوقع نظرها على أحدهم وكان أحسنهم وجهاً في نحو العشرين من عمره يظهر من لباسه وملامح وجهه انه ليس من بني غسان . وكان ربع القامة أسود العينين حادهما لابساً قباءً عربياً وعلى رأسه كوفية من الحرير المزركش وقد شد فوقها العقال .

(١) صناجه الطرب

فلما رأته ظهرت عليها البغتة وعلا وجهها بعض الاحمرار ولكنها تجاهلت وتشاغلت ببعض الشؤون فتقدم الشاب الى جبلة فقبل يده وخرج ولم ينتبه الى ثعلبة اما سهواً أو عمداً فعظم ذلك على ثعلبة ونظر الى هند فاذا هي تشيع ذلك الشاب بنظرها حتى خرج من الفسطاط فاستيقظت عوامل الغيرة في قلبه ولا داعي لتلك الغيرة غير ما فطر عليه من الحسد والكبرياء لكنه لم يفه بكلمة

ثم مر سائر الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا الى الحبل فلم تكن تسمع الا قرقعة اللجم وصلصلة السلاسل وصهيل الخيل ووقع حوافرها تفحص بها الارض كأنها تلح في طلب السباق ليطلق لها العنان فتجري في ذلك السهل الواسع الارجاء وفيها الادهم والاشقر والمحجل والجنب والمجيب واليعبوب والكميت وغير ذلك من أصناف الخيل

وفيما كان الفرسان يتهيأون للسباق كان جبلة وهند وثعلبة يتداولون في من عسى أن يكون السابق في ذلك اليوم فقال جبلة ما ظنكما أن يكون السابق من هؤلاء الفرسان اليوم فيفوز بهذه الدرع . فلم يجب ثعلبة بشيء ولكنه اعتدل في مجلسه وأخذ يلاعب شاربيه ولسان حاله يقول أنا هو السابق ولا أحد سواي . وكان كثيراً ما يحرز قصب السبق في مثل هذا السباق ولكنه قلما احرزه عن استحقاق لان المتسابقين اذا عرفوه وعرفوا منزلته من جبلة تساهلوا في الجري معه فيسبقهم ويظن انه انما سبق لمهارته وسرعة فرسه . فلما لم يجب ثعلبة قال جبلة ما ظنك براكب ذلك الجواد المحجل اني أراه يكاد يطير عن ظهره وهو الذي نال الجائزة في السباق الماضي

فخفق قلب هند عند ذكره اما ثعلبة فهز رأسه مستهزئاً وقال هذا غلام غرّ يدعي الفروسية وهي براء منه ولولا الصدفة العمياء ما استطاع نيل الجائزة ولو كنت في مقام ملك البلقاء (يريد جبلة) وكان هذا السباق تحت رعايتي ما أذنت بان يكون بين فرسانه غريب لا نعرف أصله ولا يليق بنا أن ندخله فسطاط الملك وابنته جالسة لانه لا يعرف مقام الملوك . فادركت هند أن كلام ثعلبة صادر عن غيرة لانه لا يطيق ان يمدح أحد في حضرته

أما جبلة فاتخذ كلامه مأخذ التوبيخ ولكنه حمله محل الاجلال لمقامه مع ما تقتضيه حدة الشبان وقلة اختبارهم فاجابه بلطف «وما يمنع أن يكون غريباً ويدخل علينا ونحن بنو غسان يضرب المثل بحسن وفادتنا وا كرامنا للغريب» فخجل ثعلبة وسكت فاستأنف جبلة الحديث قائلاً ولكنني مع ذلك استغرب أمر هذا الشاب لسكناه بيننا مسكن الغرباء وكثيراً ما شاهدته وقد خرج للصيد ومعه حاشيته كأنه من ابناء الامراء فمن أي القبائل يمكن أن يكون على اني أراه مبالغاً في اخفاء امره وقد سألت عنه بعض امرائنا غير مرة فلم ينبئوني بشيء عن أصله ولا يعلم احدٌ ما مقامه بيننا ولكنني سمعتهم ينادونه حماداً

فظن ثعلبة ذلك حجة للفوز في جداله فقال وهذا مما يحقره في عيني يا عماه فانه لا يبعد ان يكون جاسوساً مرسلاً من ملوك الحيرة فهم ما انفكوا يناوئوننا ويريدون بنا شراً وخصوصاً بعد ان نالهم ونال الفرس من حملات جنودنا وجنود الروم هذين العامين

فاغضى جبلة عن الجواب ثم جاءه مخبر ان الخيول معدة فكيف يرى الملك ان يكون سباقها . قال ينقسم الخيالة خمسات يتسابق كل خمسة منهم في شوط على حدة فمن سبق افرد جانباً حتى لا يبقى أحد لم يجر في حلبة السباق ثم يتسابق السابقون جميعاً فمن احرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة . فعاد المخبر وأبلغ الامراء المنوط بهم امر السباق وترتيبه فقسموا الخيالة خمسات فجرت اول خمسة منهم حتى توارت عن النظر لان مجال السباق يزيد عن الميلين فعاد واحد يحمل القصبة فتناولها رجل خفيف العضل سريع الجري أعدّ لمثل ذلك فاسرع بها وغرسها مكانها وأجلسوا السابق الى جانب وهكذا كل خمسة على حدة

اما هند فكانت عيناها شاخصتين نحو حماد فلما جاء دوره تبعته ببصرها حتى توارى ورفاقه ولبثت تنتظر عودتهم فعادوا والقصبة في قبضته فافرد مع السابقين فقال جبلة لثعلبة ارى الرجل قد سبق فاجاب والحسد ملء صدره أيعدّ من يسبق هؤلاء الخمسة سابقاً ? تمهل لنرى سباقه مع السابقين . فالتفتت

هند وقالت برزانة وهدوء كمن لا يهمه سبق حماد او لم يسبق « وما يمنع ان يكون سابقاً لهم جميعاً .. كيف نحكم عليه ونحن لا نعلم شيئاً من ضعفه او قوته. نعم يسوؤنا ان يكون السابق غريباً ولكن ما الحيلة اذا سبق أنقبل هذا العار على بني غسان ؟ »

فكان لكلام هند وقع السهام على قلب ثعلبة واتقدت الغيرة في صدره فتبسم كانه يستخف بقولها وقال « لا يكون له مسابق سواي ولأعلمنه الفروسية من هذا اليوم » قال ذلك وملامح الغدر وسوء القصد ظاهرة على وجهه فخافت ان يكون قد نوى بالرجل سوءاً فلا يزيده دفاعها الا غضباً وحقداً فسكتت

وعند الظهيرة او نحوها انقضت الاشواط الصغيرة فاجتمع عشرون سابقاً فأمر جبلة بالاستراحة لتناول الطعام وعلف الخيل

وكانوا قد اعدوا الاسمطة في صرح الغدير وذبحوا الذبائح فجاءت الاخونة يحملها الرجال الى الخيم على كل خوان منها جفنات وفيها الالوان العربية والرومية وبعض الخمور

وامر جبلة ان يجلس الفرسان السابقون معه على خوانه وكان خوانه من ذهب خالص وجفانه من فضة (١) فجاؤوا ومعهم حماد فلما وقع نظر ثعلبة عليه جعل يتأمله بعين النقد وحماد لا يلتفت اليه فجلسوا على الابسطة حول السماط جثواً على ركبة واحدة واخذوا في الاكل واراد جبلة ان يقف في خدمتهم على عادة كرام العرب مع ضيوفهم فاستحلفوه ان لا يفعل او يكفوا عن الطعام فاطاع وجلس معهم والى يمينه ابنته هند والى يساره ابن عمه ثعلبة . ولما اتموا الطعام وتناولوا الحلوى وشيئاً من الخمر تلا بعض الشعراء قصيدة ذكر فيها كرم الغسانيين وحسن ضيافتهم . فاطرق جبلة خجلاً لانه يستنكف من ان يسمع مدحه باذنه فلما رأى الشعراء منه ذلك نهض احدهم وقال مهما بالغنا في مدح ملوك غسان لن نأتي بشيء مما قاله فيهم حسان ابن ثابت القائل :

(١) الاغاني ٢

لله در عصابة نادمتهم	يوماً بجلق في الزمان الاول
اولاد جفنة عند قبر ابيهم	قبر ابن ماريا الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة احسابهم	شم الانوف من الطراز الاول
يسقون من ورد البريص ضيوفهم	كاساً يصفق بالرحيل السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل

فامر جبلة حاجبه فاعطى كل شاعر صرة فيها مائتا دينار وخمسة اقصة(١)

وكانت الشمس قد دنت من الاصيل والخيل استراحت واستراح فرسانها فنودي في الناس ان هيا الى السباق وكان حديث القوم « من يا ترى سينال قصب السبق من هؤلاء العشرين » وكان حماد اقلهم كلاماً واكثرهم تأملاً كأن في نفسه شيئاً يكتمه . وقضت هند ساعة الغداء وما بعدها تتأمل وجهه خلسة فآنست فيه جمالاً وكمالاً ورزانة ودعة . وكان ثعلبة يراقب حركاتها ونظراتها وينظر الى حماد نظر الازدراء وكان حديثه قاصراً على الاطناب بما فعله والده او مامر به هو من غرائب الوقائع كقوله مثلاً انه ذهب للصيد فلقيه اسد فلم يفر منه بل هجم وضربه فقتله او ما شاكل ذلك من الاحاديث الملفقة. وكان الحضور يصغون الى حديثه ويؤمنون على اقواله اجلالاً لمقام والده واكثرهم لا يصدقونه وهو يسرد الحكاية وينظر الى هند يلتمس اعجابها او استغرابها وهي لا تكترث . اما حماد فلم يكن يظهر اكتراثاً به ولا انتباهاً له لانه كان حراً لا يطيق التلفيق

فلما نودي في العود الى السباق خرج الفرسان العشرون فقال جبلة ارى ان ينقسموا الى اربعة اقسام فيتسابق كل خمسة منهم في شوط فمن سبق افرد ثم يتسابق السابقون وهم اربعة فمن سبق فله الجائزة . فتسابقوا خمسات فانفرد اربعة وحماد منهم

كل ذلك وثعلبة لم يركب فرسه ولا نزل للسباق انفة واستكباراً وهو يرجو ان لا يكون حماد من السابقين فلما رآه بينهم اوجس خيفة ولو علم انه

---

(١) الاغاني ج ١٤

سيسبق ما عرض نفسه لمسابقته ولكنه كان لا يزال آملاً ان يسبقه مسابقوه فينجو هو من خطر الفشل

ثم اصطف الاربعة بازاء الحبل ووقف الناس على جانبي الميدان ينتظرون نهاية هذا الشوط . فاعتدل الفرسان على صهوات افراسهم ووقف جبلة وهند وثعلبة بباب الخيمة ينظرون اليهم وقلوبهم تخفق في انتظار عاقبة ذلك السباق فاطلق الفرسان اعنة خيولهم والناس يتبعونهم بانظارهم وكان جواد حماد متأخراً عنهم فسر ثعلبة بتأخره ظناً انه سيفشل . ولكن هنداً علمت ان تأخره لم يكن الا ضرباً من الفروسية فلما تواروا عن ابصارهم وقفوا ينتظرون رجوعهم فاذا بحماد قد عاد يحمل القصبة حتى اذا دنا من خيمة جبلة سلمها الى هند . فصاح الناس صيحة التبشير بالسبق فتناولت هند القصبة وترجل حماد وقبل جواده بين عينيه . وكان عند باب الخيمة رجل يحمل وعاء فيه صبغ احمر من دم الصيد ليخضب به صدر الفرس اشارة الى سبقه [1] فلما تقدم ليصبغه اعترضه ثعلبة وقال تمهل ان السبق لم يتم بعد . فعجب حماد وظهرت على وجهه ملامح الاستغراب فقال جبلة وعدنا ابن عمنا ثعلبة ان ينازل السابق . فلم يجب حماد بل عاد الى ضهوة فرسه ووقف ينتظر ثعلبة يجيء اليه بفرسه وكان من احاسن الخيل عليه قلادة من الذهب الخالص وسرج مرصع بالحجارة الكريمة فركب وهو يتميز غيظاً . وكانت هند في اثناء تلك البرهة فرحة بفوز حماد فشق عليها منازلة ابن عمها له ولكنها علات نفسها بفشل الباغي وهي تزداد تعجباً بما تشاهده من حقد ثعلبة على حماد واليس بينهما ما يستدعي ذلك ولكن كبير النفس لا يستطيع تصور هذه الدنايا . ثم امر جبلة فنودي في الناس ان السباق الآن بين حماد والامير ثعلبة بن الحارث فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط . وكان بعض الذين فاز حماد عليهم يودون ان يكون ثعلبة السابق وبعضهم يتمنون السبق لحماد ليكون لهم اسوة بابن الحارث صاحب بصرى

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها ان فرس حماد قد تعب وفرس ثعلبة لا يزال نشيطاً فلم يمض القليل حتى عاد حماد وفي

(١) صناجة الطرب

يده القصبة ووراءه ثعلبة قد ساق جواده الى القسطاط وابتدر عمه قائلاً انه لم يسبقني هو بل فرسه فانه من خيل الجن او هو من صلب داحس فرس قيس بن زهير ولو ركبته انا ما استطاع أحد سبقي . فلما سمعه حماد يقول ذلك نزل عن فرسه وقال له اليك فرسي فاركبه واعطني فرسك وكانت هند تنظر اليهما فخافت أن تعود الفائدة على حماد وقد شعرت ان حبه تمكن من قلبها في تلك الساعات القليلة ما لا يكاد يتأتى باعوام

أما ثعلبة فقال ما قاله انتحالاً لعذر يغطي به خجله وهو لا يظن حماداً يعطيه فرسه فلما تنحى له عنه لم ير مندوحة عن الركوب فركبا ونزلا الى ساحة السباق حتى تواريا عن الابصار فلبث الناس ينتظرون عودتهما وكأن على رؤوسهم الطير وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب فارسلت بقية أشعتها الارجوانية على تلك السهول وما وراءها من الجبال والاودية وقد هدأت الطبيعة وسكن جأش النهار

فلما أبطأ الفرسان شاعت أبصار الناس نحو حلبة السباق وملوا الانتظار حتى همَّ بعضهم بان يلحق بهما ليرى سبب ذلك التأخير وكثر الهرج والمرج . وكان أكثر الناس قلقاً هند فقد شاعت عيناها وخافت غدر ثعلبة ثم ما لبثت ان شاهدت الغبار وبان من ورائه فارسان هما حماد وثعلبة والقصبة في يد حماد فما صدقت ان رأته حتى كاد قلبها يطير من الفرح وأما أبوها فشق عليه أن يكون السابق رجلا غريباً يفوز عليهم جميعاً ولكنه رحب به فترجل الفارسان ونزلا الى الخيمة فاراد حماد أن يعتذر عن ثعلبة فقال « والله أني لم أسبق الامير ثعلبة الا بقضاء وقدر لانه فارس مبرز يحق لغسان الافتخار به ولو تعود ركوب فرسي قبل الان لسبقني » فلم يجب ثعلبة ببنت شفة ثم ناول حماد القصبة الى هند فرأتها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بنصال براها بري القلم فارادت السؤال عن سبب ذلك فنظر حماد اليها نظرة خفية كأنه يقول لها لا تفعلي فسكتت وفي نفسها أن تعرف سبب بريها

ثم تقدم حامل الصبغ الاحمر فخضب به صدر فرس حماد وكان الظلام قد سدل نقابه أو كاد فامر جبلة أن يحتفلوا بالباس الدرع في باحة القصر فانيرت المشاعل وسار الناس مشاة وقد غادروا خيولهم مع سياسها بقرب الخيام ودخلوا

الحديقة وفيها الازهار والرياحين فنزلوا في بقعة واسعة أعدت لمثـل ذلك الاحتفال ضرب فيها سرادق كبيرة وفرشت أرضها بالبسط فعلقوا الشموع في جدرانها وجلس جبـلة في صدرها على وسادة من الحرير الموشى وجلست ابنته الى جانبـه وثعلبة الى الجانب الاخر وأجلسوا الشاب على مرتفع ليراه الجميع ثم أخذت الجواري ينشدن اناشيد التهنئة وجاء بعض رجال جبلة يحمل الدرع . ثم وقفت هنـد وأمارات السرور ظاهرة على وجهها فمشت الى مقعد حماد فوقف لها وركبتاه ترتعشان لعظم تأثره لانه علم أنها جاءت لتلبسه الدرع فنزع عن رأسه الـكوفية والعقال فبانت ملامح وجهه جيداً فازدادت هيـاماً به ولـكنها استغربت فيه أمراً استغربه كل من شهد الاحتفال وذلك أن حماداً لما نزع كوفيته ظهر شعر رأسه طويلاً غضاً حتى غطى ظهره فلم يفهموا معنى ارسال شعره على هذه الصورة

فتنـاولت هند الخوذة اولا فوضعتها على رأسه ثم تناولت بقية اجزاء الدرع فألبسته اياها والشعراء ينشدون والجواري يرتلن وكلهم فرحون الا ثعلبة فانه لبث صامتـاً مقطب الوجه وخصوصاً لما رأى ابنة عمه تلبس تلك الدرع لحماد بيدها وهي فرحة بفوزه . أما هي فاغتنمت الفرصة باشتغال الناس وهمست في اذن حماد قائلة « سنلتقي غداً في دير بحيراء » فنزلت تلك الالفاظ برداً وسلاماً على قلبه

فلما تم الباس الدرع عادت هند الى مجلسها والناس وقوف وبعد قليل جاءت الاسمطة ومدت الموائد وجلس الناس للطعام . فاذا كان العشاء تفرقوا فذهب كل الى سبيـله وهم يتحدثون بسباق ذلك اليوم وما كان من فوز حماد . وبقي ثعلبة عند عمه وقد اعمل فكرته في طريقة يخرج بها مما وقع فيه من الفشل

اما هنـد فتظاهرت بالتعب واستأذنت في الذهاب الى غرفتها فودعت والدها وثعلبة ومضت وبقي جبلة وثعلبة على انفراد

فقال ثعلبة لم يسؤني سبق هذا الرجل لي بمقدار ما ساءني انه نال الجائزة وهو غريب لا يعرف له نسب وقد حرم منها امراء غسان وفرسانهم

فقال جبلة اما انا فلم يسؤني نيله الجائزة اذ قد ينالها سواه في سباق آخر ولكنني أعجب لتستره وقد فاتني أن أسأله عن أصله على انني سأرسل اليه واسأله في فرصة أخرى

فقال ثعلبة لا بد من البحث عنه لئلا يكون جاسوساً أو عيناً علينا من قبل اللخميين ملوك الحيرة وكأني أرى في لهجته ما يدل على ذلك

قال جبلة ولكن ملك العراق قد خرج من ايدي اللخميين لما علمت من مقتل النعمان بن المنذر وولاية اياس بن قبيصة من قبيلة طي وزد على ذلك ان هذا الشاب لا يظهر في هيئته وشكله ما يدل على جاسوسيته فهو اقرب الى أولاد الامراء منه الى السوقة فاذا كان من أهل الحيرة فهو من امرائهم لان الهيبة ظاهرة على وجهه

فشق ذلك المدح على ثعلبة فعمد الى الروغان فقال وهل يؤخذ الناس بظاهرهم فكم من رجل نظنه ملاكا فاذا خبرته ظهرت لك عيوبه فتجده من أسافل السوقة فارى أن نحمله على الاقرار بحقيقة حاله قسراً فاذا كان من أهل الحيرة أخرجناه الى بلاده واذا كنت تستنكف من اخراجه فوالدي يخرجه لانه مقيم بقرب بصرى

قال سننظر في ذلك غداً فلا نحرم وسيلة نستريح بها . وقضيا بقية تلك الليلة بالاحاديث المتنوعة ثم ذهب كل منهما الى منامه في غرفة خاصة بالقصر

الفصل الرابع

هند في غرفتها

أما هند فدخلت القصر فلاقتها والدتها وكانت شديدة الولع بها لانها رزقت اولاداً كثيرين لم تهنأ منهم بسواها فقبلتها وصعدت بها الى طريق علوي ودخلت بها الغرفة وامرت الخدم فاعدوا لها الفراش ثم جاءتها الماشطة بثياب النوم فنزعت حليها والبستها جلباباً واسعاً من الحرير الناعم الشفاف ثم حلت خصلة شعرها ونزعت ما في ضفائرها وعلى صدرها واذنيها ومعصميها من الحلى واستخرجت خلاخلها واعدت لها السرير وهو من خشب الارز في أجمل

ما صنع الصانعون عليه الوسائد الحريرية الملونة غطاؤها من ابدع انواع النسج صنع القسطنطينية وكان في الغرفة مشمعة فيها بضع عشرة شمعة تفوح منها رائحة العنبر . فقد كان من ضروب البذخ عندهم ان يمزجوا الشمع بشيء من الاطياب فاذا أنير تصاعدت عند احراقه رائحة الطيب وكان في جدران الغرفة صور جميلة اكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبه وصعوده كلها متقنة التصوير ملونة بالوان طبيعية وفي بعض جدران الغرفة مرآة هي عبارة عن صفيحة مستديرة من الفضة مصقولة صقلاً خصوصياً حتى صارت كالزجاج تعكس النور وتري الاشباح كمرآة هذه الايام لان الناس لم يكونوا يعرفون المرآة الزجاجية بعد

فبعد أن لبست هند جلبابها وقفت امام المرآة فاصلحت شعرها وثوبها وذهبت الى السرير فجلست وهي الى تلك الساعة لم تتبسط بنت شفة وكانت والدتها مذ دخلتا الغرفة جالسة على وسادة تتأمل بجمال ابنتها وقوامها وبما وهبتها العناية من الصحة والعقل وفي نفسها شيء تنتظر فرصة لتبوح به وكانت هند أثناء تبديلها ثيابها غارقة في بحار الافكار تراجع ما مر بها في ذلك النهار من الغرائب وكلما تذكرت حماداً وسبقه لثعلبة وما أظهره هذا من الحسد وما ادعاه من الفروسية وكيف انه عاد فشلاً ازدادت احتقاراً له ونفوراً منه وحباً لحماد . ولكنها كانت مع ذلك شديدة الحرص على منزلة والدها وشرف قبيلتها وخافت أن يتعلق قلبها بحماد ثم تجد انه من أصل دنيء فيحول ذلك دون ارضاء والدها وسائر أهلها فتقع في الشقاء وكانت كلما تصورت ذلك اقشعر جسمها فتعلل نفسها بان من كان في مثل هذه الشهامة وهذه الاخلاق مع ما يتجلى في وجهه من الهيبة والوقار لا يمكن ان يكون دنيء الاصل ثم تعد نفسها بكشف حقيقة حاله عندما يلتقيان في دير بحيراء

وكانت والدتها واسمها سعدى في الخامسة والاربعين من عمرها لا يزال الجمال ظاهراً في وجهها فقد كانت من أجمل بنات غسان وكثيراً ما تغزل بها شعراؤهم ولما تزوجها جبلة حسده كل اهل عشيرته عليها

ثم جلست هند على السرير بجلبابها وقد ارخت شعرها وحسرت عن

زنديها وكانا مستديرين ممتلئين مشرقين يزينهما الوشم . على اليمين منهما صورة الصليب وعليــه السيد المسيح مصلوباً وعلى اليسار صورة مريم العذراء تحمل طفلها . ولو رآها حماد في تلك الحال لنطق بمثل قول الشاعر

نالت على يدها ما لم تنله يدي　　نقشاً على معصم اوهت به جلدي
كأنه طرق نمـل في أناملها　　او روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها　　فالبست زندها درعاً من الزرد

فاتكأت الى وسادة من ريش النعام أهــدتها اياها امرأة والي دمشق وألقت رأسها على كفها التماساً للراحة وقد ضايقها الجلوس معتدلة بين الرجال طول ذلك النهار فلبثت صامتة لا تتكلم وأفكارها تائهة فتذكرت القصبة التي سلمها اليها حماد عند سبقه الاخير وكيف أنها مبربة مع ما لحظت على وجه ثعلبــة من دلائل السوء والحقد فارتابت في أمره وودت السؤال عن سبب ذلك فمنعها حماد كما تقدم

ثم ابتدأت والدتها بالحديث قائلة لماذا لم تنزلي اليوم للسباق يا هند

قالت لم ار مسوغاً لان الفرسان كانوا كثيرين وطال الجــدال بين المتسابقين حتى غابت الشمس فلم يبق وقت لركوبي

قالت وما الذي دعا الى هذا الجدال

قالت بعد أن تم السباق أراد ثعلبة مسابقة السابق فعاد فشلاً فزادنا خجلاً

فتبسمت سعدى تبسماً خفياً وقالت رأيت الفرسان عديدين فمن نال قصب السبق منهم . قالت وقــد أبرقت اسرتها رغم ارادتها ناله شاب غريب اسمه حماد لا يعرف احد نسبه فشق ذلك على والدي وابن عمي اذ لا يليق ان يكون السباق في حمانا ويفوز بقصب السبق غريب

قالت ومن هما الفارسان اللذان تسابقا آخر النهار

قالت هما ابن عمي ثعلبة وحماد

قالت رأيتهما عادا مرتين

قالت تسابقا أولا فسبق حماد فانكر ثعلبة ذلك على نفسه وزعم السبق

الى الفرس فتنازل له حماد عن فرسه وركب هو فرس ثعلبة ويا ليتنا بقيناعلى العار الاول لان ثعلبة عاد مخزولاً هذه المرة ايضاً — ومما استغربته ان حماداً جاء بالقصبة مبتورة كانها ضربت بسيف

فضحكت سعدى وقالت ألم يخبركم بسبب بريها . قالت لا . وكنت عازمة على البحث عن سبب ذلك فرأيت حماداً لا يريد فكففت

فقالت بورك فيه انه بالحقيقة شهم كريم الاخلاق ولا ريب عندي أنه رفيع النسب

فطربت هند لامتداح والدتها حماداً وقالت ما معنى ذلك يا اماه هل تعلمين من امر هذه القصبة شيئاً

فهمست في اذنها قائلة نعم اعلم يا هند ان تلك القصبة قد قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة . فبغتت هند واشتاقت الى معرفة تفصيل الخبر فاعتدلت على سريرها وقالت كيف وقع ذلك

قالت ان ابن عمك كان عازماً على الفتك بذلك الشاب سامحه الله . ووالله لو فعل ذلك لالبسنا عاراً لا تمحوه الايام

فازدادت هند استغراباً وقالت لها وما أدراك بذلك يا اماه

قالت رأيتهما رأي العين

فقالت وكيف تيسر لك رؤيتهما ونحن أقرب اليهما منك ولم نرها

قالت مهلي لاقص عليك الواقع . فاصغت هند بكل جوارحها فنهضت سعدى الى الباب فاغلقته وجلست تقص عليها الخبر وتحاذر ان يسمعها احد فقالت : لما خرجتم جميعاً الى الخيام وخرج اكثر من في القصر اليكم بقيت انا وسليمة المولدة وبعض الخدم وكنا نرى المتسابقين يبدأون بالشوط ولكننا لا نرى آخره فخرجنا وفي نفسي ان ارى حلبة السباق وكيف يقتلع السابق القصبة فانه منظر يفرح القلب اذ ليس ألذ من النصر . فخرجنا من بعض ابواب الحديقة الى البساتين المجاورة لضفة الغدير لا يرانا احد حتى وصلنا الى مكان تحت شجرة اشرفنا منه على حلبة السباق ونحن على مرمى حجر منها نرى ولا نُرى . فلما كان السباق الاخير شاهدت ابن عمك متأخراً عن حماد

لا يعجز فرسه لاننا رأينا الفرس يستحث فارسه ليطلق له العنان وهو يمسكه كأنه خاف الوقوع عن ظهره ولولا ذلك لكان هو السابق والسبق في الميدان للافراس اذا أحسن فرسانها ركوبها واستطاعوا الثبات على ظهورها نخوف ثعلبة الوقوع عن فرس حماد اكثر عاراً عليه من تأخيره عنه . اما حماد فاطلق لفرسه العنان وكان يستقبل عرض الفلاة كما تستقبل الام رضيعها حتى وصل الى القصبة . وفيما هو يقتلعها رأينا ثعلبة هاجماً عليه وقد شهر سيفه وهمَّ بقتله فاستلقى حماد السيف بالقصبة فقطعت ثم رأينا حماداً اقتلع ثعلبة من صهوة جواده ورمى به الارض وجثا على صدره . نخفنا ان يقتله ثم سمعنا ثعلبة يستجير به ويستعطفه فنهض عنه وتصالحا وتعانقا وعادا

فما أتمت سعدى حديثها حتى اختلج قلب هند اعجاباً بشهامة حماد وازدادت احتقاراً لثعلبة وقالت لوالدتها أهذا هو ثعلبة بن الحارث .. ؟ أيليق بغسان ان يكون ابن ملكها خسيساً الى هذا الحد ..؟ أيليق به ان يغدر بشاب في ريعان الشباب ولا ذنب له الا انه افرس منه — وزد على ذلك انه نزيل في بلادنا وله علينا حق الجوار

فرأت والدتها في كلامها حقاً ولكنها لم تشأ ان تمكن البغض في قلبها وحسبت بنفسها الف حساب من جملتها أن ثعلبة ارفع بني غسان مقاماً وليس أقرب منه للزواج بهند ولعل جبلة يرغب في ذلك فاذا نفرت منه كان نفورها سبباً لتنغيص عيش ابنتها فقالت لها لا بد من تأنيبه ولومه حتى يرجع الى الاخلاق به وبمن كان في مقامه ونسبه

فسكتت هند لا عن اقتناع ولكنها صبرت نفسها لترى ما يكون من أمر حماد غداً وهي تعلم ان ذهابها الى الدير قد لا يتيسر بغير والدتها فلا يخلو ان تلحظ أمر اجتماعها بحماد فماذا تقول لها لو سألتها عنه . وتعلم أيضاً ان والدتها حادة الذهن سريعة الخاطر دقيقة الملاحظة . ففكرت في الامر قليلاً فرأت أن لا بد لها من استطلاع والدتها والاستعانة بها على نيل حماد وقد ارتاحت الى هذا الرأي لما عاينته من انصاف والدتها وامتداحها شهامته ولكنها ودت قبل كل شيء أن تجتمع به على انفراد لتطلع منه على حقيقة حاله وتستطلع

افكاره ثم تطلع والدتها على الامر بالاسلوب الذي تختاره

فقالت لها مضت عليَّ مدة طويلة يا أماه وقد نذرت نذراً لدير بحيراء لم أفهِ بعد ويلوح لي ان ما رأيناه في هذا النهار من السوء انما كان لتأخرنا عن وفاء النذر

قالت لعله ذلك فان لهذا الدير كرامات كثيرة ولا صبر له على تأجيل النذور فاسرعي في ايفائه . قالت أرى ان اذهب اليه غداً ان شاء الله

قالت ولكنني لا أستطيع الذهاب معك في الغد لاني ذاهبة مع والدك الى البلقاء فاذا أجلت الذهاب الى بضعة أيام سرنا معاً

فسرت هند لهذا الحل الذي جاء من تلقاء نفسه فقالت لا أُراني قادرة على التأجيل واخشى أن يزيد غضب الله علينا ولا أرى موجباً لذهابك معي فقد أذهب مع الخدم متنكرة أقضي نهاراً هناك ثم أعود

قالت افعلي ما بدالك — ثم ذهب كل الى فراشه أما هند فلم يكد يغمض لها جفن وهي تتذكر ما مر بها في الامس وتفكر في ماذا تكلم حماداً اذا اجتمعت به في الغد

الفصل الخامس

حماد

أما حماد فانه عاد من صرح الغدير تلك الليلة وهو يكاد يعثر باذياله لانشغال باله وما برحت الفاظها ترن في أذنيه وهي قولها « ستأتي غداً في دير بحيراء »

فلما خرج من الصرح لقيه خادمه والفرس بقرب الخيام فنزع الدرع عنه وجعلها في خرج الفرس وركب وسار يطلب منزله وكان مقيماً في قرية غربي مدينة بصرى وعلى ستة أميال منها يقال لها غسام (١) ولم يأت حماد الشام الا

(١) مري

منذ بضعة أشهر جاءها لأمر لا يعلمه الا واحد . فاقام في منزله المشار اليه يقضي بعض نهاره في البيت وبعضه في الصيد فيصطحب رجلاً يظنه والده ومعه بعض الخدم فيخرجون للصيد في ضواحي البلقاء فيعودون وقد اصطادوا بعض الغزلان أو غيرها

وكان قد تعود ركوب الخيل منذ صباه ومارس الفروسية وفرسه من أجود خيول العرب . وكان قد سمع بهند وقرأ شعراً في وصفها قبل خروجه من بلاده فعلق بها عن بعد . ثم دعاه والده ان يصحبه الى الشام فعوّل في باطن سره على السعي في التقرب منها لانه يظن نفسه دونها مقاماً . فاخذ منذ قدومه الشام يتردد الى جهات صرح الغدير راكباً أو ماشياً يتعلل بالمرور هناك لعله يشاهدها. وكان ينزل الغدير أحياناً فتراه ويراها وهي لا تفقه لمراده وكلما سمع باحتفال عمومي جاءته هند في الكنائس أو غيرها اسرع اليه وسعى في استلفات انتباهها . فكانت اذا رأته ارتاحت الى رؤيته وهيبته ورزانته. فلما كان السباق الماضي حضره لاول مرة فاظهر من الفروسية والشهامة وكرم الاخلاق ما زادها ارتياحاً الى مشاهدته . واتفق أنها نزلت ذلك السباق هي بنفسها فتخاطبا وتبادلا رموزاً لا غنى عنها في أوائل الحب فنزل من قلبها منزلاً رفيعاً وصارت تشعر بشوق الى رؤيته اذا غاب عنها على أن ميلها هذا لم يكن يتجاوز حد الارتياح ولا خطر ببالها أمر الاقتران به على أنها فهمت من اشاراته وحركاته وسائر احواله انه طامع بها ولكنها كانت تجهل الحب وسلطانه فلم يذق قلبها طعمه على انها آنست في حماد اخلاقاً واطواراً تنطبق على اخلاقها واطوارها من حيث التعقل والرزانة والميل الى الشهامة والحرية

فلما شاهدت ما شاهدته في السباق الاخير من شهامته وحريته تقرر في ذهنها أنها خلقت له وخلق لها وهذه أول مرة خطر ببالها امر الاقتران به وساعدها على ذلك ما آنست من ارتياح والدتها اليه وامتداح شهامته والثناء على مروءته ولكن امراً واحداً كان يعترضها فيوقفها عن عزمها وهو تستر حماد وكتمان اصله فخافت ان لا يكون ذا حسب يقربها منه او ان يكون على مذهب غير مذهبها فان العرب كانوا اذ ذاك على مذاهب شتى وفيهم النصارى

واليهود والوثنيون والمجوس وظهر في أثناء ذلك الاسلام لكنه لم يكن ادرك الشام بعد . على ان الوثنية والمجوسية واليهودية كانت محصورة في جزيرة العرب فكانت المجوسية في بني تميم واليهودية في حمير وبني كنانة وكنده وغيرهم وكان كثير من اليهود في يثرب ناهيك بخيبر والاوس والخزرج الذين قدموا يثرب بعد سيل العرم وفيهم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع وما هم بالحقيقة من العرب بل هم حلفاؤهم (١) وكانت عرب تلك الجزيرة يقدمون الشام وبصرى وفيهم الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني وغيرهم وهم انما يقدمون للتجارة فيمكثون ببصرى او في دمشق الشام او غيرها بضعة اسابيع او بضعة اشهر ويعودون (٢)

فخافت هند ان يكون حماد وثنياً او مجوسياً فيمتنع الاقتران بينهما فطلبت الاجتماع به في الدير لتتحرى ذلك كله

فاعتد الى حماد ليلة خروجه من القصر فانه ساق جواده زميلاً وخادمه يجري الى جانبه وهو يريد ان يدرك منزله قبل أن يقلق والده لغيابه لانه فارقه من فجر ذلك اليوم ولم يعد يراه

وبينما هو في ذلك سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه وصوتاً يناديه (حماد) فقال نعم يا ابتي ألعلكم خرجتم للتفتيش عني

قال كيف لا نخرج وقد ابطأت علينا في العود وها قد مضى هزيع من الليل ونحن كما تعلم في ديار الغربة

فسكت حماد وسارا معاً على فرسيهما حتى مرّا ببساتين القرية بين اشجارها والناس نيام فوصلا المنزل في اطراف تلك القرية فدخلاه وقد انيرت غرفه بالمصابيح فاسرع حماد الى غرفته فجاؤوه بالماء والثياب فغسل وجهه ويديه ورجليه وبدل ثيابه واتكأ الى وسادة ووالده الى جانبه واسمه عبد الله . وهو امير من امراء العراق اللخميين ذوي اليسار وقد بلغ الخامسة والاربعين من عمره قضى معظمها في الاسفار والحروب في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق فحنكته التجارب والايام وعلمته ولكنه انقطع في ذلك العام الى

(١) ابن الاثير (٢) ملطبرن

حماد لقضاء مهمة جاء من أجلها الى بلاد الشام

فلما جلسا قال عبد الله ما الذي أخر مجيئك الى الآن يا ولدي

قال ألم اقل لك في مساء الامس اني سائر في هذا الصباح الى صرح الغدير

قال بلى ولكن هل طال مقامكم في السباق الى الآن وهل كان المتسابقون كثيرين

قال نعم يا أبتاه ان السباق لم ينته الى الغروب ثم احتفلوا بالباس الدرع للسابق أما المتسابقون فكانوا كثيرين وفيهم جماعة كبيرة من أمراء غسان وفي مقدمتهم ثعلبة بن الحارث صاحب بصرى

فقال ومن هو السابق يا ترى

قال ولدك حماد

قال لا شلت يمينك هكذا تكون الفروسية فقد سبقت أمراء غسان وأنت غريب بينهم فهل لبست الدرع وأين هي . . ؟

قال وقد نلت قصب السبق ولبست الدرع بعد ذلك الطويل ولكنني عاينت من كرم أخلاق جبلة ورجاله ما حقق لنا ما نسمعه عن حسن وفادة الغسانيين . أما الدرع فهي في الخرج

فقال عبد الله وهل نزلت فتاة غسان للسباق هذه المرة فقد أخبرتني المرة الماضية وسمعت من كثيرين انها تحسن الفروسية وكثيراً ما تنزل ميدان السباق لمسابقة الفرسان

فلما ذكرت هند خفق قلب حماد وظهرت عليه ملامح البغتة وابث برهة يفكر

فادرك عبد الله انه يفكر في أمر هام

فقال ما بالك لا تجيب يا ولدي

فانتبه حماد وخجل لما ظهر عليه فقال لم أفهم مرادك

قال سألتك عن هند بنت الملك جبلة هل نزلت للسباق هذه المرة

قال لا يا أبتاه لم تنزل ولكنها شهدت السباق وخصته بالباس الدرع للسابق قال ذلك وامارات السرور والهيام ظاهرة على وجهه

فلحظ عبد الله ان حماد يحوم حول الشراك فاراد تحقق ذلك فقال له كيف رأيت فتاة غسان هل هي كما نسمع عنها من الجمال واللطف

فابرقت أسرة حماد وطفق يصف جمالها ولطفها وصفاً يدل على تعلقه بها فكان يتكلم وعيناه مشرقتان وقلبه يخفق وكثيراً ما كانت تخونه الالفاظ في التعبير عن أوصافها

نخاف عبد الله على حماد ان يقع في الشراك فاطرق وظهرت عليه مظاهر الانقباض والاسف معاً فاتم حماد كلامه وعبد الله مطرق وكأن أمراً ذا بال اعترضه

فنظر حماد اليه وقد عجب لحاله وما طرأ عليه من التغيير بغتة فقال له ما بالك يا أبتاه أراك قد وقعت فيما أنبتني عليه فهل ساءك من أمر شيء

قال حاشا يا ولدي ولكنني افكر في هذه الفتاة وماخصها الله به من المواهب والخصال وكذلك تكون بنات الملوك

فسر حماد لاستحسان عبد الله لها ولكنه خاف التصريح بأكثر من ذلك لئلا ينكر عليه الامل بالحصول عليها وهي من بنات الملوك وهو لا يعرف عن نفسه الا أنه من أولاد بعض الامراء

وكان عبد الله من الجهة الثانية راغباً في تحقق ما اذا كانت هند تحب حماداً مثل حبه لها فقال أرى هنداً قد وقعت من قلبك موقعاً عظيماً فهل هي عالمة بذلك وهل خطر حماد ببالها

فاثر هذا الكلام في قلبه تأثير السهام وعده اهانة له حتى كاد يصرح بكل ما في قلبه ولكنه عاد الى تعقله وحكمته فقال لا أعلم منزلتي عندها ولكنني رأيت منها ميلاً وارتياحاً لي

فقال يظهر ان قلبك خدعك فتخذت لطفها الاعتيادي الذي تظهر به لدى سائر الناس دليلاً على حب خصوصي لك

فقال لا أظن قلبي يخونني أو يخدعني فقد علمت من قرائن عديدة أنها تحبني

فقال وكيف تحبك وأنت غريب ولا نسب ولا نسبة بينك وبينها

قال اعلم انها تحبني ... وسكت

فقال عبد الله افصح يا ولدي ولا تخف عني شيئاً فانت تعلم اني منقطع عن العالم كله من أجلك فاشرح ما يخطر ببالك ولا تخف فان مايسرك يسرني

فقال قلت لك انها تحبني

قال اذاً أنت طامع بها

قال لا أدري وكل شيء بقضاء وقدر

فتحقق عبد الله وقوع حماد في شرك الهوى فبغت وصمت وجعل يتلاهى بنتف عثنونه وقد همه ذلك الامر كثيراً

فلما عاين حماد منه ذلك ظنه استعظم عليه الطمع ببنت ملك غسان فقال له ما بالك لا تتكلم هل ساءك ما ظهر لك مني

فابتدره عبد الله قائلاً لا يا ولدي لم يسئني ذلك ولكنني افكر في أمر عظيم يهمني كما يهمك وقد قطعنا الصحاري والقفار من اجله واراك قد شغلت عنه بامر آخر

قال وما تعني بذلك الامر العظيم وما الذي شغلني عنه لم أفهم مرادك

فقال ألم نأت من العراق الى بصرى لنفي نذراً نذرناه لك منذ ٢١ سنة ولم يبق من أجل انتظاره الا بضعة أيام

قال بلى . فقال ما لي أراك قد شغلت عنه بالحب والغرام

فخجل حماد عند سماع ذلك التوبيخ من والده فقال وهل يؤخذ من كلامي اني مشتغل بالحب والغرام

فقال عبد الله : اتظن اني غافل أو تحسب ان دلائل الحب تخفى على البصير

فتحير حماد ولم يدر كيف يدفع قول أبيه ولكنه رأى الافضل ان يبوح له اذ لا غنى له عنه في اتمام قصده فقال وهب اني احببتها واحبتني فما علاقة ذلك بالنذر ونحن انما جئنا لقص شعر رأسي في دير بحيراء فما يمنع ان نفعل ذلك

وان نفعل شيئاً آخر

قال عبد الله أن هناك علاقة كبرى لا يمكنني التصريح بها الا في اليوم الذي تقص شعرك فيه وستعلم اذ ذاك أموراً أنت غافل عنها الآن فلا تلومني على ترددي في أمر حبك لبنت ملك غسان . انا أعلم ان حبك لها شرف وخصوصاً اذا كانت هي تحبك ولكنني لا أستطيع التصريح بشيء الا في اليوم المعين لوفاء النذر وهو يوم أحد الشعانين . فنحن الآن في أواسط الصوم الكبير ولم يبق للموعد الا بضعة أيام فتتم السنة الحادية والعشرون من ولادتك فنقص لك شعرك ونكشف حقيقة أمرك فتدخل عالماً جديداً وتطلع على أسرار ربما كان فيها ما يحول بينك وبين هند

فتعجب حماد لذلك واشتاق الى مجيء يوم الشعانين شوقاً زائداً وأخذ يفكر في كلام عبد الله ولكنه قال له وماذا عسى ان يحول بيني وبينها

قال قلت لك أني لا أقدر على التصريح باكثر من ذلك فأرى ان تتبصر وتتأنى ففي التأني السلامة

وكان في عزم حماد ان يطلعه على ما تواعدا عليه من الالتقاء في دير بحيراء فلما رأى منه هذا التهويل كتم أمره ليرى ما يكون بعد اجتماعه بها ثم يكاشفه بكل شيء على انه حسب تهويل والده حيلة في ترغيبه عن هند

وكان قد مر نصف الليل وغلب التعب والنعاس على حماد ولحظ عبد الله منه ذلك فقال هلم بنا الى الفراش يا ولدي الى ان يقضي الله بما يشاء ولكنني أوصيك ان لا تقطع أمراً او تصله الا بعد يوم الشعانين فانك اذا فعلت شيئاً بعد ذلك انما تفعله عن بصيرة

فسار حماد الى فراشه وقد همه أمر يوم الشعانين حتى كاد ينسيه هنداً وموعدها وود أن يفعل ما امره به والده ولكن عواطفه غلبت عليه فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظمآن الماء فقضى معظم الليل ولم يغمض له جفن وهو يتردد بين حديث الشعانين وحديث هند حتى كان آخر الليل فنام قليلاً

الفصل السادس

مدينة بصرى

واصبح حماد في الفجر فهرول الى ثيابه فلبسها وعبد الله لا يزال نائماً فاراد ان يوقظه ليستأذنه في الذهاب الى بصرى على سبيل التفرج فخاف ان يطلب الذهاب معه فعزم على الخروج بنفسه خفية

فركب جواده وقد لبس الكوفية والعقال وجعل عليه العباءة فوق القباء وسار شرقاً قاصداً مدينة بصرى ولم يصطحب أحداً من الخدم اخفاء لما سار من اجله وكانت الطريق بين غسام وبصري على استقامة واحدة كأنها هندمت بالقدة والفادن والبركار مرصفة بالحجارة الصلدة على نظام سائر طرق الرومان وقد تأكلت الحجارة من مسير عجلات مركباتهم [١] يحدها من الجانبين حائطان ضخمان ارتفاع كل منهما ذراع . ولم يسر ساعة حتى أطل على بصرى واول ما شاهده منها حوضها الكبير الغربي الواقع خارج السور وهو عبارة عن خزان للمياه كبير طوله ١٣٥٠ قدماً وعرضه ٦٥٠ قدماً وكان لبصرى أحواض أخرى في الشرق والشمال لخزن الماء خوفاً من الجدب لبعدها عن الانهر والغدران [٢]

فلما دنا من ذلك الحوض عرج نحوه وتأمل اتساعه حتى كاد يحسبه بحيرة كبيرة لانه كان على معظم امتلائه في أوائل الربيع ثم تحول عنه الى مرتفع من الارض ليرى بصرى منه وهو لم يدخلها بعد ولكنه قرأ عنها في كتب الفرس والكلدان وعرف انها واقعة في جنوبي حوران شرقي نهر الاردن تبعد ٩٠ كيلو متراً عن دمشق جنوباً شرقياً و ١٣٠ كيلو متراً عن بيت المقدس شمالا شرقياً وانها قديمة العهد عاصرت دول اليهود ثم اليونان والرومان [٣] فلما دنا منها صعد الى مرتفع فاشرف عليها وقد اشرقت الشمس

(١) جون مري وغيره (٢) ميريل (٣) الانسكلوبيذيه البريطانية

فاذا هي مربعة الشكل تقريباً مالئــة بقعة كبيرة من الارض المنبسطة حولها سور يزيد محيطه على أربعة أميــال وشاهد خارج السور البساتين والاشجار والكرم وسائر أصناف الغرس ورأى من وراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الافق وقد اعجبه منظر الميــاه في الاحواض حول المدينة تتلألأ بانكسار الاشعة عنها وشاهد في المدينة بنايات هائلة كان منظرها بوجه الاجمال مغبراً لان حجرها من الصنف الحوراني الاسمر المشهور فاشتاقت نفسه الى مشاهدة اسواقها فسار نحو بابها الغربي فرأى عنده القوافل وفيها الجمال والبغال والحمير بعضها قادم من العراق تحمل الاقمشة الفارسيــة وبعضها من اليمن تحمل الاطياب والمر واللبان . وشاهد قوافل أخرى تحمل البضائع الرومانية وسائر مصنوعات الشام [1] وتأمل الباب فاذا هو مرتفع هائل الكبر مصنوع على النمط الروماني وفيــه العضائد والاعمدة والنقوش على عتبته من الاعلى نقش باللغة اللاتينية لم يستطع قراءته فهم بالدخول من ذلك الباب فرأى الشارع مرصفاً بالحجارة والناس يتزاحمون ذهاباً واياباً ففضل الترجل والسير ماشياً فدخل وقاد الجواد وراءه في شارع المدينة الاكبر وهو يقطعها من الغرب الى الشرق ويقطعه شارع آخر مثله من الشمال الى الجنوب وهما اكبر شوارع المدينة ومنهما تتفرع الشوارع الصغيرة والدروب والازقة والحارات على زوايا قائمة فعجب لانتظام تلك الشوارع وحسن هندامها لانه لم يشاهد على نظامها ولا في المدائن عاصمة الفرس في ذلك العهد

ولم يكد يخطو في ذلك الشارع بضع خطوات حتى تراءى له عن بعد قنطرة قائمــة في عرض الطريق فعلم انها قوس نصر اعتاد الرومانيون بناءها تذكاراً لانصر أو لاحتفال يحق به الفخر . فلما دنا من القنطرة رآها مؤلفة من ثلاث اقواس قوس متوسطة كبيرة وقوسين جانبيين صغيرتين . وعلو القنطرة اربعون قدماً وعرضها اربعون وسمك كتفها عشرون وكلها مبنية باحجار ضخمة قائمة على عضائد مهندمة . وفي أعلى القوس كتابة باللاتينيــة تشوق حماد الى استطلاع معناها [2] فالتفت الى أحد اصحاب الحوانيت وقد عرف من

(١) بوركهارت (٢) [illegible]

شكل أنفه انه روماني وكله باللغة الكلدانية الممزوجة بالعبرانية . فاشار ذاك الى رجل جالس بالقرب منه كأنه يطلب اليه أن يترجم له خفاء فسأله حماد عن تلك الكتابة فقال معناها ان يوليوس يوليانوس قائد الفرقة الاولى البرطية بناها [1] فاعجب ببذخ الرومان وايقن أنهم أقرب الى العظمة والترف من ملوك فارس وقال في نفسه اذا كانت هذه حالهم وهم في دور الانحطاط فما هو مقدار عظمتهم وبذخهم في ابان مجدهم . فمر من تحت تلك القوس وسار في جهة واحدة فوصل الى مزدحم من الناس عظيم فاذا هو في متصالب الطرق حيث يلتقي الشارعان الكبيران وهناك الحوانيت الكبيرة وباعة الاقمشة الثمينة ولكنه رأى على أحد اركان ذلك المتصالب بناء شاهقاً ذا اروقة ونوافذ وأعمدة ونقوش بديعة فسأل عنه فقيل له انه هيكل بناه الرومان لعبادة الاوثان قبل تنصر قياصرتهم واما الآن فقد اتخذوا بعضه معبداً والبعض الاخر يسكنه كبار حامية الروم في بصرى [2] ووقف في ذلك المكان والتفت الى ما حوله فاذا هو في منتصف المدينة ومن هناك تمتد اربعة شوارع كبيرة تنتهي عند السور باربعة ابواب غربي وشرقي وشمالي وجنوبي . ثم تحول الى الشوارع الاخرى ليتعهدها ثم يخرج من الباب الشرقي ومنه يصل الى الدير فشاهد بين ابنية بصرى قصوراً شاهقة معظمها من الكنائس وبعضها من الهياكل الوثنية بنيت على عهد الروم قبل تنصرهم وفي جملتها مرسح بديع كانوا يلعبون فيه العاب السباق والمصارعة . وشاهد على تلك الابنية كتابة بعضها نقوش وبعضها اصبغة واكثرها مكتوب باللغة اليونانية واللاتينية وبعضها باللغة النبطية

فاخذ يتأمل ما هنالك من الرساتيق والاسواق وفيها التجار واكثرهم من الغرباء وبينهم الدمشقي والحلبي والبدوي والرومي والفارسي والعراقي . ثم وصل سوق الصناع فوجد اكثر الصاغة من الفرس والروم وصناع الاقمشة الحريرية من الدمشقيين ومر بسوق الاسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة واكثرهم من أهل دمشق . ولاحظ ان ابنية بصرى على اختلاف اشكالها مسقوفة بالحجر عقداً على شكل القبو ورأى الناس تزاحم في الاسواق

(١) فوجيه (٢) ميريل ووادنغ

رجالا ونساء وفيهم الوطنيون ولغتهم الآرامية أو النبطية وبينهم الروم ولغتهم اللاتينية وبعضهم يتكلم اليونانية وشاهد جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لا يزالون على بداوتهم لأنهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها الا لحاجة فعرفهم من لباسهم البدوي واعجب لما رآه هناك حتى كاد ينسى موعده مع هند ثم انتبه فاذا بالشمس قد كادت تبلغ الضحى فهرول حتى خرج من الباب الشرقي قاصداً الدير وقد عادت اليه هواجسه وشواغله

الفصل السابع

دير بحيراء

فركب جواده وما سار قليلاً حتى وصل الى مرتفع اشرف منه على بناء كبير شاهده عن بعد وحوله الاشجار والبساتين [1] وشاهد رجلاً على حمار يظهر من لباسه انه من أهل بصرى فسأله عن ذلك البناء فقال هو دير بحيراء يا سيدي

فساق جواده حتى دنا من الدير وهو يخاف ان تكون هند قد سبقته اليه على أنه يعلم أن المسافة بين الدير وقصر الغدير لا يمكن قطعها باقل من بضع ساعات فلا يتيسر لها المجيء قبل الظهر . وأخذ يتأمل الدير فاذا هو بناءان احدهما كبير وفيه قبة فوقها صليب علم أنها كنيسة والآخر صومعة على رابية . فترجل وشد جواده الى شجرة ولو تركه مطلقاً ما خاف فراره لانه أصيل ومشى نحو الكنيسة فاذا هي مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيراء. فدخل صحنها حتى جاء البيعة فرأى المكان ديراً وفيه كنيسة وشاهد الرهبان والقسس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اليونانية وهي لغة الكنيسة الشرقية الى ذلك العهد وبها تؤلف الكتب الدينية وسمع بعضهم يتكلم اللاتينية وهي لغة الحكومة وبها تصدر أوامرها [2] وبعضهم يتكلم اللغة السريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة أهل تلك البلاد بعد السبي وشاهد بعضاً آخر يتكلم لغات

(١) السيرة الحلبية (٢) جبن



فسأل عن سبب هذا الاختلاط فقال بعضهم ان بصرى مركز أسقفية بلاد العرب [illegible] وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنهـا يرسل الاساقفة الى ما تحتها من الاسقفيات (١) فدخل البيعة فزار هيكلها وقبل صورها ثم سأل عن دير بحيراء فقيل له هو صومعة بالقرب من هذا الدير

فسار اليه فاذا هو على رابية ولـكنه عجب لنوع بنائه ولم يكد يصدق انه بيت لانه عبارة عن خمسة أحجار ضخمة أربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع واحد ورأى الناس يفتحونه ويغلقونه بكل سهولة (٢) فسأل رجلاً واقفاً الى جانبه يظهر من هيأته ولباسه انه من أهل دمشق . فقال له ما هذا البناء وكيف يصنعون الابواب من الحجارة فاجابه ان هذا النمط من البناء كثير في بلاد حوران لان أرضهم صخرية والاخشاب فيها قليلة فيصنعون مصاريع أبوابهم ونوافذ بيوتهم وأجنحتها من الحجر وقد يبنون منزلاً كثير الغرف وفيه النوافذ والابواب والاروقة والسقوف ولا يدخلون في بنائه شيئاً من الخشب قط (٣)

فوقف هناك ينظر الى ذلك البناء الغريب ولم يكد يعرف الباب ولو لم ير الناس يخرجون منها فصعد الى الصومعة حتى وقف عند بابهـا فاذا هي غرفة مظلمة أشبه شيء بالمغارة لخلوها من النوافذ الا نافذة ضيقة في بعض جوانبهـا فدخل فرأى أرض الغرفة حجراً واحداً أيضاً في جدرانها صور أمام كل صورة مصباح ضعيف النور . وفي بعض جوانب المـكان راهب هرم قد أرسل لحيته على صدره وتجعد جلد وجهه الا انفه فانه ما زال بارزاً كبيراً وقد تناول بيده سبحة طويلة وجلس الاربعاء على حجر منحوت كالمقعد والتف بثوبه الرهباني والسبحة في يده والناس يدخلون اليه يتبركون بتقبيل كفه وهو يحرك شفتيه كأنه يدعولهم . فمن زاره سار الى الدير لزيارة الـكنيسة وبجوار الـكنيسة غرف لمن أراد الاستراحة او الاقامة

فتأثر حماد لمنظر ذلك الراهب الهرم اذ تمثلت له فيه مظاهر الشيخوخة

(١) انسيكلوبيذية الآثار الدينية (٢) دائرة المعارف
(٣) فوجيه

واضحة وضوحاً تاماً ولكنه لاحظ امراً واحداً استلفت انظاره وذلك انه رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان النساطرة في العراق وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك فتقدم نحوه وقبل يده فنظر اليه الراهب وتأمله كأنه عرفه وأمره بالجلوس فجلس وهو اكثر رغبة منه في مجالسته لانه ود كثيراً أن يعرف قصة ذلك البناء . وكان حماد قد تعلم كل علوم تلك الايام في مدرسة الرها الشهيرة بالعراق فتثقف عقله وصار محباً للاطلاع . فلما رأى في ذلك الراهب ارتياحاً الى مجالسته سر سروراً عظيما وتربع حالا فقال له الراهب ألست من عرب العراق يا ولدي

فتعجب حماد لسؤاله فقال نعم يا سيدي وكيف عرفت ذلك قال عرفته من ملامح وجهك لاني عاشرت عرب العراق زمناً . وهل انت مقيم هنا أم جئت مسافراً

قال جئت لافي نذراً عليَّ لهذا الدير

قال وما هو نذرك

قال نذرني والدي ان لا يقص شعري أولا الا في هذا الدير وانه لا يقصه الا بعد مضي السنة الحادية والعشرين من عمري وسيكون ذلك في احد الشعانين القادم فجئت اليوم لنيل البركة والتمتع بمنظر هذه الصومعة اذ كثيراً ما حدثنا اهل بصرى عن الراهب بحيراء . ألست أنت هو يا سيدي

قال لا يا ولدي ان الذي تطلبه قد قتله بعض الاشرار غيلة

قال كيف قتلوه ولماذا فاني كثير الميل الى استطلاع خبره . وقد أراد حماد الاشتغال بالحديث لتمضية الوقت ريثما تأتي هند لان الانتظار صعب

الفصل الثامن

الراهب بحيراء

فتنهد الشيخ تنهداً عميقاً وحملق عينيه وقد نسي شيخوخته وكأن شبابه عاد اليه وأخذ يمشط لحيته باصابعه وقال أما بحيراء فهو من نعم الله على بني الانسان ولا أظن الارض تجود بعده بمثله . أما حكايته فقد وقعتَ على خبير فاعلم ان اسمه الحقيقي ليس بحيراء بل يوحنا [١] وأما بحيراء فهو لفظ كلداني معناه العالم المدقق أو المحقق لقبوه به لطول باعه في سائر العلوم [٢]

قال حماد وهل عرفته قداستكم معرفة شخصية

قال اني أحد تلامذته وقد تلمذ له كثيرون غيري من جملتهم سلمان الفارسي [٣] اما انا فقد رافقته من أول ظهوره الى اواخر ايامه

فازداد حماد ميلاً الى معرفة حقيقة بحيراء فقال وماهي حكايته فقد شوقتني الى معرفتها

فقال اعلم ياولدي أن المرحوم يوحنا بحيراء كان راهباً نسطورياً على مذهب آريوس ونسطور ولا أظنك تجهل هذا المذهب وان يكن اتباعه قليلين لمخالفته مذهب القياصرة

قال حماد نعم اعرف كل شيء عنه وقد اطلعت على دقائقه في المدرسة على أحسن عارفيه

فقال الراهب فلا حاجة بنا الى شرحه اذاً فانت تعلم ان اساس هذا المذهب انكار الوهية السيد المسيح وان تسميته الهاً غير جائزة وانهم انتحلوا له اسماً فقالوا يجب ان يسمى كلمة الله وان والدته مريم يجب ان تدعى مظهر الناسوت لا والدة الله [٤]. قلت لك اني تلميذ بحيراء واعترف لك اني تلميذه في كل شيء ما خلا هذا المذهب قد قضيت أكثر أيام صحبتي له وانا في جدال دائم معه فلم يقتنع

(١) اسحق الكندي (٢) الدائرة (٣) مذهب تلميذ بحيراء (٤) دائرة المعارف

احدنا الآخر . أما في العلوم الاخرى فله عليّ الفضل الاكبر فقد اخذت عنه علم الفلك والحساب وعلم الطوالع وسائر علوم هذه الايام وكان لفراسته وحسن نظره يظنه الناس ساحراً . وكان يقيم أولا بدير في ما بين النهرين بالعراق وكنت اختلف اليه هناك اتلقى عنه بعض العلوم ولم اكن اعرف ما يذهب اليه. فلما اطلع رئيس الدير انه انتحل الاريوسة غضب عليه واخرجه من الدير فسار قاصداً دير طور سيناء في العقبة على حدود مصر فسرت انا معه للانتفاع بعلمه وحباً في خيره لعلي اقنعه وارده الى مذهب الكنيسة فرحب بنا رهبان طورسيناء واعجبوا بعلمه وفضله فاقمنا مدة ثم ورد كتاب من ديره الاول الى رئيس دير طورسيناء ان يخرجه من ديره فامره بذلك أو يتحول عن مذهبه فخرج وخرجت انا معه واتينا الى هذا الدير واقمنا في هذه الصومعة معاً الى امد غير بعيد فانه ذهب الى مكان في جزيرة العرب لم يسمه ولم اعد اره من ذلك الحين ثم علمت ان بعض اليهود قتلوه غيلة [1]

فقال حماد ألا تعلم اسم المكان الذي ذهب اليه

قال كلاّ ولكنني ظننته ذهب الى الحجاز لحادثة جرت معه على مشهد مني منذ نيف واربعين سنة

قال حماد وما هي

قال جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب أو غيرها ان تقف هنا للاستراحة من حر الصحراء والاستقاء فيجلس بحيراء بينهم وخصوصاً اذا كانوا من الوثنيين أو المجوس — وقد اجلس انا معه ايضاً — فيأخذ في تعليمهم عبادة الله ولا يريد بهم الا خيراً . وكان يعتقد ان الله ظهر له في الرؤيا وانبأه انه سيكون واسطة لهداية بني اسماعيل سكان جزيرة العرب لان هؤلاء العرب كانوا يعبدون الكواكب أو الاوثان الا جماعة منهم كانوا نصارى أو يهوداً وجماعة أخرى كانت تقر وتصدق بالبعث والنشور والثواب والعقاب وفئة قليلة كانت تقر بالخالق وتنكر البعث [2] فكان بحيراء يفكر ليلاً ونهاراً في مصير تلك الجزيرة واهلها فرأى مرة رؤيا قصها علينا قال « رأيت فتى جميل المنظر

(١) دائرة المعارف (٢) المسعودي

شهماً مولده ببرج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل علمت انه هو الذي سيهدي ابناء جلدته بني اسماعيل الى معرفة الله وان به يقوى امرهم ويشتد ازرهم وتجتمع كلمتهم فيذلون ابناء عمهم بني اسحاق ويتسلطون عليهم مدة كما اشار اليه دانيال في نبوته وانه يخرج من العرب اثنتا عشرة دولة » [1]

فاتفق منذ نيف واربعين سنة أي في نحو سنة ٤٨٠ بصروية [2] ان قافلة من قوافل الحجاز وصلت هذه الساحة وفيها جماعة كبيرة من عرب قريش الذين يقيمون في مكة وعندهم مقام شهير يؤمه الناس من سائر انحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة . وعرب قريش هؤلاء كانوا حجاب الكعبة وهم نسب وشرف يتصل باسماعيل . فنزلت القافلة تحت تلك الشجرة الكبيرة التي تراها شرقي هذه الصومعة فظلّلتهم جميعاً [3] وعقلوا جمالهم وربطوا حميرهم وانزلوا الاحمال التماساً للراحة ثم قدموا للاستقاء . فخرج بحيراء لمخاطبتهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلاماً جميلاً تلوح عليه ملامح المهابة والنجابة والذكاء فحالما رآه بغت والتفت فقال لي انظر الى هذا الغلام فانه مولود في البرج الذي قلت لك عنه وهو الذي سيهدي بني اسماعيل . ثم سأل كبير التجار عنه فتقدم رجل كهل تتجلى في وجهه دلائل الجلال والوقار فخاطبه بشأنه وقال من يكون هذا الغلام فقال هو ابن أخي فانبأه بحيراء بمستقبله وقال له احذر عليه من اليهود فانهم اذا عرفوه كادوا له كيداً [4] وسأله عن اسمه فقال اسمه محمد واسم عمه ابو طالب. واقام أولئك الركب عندنا مدة وقد آنست من بحيراء اكراماً لهم وترحاباً بهم لم أعهده به مع غيرهم . ثم ساروا الى بصرى فالشام وعادوا بعد ذلك الى مكة ثم كانوا كلما مروا بنا أقاموا عندنا كالعادة

(١) دائرة المعارف

(٢) التاريخ البصروي يبتدىء سنة ١٠٥ بعد الميلاد وهي السنة التي اتخذ الرومان بصرى عاصمة لولاية حوران ودعوها تروجانا الجديدة وهو تاريخ مشهور كانوا يؤرخون منه فيقولون ان البناء الفلاني بني سنة ٥٢٠ بصروية مثلاً ويريدون انه بني سنة ٥٢٠ بعد صيرورة بصرى عاصمة

(٣) ابن هشام

(٤) السيرة الحلبية

فقال حماد وهل صحت نبؤة بحيراء

قال نعم لان ذلك الغلام القرشي أصبح نبياً كبيراً تسمى ديانته الاسلام وقد انتشرت سطوته في كل جزيرة العرب ويسمى أتباعه المسلمين . ويحدثنا التجار القادمون من الحجاز عن أعماله وحروبه وانتصاراته ما يفوق طور التصديق . فسكان جزيرة العرب بعد ان كانوا قبائل مشتتة يغزو بعضها بعضاً اتحدت كلها قلباً وقالباً تحت لوائه ولا يبعد أن يحمل بهم على الشام والعراق

فقال حماد أظنني سمعت شيئاً عن هذا النبي يوم كنت في العراق فما رأيك اذا حمل على الشام والعراق

فبهت الشيخ وفكر برهة ثم اغرورقت عيناه بالدموع وقال آه يا ولدي لا أظنه الا يستولى عليهما جميعاً لما نعلمه من اختلال الاحوال لان قيصر الروم لم يكد يتم حروبه مع الفرس وهذه قلاعنا وحصوننا لا تزال متهدمة وحكامنا في شاغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التي هي أصل الشقاء ألا ترى بطاركتنا في جدال دائم على أمور ما أنزل الله بها من سلطان فبطريرك الاسكندرية يقاوم بطريرك القسطنطينية ويخالفهما بطريرك انطاكية . وقد كانت ديانتنا واحدة لان السيد المسيح واحد علم تعليماً واحداً فابت مطامع بني الانسان الا الانقسام فتعددت الفرق المسيحية وأشهرها ثلاث الآن وهي (١) الملكية القابلون مركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع بين نسطوريوس وكيرلس وهم الروم (٢) اليعقوبية القائلون بمقالة كيرلس الاسكندراني ويعقوب البردعاني وساويرس صاحب كرسي انطاكية (٣) النسطورية القائلون بقول نسطوريوس[1] وترى الشعوب منقسمة أيضاً مثل هذا الانقسام حتى تمكن العداء بينها حمانا الله من عواقب الغرور ناهيك باليهود وهم ألد اعداء الدولة وقد يبذلون أموالهم وارواحهم في سبيل خرابها[2]

وما أتم الراهب كلامه حتى انهكه التعب لما أثر فيه من حال الروم وماخانه عليهم من سطوة العرب فتململ وتنفس الصعداء وتزحزح من مكانه كأنه يطلب الاتكاء فنهض حماد وقد علم أموراً لم يكن عالماً بها قبلا ومال ميلاً كثيراً الى

(١) الكندي (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤

معرفة التفصيل ولكنه خاف التثقيل على الشيخ بعد ما آنس من تعبه ومله وشغل عن ذلك باستبطاء هند عن المجيء فودع الراهب وقبل يده وطلب رضاه وخرج فاذا بالشمس قد مالت عن خط الهاجرة فجلس على حجر منحوت قائم تحت شجرة كبيرة قد لعب النسيم في أوراقها وتطايرت الطيور بين أغصانها فالقى ظهره على جذعها وأخذ يفكر بما سمعه من ذلك الراهب فغلب عليه الملل وهو لم ينم بالامس الا قليلاً فغمضت عيناه لحظة رأى فيها حلماً من قبيل ماسمعه من الراهب فخيل له انه سار الى المدينة بالحجاز وشاهد المسلمين عاكفين على صلواتهم وان نبيهم قال له « انت لست حماداً وستلاقي عذاباً ولكنك تجد بعد العسر يسراً

ثم افاق من صوت صهيل الخيل فالتفت فاذا بفارسين بلباس اميرات البلقاء وراءهما خادمان وقد وقف الفارسان تحت شجرة بالقرب منه فنهض للحال فرآهما تتلثمان ولكنه عرف من الفرسين انهما هند واحدى خادماتها فتشاغل ببعض الشؤون لئلا ينتبه أحد الى حاله ولبث ينتظر اشارتها وقلبه يخفق فمشت نحو الصومعة وهو واقف لا يبدي حراكاً حتى صعدت اليها ودخلت الباب فانتظر هنيهة فلم تعد . فمشي نحو الصومعة يتردد بين الصعود والبقاء فاذا باحدى الملثمتين قد عادت نحوه فعرف من مشيتها أنها ليست هند . فلما دنت منه قالت له أتعرف تاجراً يبيع الحلي كان واقفاً هناك فادرك ان هنداً تسأل عنه باسم أحد باعة الحلي لتخفي أمره عن الخادمة فاجاب على الفور انا هو ذلك التاجر فما غرضك

فقالت ان سيدتي تفتش عنك
قال وهل تريد ابتياع شيء الآن
قالت نعم فاين بضاعتك

قال هي في مخزني على مقربة من هذا المكان ولكن الحلي التي أبيعها غالية الثمن لا يستطيع اقتناءها الا الاغنياء فاذا كانت سيدتك من أهل اليسار أتيتها بما تريد

فتبسمت المرأة تبسم الاستخفاف وقالت نعم أنها أقدر نساء حوران والبلقاء على ذلك

فقال أين هي

قالت في الصومعة فتفضل

فصعد وركبتاه ترتجفان حتى دخل الصومعة فرأى هنداً جالسة على مقعد من الحجر فألقى التحية وتجاهل قائلاً أين التي تريد الحلي

فقالت هند هي أنا فأين حلاك

قال هي في المخزن على مقربة من هذا المكان هل أذهب لاستجلابها

قالت لا ندري ما نحتاج اليه منها فربما أتيت بما لا حاجة لنا به وتركت ما كانت اليه حاجتنا

فقال قولي ما هي أنواع الحلي التي تحتاجين اليها فآتيك بأحسن ضروبها وأعود حالاً ولا سبيل لنا غير ذلك

قالت حسناً تفعل فنحن نحتاج الى اقراط من اللؤلؤ وأساور من الذهب المرصع فأتِ بما تصل اليه من أحسن أنواعها

الفصل التاسع

التقاء الحبيبين

فقال سمعاً وطاعة وعاد فركب فرسه وسار بأسرع من لمح البصر حتى دخل بصرى وهرول الى سوق الصاغة وكان لا يخلو جيبه من بدرة لما قد يحتاج اليه في غربته فابتاع بضعة أساور وبضعة أقراط من أجمل الازياء الشائعة اذ ذاك وعاد حالاً . فلما دخل الصومعة لاقاه بعض الخدم وقال له أأنت بائع الحلي قال نعم قال أن مولاتنا تنتظرك في بعض غرف دير بصرى [1] فعاد الى الدير فلاقته ودخلت به على سيدتها وهي في الغرفة على انفراد وكانت قبل

(١) دير بصرى اسم من اسماء دير بحيراء ويقال له أيضاً دير نجران ودير الباعقي (المعجم)

مجيئه مضطربة استعداداً لساعة اللقاء فلا تسل عن خفقان قلبها واصطكاك ركبتاها ولكنها تجلدت لئلا تلاحظ خادمتها منها شيئاً يكشف حقيقة أمرها فلما دخل استقبلته استقبالها رجلاً غريباً فأمرت له بوسادة جلس عليها وجلست هي على وسادة أخرى

فجعل حماد الاساور والاقراط بين يديها فقلبت بعضها وتظاهرت انها أعجبت بأحدها . فقالت ما رأيك بهذه الاساور. قال هي من صنع القسطنطينية وصناعتها دقيقة يفضلها العارفون على هذا النوع فانه صنع خراسان

قالت له بأي ثمن تبيعها قال انها غالية الثمن يا مولاتي فهي تساوي خمسماية دينار (ولم تكن تساوي حقيقة الا عشرة دنانير)

قالت لا بأس من غلائها ولكنني لا أستطيع ابتياعها ما لم أرها لوالدتي

فقال حماد حسناً تفعلين وأين هي والدتك

قالت في منزلنا على بضع غلوات من هذا المكان ولكنك لا تعرف من نحن فلا تأمن أن تسير بها جميعاً فسأرسلها مع هذه المرأة وأبقى أنا هنا ريثما تعود فاذا استحسنتها والدتي أرسلت الثمن معها فاشتريتها ودفعت الثمن والا فاني أعيدها اليك كما هي

فقال ولكني لا أستطيع البقاء هنا طويلاً

قالت لا تخف فان هذه المرأة ستسير على جواد سريع الجري واذا ابطأت عوضنا عليك الخسارة كن مطمئناً

فقال أرجو اذن أن تحتفظ بالاساور لئلا يقع شيء من أحجارها أثناء التقليب

قالت لا تخف اني أحرص منك عليها ولولا ذلك لأرسلتها مع سواها من الخدمة وهي أيضاً متى عادت نالت حظها من بضاعتك . قال حسناً

فتناولت الاساور ولفتها في منديل وناولتها الى الخادمة وقالت لها اركبي الفرس وخذي معك الخادمين واسرعي الى والدتي واعرضي هذه الاساور عليها واخبريها عن الثمن كما سمعت وعودي بالجواب حالاً

قالت سمعاً وطاعة وركبت وسارت وقد أملت أن تحظى من مولاتها بهدية من تلك الحلي

أما هند وحماد فبقيا في الغرفة على انفراد فقضيا برهة صامتين مطرقين والهوى يتكلم ثم خاطبته هي قائلة

لقد أحسنت فهم مرادي يا حماد

فنظر اليها وتنهد وقال كيف لا أفهم مرادك وأنت اذا نطقت انما تنطقين بلساني أو فكرت انما تفكرين بجناني . فأطرقت حياء برهة تفتش بين الحلي الملقاة أمامها كأنها تريد التكلم ويمنعها الحياء . ولبث هو ينظر الى وجهها وقد هام بحسنها وانبهر لما يتجلى في محياها من نضارة الشباب وما ينبعث من عينيها من أشعة الذكاء وما زال صامتاً يرجو أن تفوه بكلمة تجر الحديث ليشكو ما في فؤاده

فقالت أظنك تستخف بي وتحسب جسارتي هذه وقاحة

فتنهد وقال حاشا لي أن أبخس فتاة غسان حقها أو أن أجحد النعمة التي أولتني اياها بهذا الاجتماع وكيف أحظى بمشاهدة بنت ملك غسان ولا أعد نفسي أسعد خلق الله

قالت ان هذه الملكة أصبحت أسيرة بكماء لا تعرف ما تقول فعل أنت لعلك تعبر عن بعض ما بي

قال اذا سمحت مولاتي اقول اني اسيرها وعبدها ولا احسب تنزلها الا منة وكرماً

قالت اتعلم ياحماد لماذا اجتمعنا في هذا البيت وهو من بيوت الله

قال لا ادري ياسيدتي فلعلك امرت باجتماعنا لتوبيخي على جسارتي لاني تطاولت على مقام الملوك

قالت كلا فانك لم تفهم مرادي ولا انت تتكلم بلساني ولا تفكر بجناني

قال ماذا اذن

قالت وقد توردت وجنتاها جئت لاهنئك بتلك الدرع التي دلت على سبقك فانت السابق وفي الاشارة غنى

قال اما تلك الدرع فانها اثمن ما نلت وسأتخذها من حسنات هذا الفخر حصني من نوائب الزمان وتعويذة اتقي بها حبائل الشيطان . ولكن أنى لي

ان اكون السابق وانا رجل غريب لا تعرفون من امري شيئاً والمقام مقام ملوك

فنظرت اليه بطرف عينها وقد ذبل جفناها وابرقت حدقتاها وقالت ولكن لكل مجتهد نصيب وما الملك يا حماد الا من ملك القلوب وتسلط على الشعائر لا من جمع الاموال وحاز حطام الدنيا الفانية . وما السابق الفائز الا من حاز جائزة السباق ولبس الدرع على مشهد من الناس

فالتفت اليها وقد تحقق رسوخها في حبه وقال ذلك سخاء عهدناه ببني غسان فهل تتعطفين على عبدك بكلمة تشفي غليله وتبرد لظاه

فتنهدت وقد اشتد بها الهيام وقالت ماذا اقول وكل جارحة من جوارحي تنطق بما في هذا القلب (واشارت الى قلبها) ولكنني ما لي ارى حماداً يبخل علينا بكلمة

قال بماذا يبخل حماد ولم يبق له ما يجود به ولا يرى حاجة الى القول وليس جارحة من جوارحه الا وقد كتب عليها انه اسير هواك

فنظرت اليه وقد اخذ الحياء منها مأخذاً عظيماً وقالت اعذرني يا حماد على ضعفي فجنس النساء مهما بلغت قوته انه ضعيف فاشفق وقل كلمة

فمد يده الى يدها فاذا هي باردة كالثلج وخيل له انها ذائبة بين انامله وما لمسها حتى شعر بقشعريرة اشبه بمجرى كهربائي سرى في سائر اعضائه ولا ريب انها شعرت هي بمثل ذلك ايضاً فجعل يدها بين يديه وقال اقول كلمة وارجو ان لا تكون ثقيلة عليك

فاطرقت ثم قالت قل لقد نفد صبري واخشى ان يخوننا الوقت

قال اعلمي اني اسير حبك ولا ابغي من هذا العالم الا رضاك فماذا تقولين

قالت انك تعبر عن عواطفي

فادرك حماد انها تحبه وتميل اليه ولكنه ما زال خائفاً من ان يسبقه ثعلبة اليها مع انها غير مخطوبة له ولا هي تحبه ولكنه خاف ان تحلو في عينه حسداً فيطلبها ويتراضى والدها جبلة والحارث ويتغلبا على رأيها فاراد اختبارها من هذا القبيل فقال وما شأن ابن الحارث

قالت لا شأن له فهو حارث غير حاصد

فقال وما شأن من لم يحرث أو يغرس

قالت ان الغرس غرس الله واذا لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون

فضغط على انامله وهمَّ بتقبيل يدها فمنعه الحياء فاعادها وهو يرنو اليها

وقال ولكن كيف ترضين بمن لا تعرفين نسبه فلا نأمن ان يطالبنا ابن الحارث غداً بحقوق القرابة

قالت ان من القلب الى القلب دليل ولا نعرف لنا قرابة توجب مطالبة ولا نحن نرضى بالتقرب منه بعد ما عرفناه من خساسته

فقال وما الذي دلك على خساسته

قالت لقد دلتني تلك القصبة فانها جماد ناطق

فعجب لاشارتها الى القصبة وظهر له انها عالمة بامر ثعلبة بالامس فاراد تحقق ظنه فقال وماذا قالت لك القصبة

قالت لقد نطقت نطقاً صريحاً ان ابن الحارث جبان دنيء

فقال وقد ملَّ الالغاز فما قولك بمن لا تعرفين حسبه ولا نسبه

قالت فمن كان قلبه دليله لا يخشى العطب فهاد لا يمكن أن يكون من السوقة لان أخلاقه جديرة بالملوك فاذا لم يكن ملكاً فهو أمير جليل

قال ولعله من قوم بينهم وبين والدك عداوة

فجذبت يدها من بين يديه بلطف وتنفست الصعداء ولسان حالها يقول :

أحبك ما لو كان بين عشائر وقد كانوا أعداء لجرّ التصافيا

فلم يبق عنده ريب بصدق حبها له فاعتدل في مجلسه وقال لها ان أميرك يا حبيبتي ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوقة بل هو أمير ابن أمير ولكنه دون مقام جبلة بن الايهم ملك غسان

فاطمأن بالها بانه ليس من السوقة فارادت ان تعرف من أي القبائل هو وكانت قد لحظت من لهجته انه من أمراء العراق فقالت أظنك من أمراء العراق

قال نعم يا سيدتي فهل غير ذلك شيئاً من شعورك

قالت كلا بل أنت فوق ما تمنيت فانكم بنو لخم أصحاب نسب وحسب ومنكم

بنو ماء السماء (١)

فالتفت اليها وقال اما وقد تنازلت الى حبي فاني طوع اشارتك فهل ترين لهذا الاسير حظاً من قربك

قالت لقد ابنت لك مرادي وكشفت لك شعائري وانت على ما رأيته فيك من الحزم والدراية فلا تعدم وسيلة في استرضاء والدي

فعظم عليه الامر لعلمه ان استرضاء والدها من أصعب الامور عليه وهو يعلم منزلته منها فضلاً عن الضغائن بين لخم وغسان فبهت برهة ولم يتكلم

فابتدرته قائلة ما بالك تتردد فهل خفت الطريق

قال لا أخاف شيئاً في سبيل قربك ولكنني أرى الطريق وعراً لما أسسه أجدادنا من الضغائن بين لخم وغسان . فتبسمت وقالت لا تخف يا حماد ان ما يصعب عليك يهون عليَّ فكن مطمئناً اني معك وهذا يكفي

قال قد رضيت بذلك فان رضاكِ من رضى المولى وها اني قد كرست حياتي على خدمتك

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب واظلمت الدنيا ولم تعد تتعارف الوجوه فهما بالخروج من الغرفة وفيما هما يودعان والقلبان يخفقان ويودان البقاء هناك طول العمر اذ سمعا صهيل الخيل خارج الدير ورأيا الرهبان في جلبة فوقفت هند بغتة . فقال حماد ما الذي راعك يا حبيبتي

قالت أظن ثعلبة قادماً للدير فلعله علم باجتماعنا خفاء يريد بنا سوءاً فالاولى ان نفترق لئلا نفتح باباً للكلام

وما أتمت كلامها حتى دخل عليها رجل عليه ملابس الباعة ببصرى ومدَّ يده فالقى قطعة من الحلي في جيب حماد ثم استخرجها مدعياً أنها كانت في جيبه وان حماداً سرقها فتناولها الرجل وقال هذه الاساور لي فمن اين جئت بها انها مسروقة من مخزني . فلم يجبه حماد ولكنه صفعه على وجهه فقلبه على قفاه خارج الغرفة واذا بجماعة من جند بصرى قد هموا بحماد فامسكه أحدهم بذراعه وقال له انك سارق . فنفر منه حماد وصاح به قائلاً اخسأ يا كاب العرب وصاحت

(١) ابو الفداء

بهم هند دعوه فهمس هو في أذنها « احذري ان تخبريهم من انت لئلا يفتضح أمرنا »

فتجمهروا حوله وهموا بالقبض عليه ثم سمعوا صوتاً يقول « امسكوا هذا اللص وائتوني به حياً أو ميتاً انه جاسوس ذميم » فعرف حماد صوت ثعلبة فخرج نحو الصوت والجند يفرون من أمامه ويتفرقون حوله ولم يستطع أحد القبض عليه فصاح به تقدم أنت يا جبان لنرى من هو الخائن . واستل حماد خنجره وهجم على الجموع يبحث عن ثعلبة فلم يعرفه بينهم فاعترضه أحدهم وهمّ بالقبض عليه فطعنه حماد طعنة أصابت كتفه فصاح من شدة الالم فتفرق الناس فاراد حماد الفرار خوف الفضيحة فتذكر هنداً نخاف ان يفتك بها ذلك الخائن فعاد اليها وقال لها انجي بنفسك لئلا نقع كلانا وفي وقوعك عار علينا . فقالت حاشا لي ان اتركك بين أيدي هؤلاء اللئام والله لن يظفر منك بطائل — وهمت باحدهم فاستلت حسامه وهجمت على الجند وكانوا عديدين فتفرقوا ايدي سبا . فقالت خسيء الانذال هلم اليّ وخرجا معاً والليل قد سدل نقابه فاسرعا الى فرسيهما فركباها وسارا

وكان ثعلبة قد بات تلك الليلة في صرح الغدير كما قدمنا فقضى ليلته هاجساً في امر حماد وما ناله من السبق في ذلك اليوم وكيف تظاهرت ابنة عمه بميلها اليه واستخفافها بثعلبة وكان كلما تصور هنداً تلبس حماداً الدرع والناس يرتلون وينشدون اتقدت نيران الغيرة والحسد في صدره وهاجت فيه حاسة الغدر وشعر بميل نحو هند حتى اصبح شديد الرغبة في خطبتها بعد ان كان يترفع عنها — وكل ذلك من عوامل الحسد فان الرجل قد يرى فتاة فلا يعتدّ بها ولا يظن بها نفعاً فاذا سبقه اليها احد وآنس منها ميلاً الى هذا واستخفافاً به حسنت في عينيه وخصوصاً اذا وقع بينهما تناظر أو تسابق . فكان ثعلبة يتوقع من خطبته هنداً انتقاماً من حماد وتشفياً من هند لانه اخذ منها شيئاً به في حرمانها من حبيبها شفاءً لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة . فبات ليلته تلك في قصر الغدير يفكر في ذلك فلما اصبح اخذ يتجسس لعله يعلم شيئاً من اخبار هند فسار الى المطابخ وتظاهر بالتفرج على مناظر الاطعمة وكيفية ذبح الذبائح فسمع بعض

الخدم يتحدثون بعزم هند الى دير بحيراء في ذلك اليوم

اما هند فلم تستطع الخروج قبل ذهاب ثعلبة فلما علمت انه سار مع والدها ووالدتها تنكرت وسارت كما قدمنا

أما هو فاضطر لمرافقة جبلة وامرأته الى قرب البلقاء استجلاباً لاعجابهما ثم عرج الى بصرى فلم يصلها الا عند الغروب فدبر حيلة بالقبض على حماد بتهمة اللصوصية والجاسوسية حتى اذا انتفت الواحدة ثبتت الاخرى فجاء باحدى خماري بصرى واوعز اليه ان ينتحل حيلة يتهم بها حماداً بالسرقة ليكون له بذلك ذريعة للقبض عليه فاذا قبض عليه اتهمه بالجاسوسية أو فتك به بلا تهمة . ولتمام حيلته كان ابوه الحارث قد سار الى بيت المقدس في عصاري الامس اثناء غياب ثعلبة في السباق وسبب ذهابه ان هرقل امبراطور القسطنطينية ويسميه العرب قيصر الروم وكان قد تغلب على الفرس واخرجهم من الشام وانتهى من حروبه معهم في تلك السنة وكان قد نذر انه اذا كشف الله عنه جنود الفرس سار ماشياً على قدميه من حمص الى بيت المقدس [1] فلما نصره الله بعث الى الحارث بن ابي شمر ان يوافيه الى بيت المقدس ليعد له الانزال ويرمم ما تهدم من الاسوار والحصون في اثناء الفتح . فاغتنم ثعلبة غياب والده واستخدم الجند كما شاء فجاء بشرذمة منهم الى الدير وفعل ما فعله كما قدمنا

فلما سمع صوت حماد ورأى السيف بيد هند فرّ هو ورجاله على ان يكمنوا لهم في بعض الطريق

الفصل العاشر

النجاة

أما حماد وهند فساقا جواديهما نحو صرح الغدير ولكنهما سارا في طريق غير الذي ظنا الخادمة تعود منه لئلا تلتقي بهما فينكشف أمرهما فلما خلوا في الصحراء وأمنا من العيون . قال حماد تباً لذلك الخائن والله لوددت ان تكون

(١) السيرة الحلبية جزء ٣

تلك الطعنة في صدره فتتخلص من شره

فقالت ياليتها كانت كذلك ولكن هذا الخائن سينال جزاء فعلته هذه على اني اخشى ان يكون قد كمن لنا في بعض الطريق

فقال حماد طيبي نفساً يا حبيبتي فان جنود غسان كلها بل جنود قيصر وكسرى لا تستطيع ان تمس شعرة منك ما دمت حياً مقيما الى جانبك ولقد شهدت منك اليوم شجاعة حقرتني في عيني نفسي فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة النساء . واني ساعة وقفت وذلك الحسام بيدك حسبت الجنود تفر من امامك وشعرت بقوة فوق العادة ولو اجتمعت حولي جيوش بجيشة ماحسبت لها حساباً

قالت تلك دوافع المحبة قد تذهب برشد صاحبها فيقتحم الاهوال ولايبالي بحياته ولعلي اتيت بما أؤاخذ عليه ولكنني فعلت ذلك مدفوعة بحب حماد

فقال لا تكرهوا أمراً لعله خير لكم فقد شعرت بعد هذه الواقعة ان روابط المحبة بيننا قد زادت متانة ولا أرى في السماء أو الارض ما يمكن ان يحول بيني وبينك

فاوقفت هند فرسها كأنها تريد التصريح بامر ذي بال فاوقف حماد فرسه فمدت يدها اليه فمد يده وتصافحا . وقالت أعاهدك عهداً مقدساً اني باقية على حبك الى آخر نسمة من حياتي ولو حال دون ذلك كل مصاعب بني الانسان

فنسي حماد موقفه لعظم غرامه بها وسروره بما شاهده من حبها وقال لها ان هذا العهد يا هند لينسيني كل أسباب الشقاء والله لاقتحمن أعظم الاخطار وأجوب الفيافي والقفار في سبيل حبك يشهد علينا سهيل والميزان وسائر نجوم السماء والله أكبر الشاهدين

فاطرقت هند وقد غلب عليها الحياء ولسان حالها يقول وانا اعاهدك بذلك أيضاً

فقال لها حماد أما وقد تعاهدنا على الحب فلتكن تلك الاساور عربون المحبة وقد قدمتها لك من غير قصد وهي تقدمة حقيرة بجانب مقام بنت ملك غسان فهل تقبلين بها تذكاراً

فنظرت اليه وفرسها يشاغلها بالاقدام والاحجام كانه شعر بما يتقد فوقه من لواعج الغرام وقالت ذلك يدل على أن حبنا مقدر منذ الازل وقد اراد الله أن تكون هذه الاساور عربوناً لذلك الحب فسأحتفظ بها ما بقيت ولكن اتعلم ما هو تذكاري عندك قال كيف لا اعلم وصلصة تلك الدرع لاتزال ترن في اذني فهي ستقيني غائلات الزمان باذن الله

قالت قد أحسنت فهم المراد حرسك الله ووقاك

فلما تبادلا العهد وخزا الفرسين ولم تمض برهة حتى صارا على مقربة من صرح الغدير وقد عرفاه من النيران الموقدة بالقرب منه وهي نار القرى كان يوقدها الغسانيون لاهداء المارة ممن يريدون طعاماً أو مبيتاً (١)

فوقف حماد وقال هذا قصرك فسيري اليه فاني عائد الى منزلي

فقالت أخاف عليك ذلك الخائن وأخشى ان يكون كامناً برجاله في بعض المكامن والليل بهيم فربما اراد بك سوءاً

فهز رأسه استخفافاً وقال ذريه وكل جند ابيه ولا تخافي عليّ بأساً باذن الله . فألحت عليه ان يدخل القصر بحيلة الضيافة فقال انك لتزيدينني رغبة في المسير منفرداً واني لاستحي من نفسي ان اخاف ابن الحارث ورجاله ولو كانوا ألوفاً . فلما لم تجد سبيلاً الى اقناعه ودعته فقبض على يدها وضغط عليها وجددا الوعد وعداً ظاهراً وقالت سر بحراسة المولى وكلاءه وسارت هي نحو القصر فلبث هو واقفاً حتى تحقق دخولها الحديقة فتحول نحو منزله وهو على مسافة بعيدة عنه فوخز جواده وجدّ في المسير زميلاً وقد ترك قلبه في صرح الغدير ونسي نفسه فلم يشعر الا وهو في مكان لم يعرفه . فاوقف جواده ونظر الى ماحوله فاذا هو في ارض قفرة لم يعهدها قبلاً ففكر برهة لعله يفقه اين هو فلم يستطع فنظر الى النجوم وابراجها وكان خبيراً بعلم الفلك فرأى انه اخطأ الطريق وان منزله في جهة غير التي كان سائراً فيها فشكر علم الفلك لانه كان وسيلة في اهدائه الى سواء السبيل وحول عنان جواده نحو الجهة التي ظنها تؤديه الى منزله حتى وصل الى البساتين والمغارس

(١) صناجة الطرب

وفيما هو سائر زميلاً بين الاشجار والطريق كثيرة الحصى سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه فاصاخ بسمعه واحدق بعينيه لجهة الصوت فاذا به يقترب نحوه فامسك بعنان جواده حتى مشى خبباً وهو ينظر الى جهة الصوت والظلام حالك فاذا بالفارس يدنو منه ثم سمع صوتاً يناديه حماد فعرف انه صوت أحد خدمته فاجابه (سلمان) وهو اسم ذلك الخادم قال نعم ياسيدي قف عندك فوقف حتى تقابلا فقال حماد ما الذي جاء بك الآن

قال أدر عنان جوادك واتبعني لاخبرك الخبر واسرع فتبعه وسارا اهماجاً وهما لا يتكلمان وقد اشتغل خاطر حماد لذلك حتى بعدا عن مساكن الناس وانفردا في الصحراء فامسكا عناني الفرسين فقال حماد قل ياسلمان ماسبب هذا العدو وما الذي جئت من اجله

قال جئت بامر من سيدي والدك ان تفرّ من غسام الى عمان

قال ولماذا . قال لان صاحب بصرى بعث شرذمة من رجاله فقبض على سيدي والدك واستولى على كل ما في البيت

فبغت حماد وقد علم السبب ولكنه تجاهل وقال ولماذا فعلوا ذلك

قال زعموا انه جاسوس من ملك العراق فساقوه مخفوراً الى بصرى وسمعت الرجال يسألون عنك في بادئ الرأي فلما لم يروك قبضوا على سيدي ونهبوا المنزل ولم يغادروا شيئاً فأسر اليّ والدك ان اقتفي اثرك وافر بك الى عمان تنتظره هناك شهراً فان أبطأ علينا جئنا عنه في بصرى

قال وهل اصابوه بسوء

قال كلا ياسيدي ولكنهم أوثقوه وساقوه الى بصرى ولا بد من ان يقتفوا أثرك للقبض عليك وهذا ما حمل سيدي على تحذيرك . نحن ذاهبون الى جهات عمان نقيم فيها متنكرين شهراً ثم يقضي الله ما يشاء

فانقبضت نفس حماد عند ذلك وكادت تخنقه العبرات وعلم ان الذين قبضوا على والده هم ثعلبة ورجاله فحدثته نفسه ان يثني عنان جواده الى بصرى وقد كبر عليه الفرار ولكنه أطاع والده وسار مع سلمان صامتاً يفكر في حاله مع هند وكيف ساقه الحب الى هذه العاقبة . فبعد ان سارا مدة

صامتين قال حماد أتعرف هذه الطرق يا سلمان

قال نعم ياسيدي اعرفها جيداً وقد طرقتها مراراً مع سيدي والدك منذ بضعة اعوام . وكان سلمان شاباً في الثلاثين من عمره رافق عبد الله في اكثر اسفاره حتى حنكته التجارب وعلمته الايام وكان نبيهاً فطناً يستهلك في خدمة مولاه وكان عبد الله يركن اليه في مهامه ويثق به في معظم اعماله . فلما تحقق وقوعه في الاسر عهد اليه العناية بحماد وهو يؤمل ان يتخلص من اسره فيجتمع به فامره ان يسير به الى عمان وهي مدينة قديمة واقعة على نحو ستين ميلاً من بصرى جنوباً مع انحراف نحو الغرب كانت تسمى في عصر الاسرائيليين (ربان عمون) وكانت عاصمة العمونيين الذين تضافروا هم والموابيون واخرجوا سكان شرقي البحر الميت والاردن واحتلوا مكانهم . ولهذه المدينة ذكر كثير في التوراة وقد تخربت مراراً حتى بناها بطليموس فيلاذلفوس ملك الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد وسماها فيلاذلفيا [1] ثم صارت في اوائل الميلاد اسقفية ذات اهمية كبرى يقيم بها اسقف تحت ادارة اسقف بصرى الاكبر وفيها كثير من الابنية الرومانية كالقلاع والهياكل والكنائس [2]

وما زال حماد وسلمان يسيران زميلاً حتى انتصف الليل وبعدا عن بصرى كثيراً فوقفا وقد تعبا وتعب الجوادان وطلع القمر وكان في ربعه الاخير فارسل اشعته على تلك السهول والجبال والارض خالية لا أثر للآدميين فيها ولكنها مكسوة بالغابات واكثرها من شجر الزيتون والجوز فساروا حثيثاً وحماد غارق في بحار التأمل تتقاذفه الهواجس وقلبه يخفق تارة حنواً لهند وطوراً خوفاً على والده فاذا تصور ثعلبة اتقدت نيران الانتقام في جسمه وود لو يلقاه ليقطعه ارباً ارباً ولكنه كتم ما في نفسه وعاد الى الحديث مع سلمان والجوادان يجريان على الرمل لا يسمع لحوافرهما صوت والجو هادىء وضوء القمر ضعيف . فقال حماد اخبرني ياسلمان كيف فعل هؤلاء الطغام بوالدي وبالمنزل

قال كنا في غفلة ومولاي في قلق لغيابك من الصباح وهو لا يدري الى

(١) مري (٢) معجم الآثار الدينية

اين سرت فلما غابت الشمس ولم تأت ازداد قلقه فهمَّ بالركوب للتفتيش عنك وفيما نحن في ذلك وقد اسرجت جوادي لارافقه اذ سمعنا صهيل الخيول ووقع حوافرها وتقاطر الرجال عشرات فاحاطوا بالمنزل فسألناهم عن الخبر فقالوا اين الامير حماد واغلظوا بالمقال فسألناهم عن امرهم فلم يجيبونا الا بالشتم والسباب فاجبناهم بمثل مقالهم فهموا بسلاحهم وخيلهم وقبضوا على سيدي الامير بعد ان دافع دفاعاً حسناً وكان اعزل فاوثقوه وسقطوا على المنزل فنهبوه فاغتنمت فرصة اشتغالهم في النهب ودنوت من سيدي فاوصاني ان اقتفي اثرك واحذرك من المجيء كما اخبرتك ولولا التقادير لقبضوا عليَّ ولكني بحمد الله تمكنت من الفرار وجئت اليك

فقال وهل اخذوا متاعنا واموالنا

قال انت تعلم ياسيدي ان المثمنات من الذهب والفضة مكنوزة في مكان لايعرفه احد سوانا ولكنهم اخذوا ما عثروا عليه من الاثاث

فتذكر حماد الدرع فقال وهل اخذوا الدرع التي جئت بها الامس

قال كلاّ فانها في هذا الخرج على فرسي وقد حفظها الله صدفة لوجودها في الخرج

فسر حماد لبقاء الدرع لأنها تذكار من حبيبته هند

وفيما هما في الحديث آنسا ناراً عن بعد فقال حماد وما هذه النار ألعلنا على مقربة من القرى

فوقف سلمان ونظر ما حوله وفكر قليلاً ثم قال ان النور الذي تراه هو في بلدة يسمونها بيت الجمال أو أم الجمال (١) فاذا شئت ان نتحول اليها فعلنا والا فاننا سنشرف على جدول فيه ماء نشرب منه ونسقي جوادينا ونبيت فيه بقية ليلتنا

قال دعنا من البيوت لئلا ينكشف امرنا

(١) حوران

الفصل الحادي عشر

مسبعة الزرقاء

وسارا حتى أشرفا على واد فيه ماء جار من الشرق الى الغرب وقد غطته الاشجار من الجانبين فوقفا في أعلاه ونظرا الى أسفله فهالهما منظره لسكون الطبيعة وهدو الليل وضعف الاظلال لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وقرقرة حبل القر وحفيف الشجر حفيفاً بمرور النسيم وشعرا ببرد خفيف فترجلا ونزلا الوادي يقودان الجوادين وراءهما وضوء القمر لضعفه لم يكن يريهما الطريق الا بصيصاً وكانا يسمعان لوقع حوافر الخيل دوياً يردده الصدى من جوانب الوادي حتى يخال لهما أن فرساناً آخرين قادمون اليهما ثم لا يلبثان ان ينتبها الى الصدى . على أن هيبة المكان كانت متسلطة عليهما وخصوصاً سلمان فقد كان أكثر وجلاً من حماد ليس لضعف فيه بل لعلمه أنهما على مقربة من الزرقاء وهي مسبعة مشهورة بالضراوة وفيها السباع [1] ولكنه كتم ذلك عن حماد لئلا يثير هواجسه واتخذ التدابير اللازمة للدفاع عند الحاجة . فظلا سائرين حتى اقتربا من الماء ونظرا الى موقفهما فاذا هما في واد بين جبلين والوادي تكسوه النباتات وبينها أشجار هائلة

فشد سلمان الفرسين الى شجرة على مسافة من الماء ريثما يستريحان قبل الشرب وسار مع حماد الى الماء فغسلا وشربا فنزع حماد كوفيته وعقص شعره لئلا يرف على كتفيه ووجهه ثم افترش سلمان عباءته على منبسط من الارض تحت شجرة جلسا عليها والجوادان يصهلان ويفحصان الارض في طلب الماء

ثم اتكأ حماد وجلس سلمان الى جانبه يحادثه وحماد ساكت وذهنه مشتغل بنقيق الضفادع ونعيق الغربان على تلك الاشجار وحفيف الورق

---

(١) المعجم والمشترك

والاغصان وخرير الماء ولولا شواغله بهواجسه في والده وهند وثعلبة لخاف منظر ذلك الوادي ولكنه كان لا يزال متهيجاً تتقاذفه الشواغل. فلبث صامتاً لا يتكلم. فتركه سلمان وسار الى الجوادين فحلهما وجاء بهما الى الماء ووقف بهما على منحدر بالقرب من مجلس حماد وضم العنانين وربطهما ووقف بجانبهما يتلاهى بغمد حسامه وعيناه شاخصتان الى قمم تلك الجبال كأنه يتوقع محذوراً وحماد غافل عن كل ذلك بهواجسه . فلما روي الفرسان أعادهما الى مربطهما وجاء الى مجلس سيده فجلس وأسند ظهره الى جذع الشجرة . وكان التعب قد أخذ من حماد مأخذاً عظيماً فالتف بعباءته وغلب النعاس عليه فنام . أما سلمان فلم يستطع رقاداً خوفاً من غائلة السباع وجعل يتوسل الى الله ان يمضي ذلك الليل بسلام . فمازال كذلك الى قبيل الفجر فذبلت عيناه وهو جالس ولم يكد يغمضهما حتى سمع صهيل الجوادين معاً وقرقعة اللجامين فانتبه ونظر اليهما فاذا بهما قد أجفلا فخفق قلبه واستعاذ بالله ونهض لساعته والتفت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً ثم سمع قرقعة حجارة تتدحرج من قمة الجبل المقابل لهما حتى وصل بعضها الى الماء على مقربة منه واجفل الجوادان واكثرا من الصهيل فانتبه حماد وصاح ما هذا يا سلمان

فقال انهض يا سيدي اننا في خطر فنهض حماد وأسرع سلمان اليه قائلا نحن على مقربة من الزرقاء فلعل بعض السباع جاءت ترد الماء ولا خوف علينا منها لان الماء يفصل بيننا وبينها . فهلم الى جوادينا ولنعد من حيث جئنا فهما بالجوادين وما كادا يركبان حتى رأيا أسداً منحدراً نحو الماء يتمايل تيهاً بمشيته المعهودة والاحجار تتدحرج امامه وعيناه تتلألآن كأنهما سراجان متقدان فأثنيا العنانين نحو الجبل فسمعا صوتاً كالرعد القاصف ارتجت له جوانب الوادي . فقال سلمان هذا هو زئير الاسد يا سيدي فاسرع بنا ولا تخف فان الماء حائل بيننا وبينه

فوخزا الجوادين وسارا حتى وصلا الى مرتفع والاسد يزأر حتى بعد وهما يسمعانه وراءهما لطول صوته [illegible] حتى وصلا قمة الجبل فالتفتا الى الوادي وكان النور قد لاح فشاهدا الاسد عند الماء يشرب

فقال حماد ما فعلت يا سلمان وكيف جئت بنا الى هذا المكان

قال جئته مضطراً وعهدي به بعيداً عن مسبعة الزرقاء والظاهر أن هذا الاسد قد بعد عن عرينه كثيراً فورد الماء ولا يلبث أن يعود ولا خوف علينا باذن الله . فوقفا برهة ينظران الى مجرى الغدير في أسفل الوادي فاذا بالاسد بعد أن شرب التفت يميناً وشمالا وزأر زأرة اصطكت لها مسامعهما وكان ذلك أول عهد حماد بالزئير أما سلمان فكان قد شاهد الاسد وسمع زئيره في بعض حدائق كسرى بالمدائن ورآها تتغالب وتتصارع

اما حماد فما زال يراعي الاسد في صعوده الجبل وهو يتمايل بمشيته تيهاً وقد أرسل ذنبه فوق ظهره حتى توارى عن نظرهما وكانت الشمس قد اشرقت أو كادت وأحس حماد بالجوع فضلاً عن التعب فقال ما عهدك بالطعام هنا قال خل عنك الاهتمام به فاني كافل كل أسباب الراحة فسر بنا قليلاً فاننا لا نلبث ان نصل الى دير على مقربة منا نقيم فيه يومنا ضيوفاً ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين.

قال حسناً ومشيا برهة فاشرفا على بناء فوقه قبة عليها صليب فعلما أنه دير وفيه كنيسة فنزلا هنالك فاستقبلهما الرهبان بالترحاب وأنزلوهما على الرحب والسعة فقضيا ذلك النهار في الراحة والطعام وكان طعامهما قاصراً على الوان بسيطة لكنها لذيذة وفي جملتها انواع من الجبن والقشدة واللبن واللحم المقلي مع البيض وانواع التين المجفف والزبيب والجوز والشمش المجفف فضلاً عن الخمر المعتقة فان خمور الديور مشهورة بجودتها . ولاقيا من حسن وفادة اهل الدير ما شغلهما عن هواجسهما . على أن حماد لم يهدأ له بال ولا برحت صورة هند من مخيلته كما كانت لما فارقها المرة الاخيرة ليلاً راكبة الى قصر الغدير وهو ينتظر وصولها اليه

فباتا تلك الليلة في الاحاديث المتنوعة وا كثرها مما جر اليه حديثهما عن ذلك الاسد . فعلما ان المسبعة بعيدة عن الدير ولكنها في طريقهما الى عمان ولا بد للسائر الى عمان المرور فيها الا اذا دار في طريق طويل بعيد

ولما اصبحا تزودا وصليا وسارا على بركة الله وسلمان يفضل المسير في الطريق البعيد خوفاً من السباع وحماد يأنف من خوفه ويثنيه عن عزمه

الفصل الثاني عشر

عبد الله في السجن

فلنتركهما سائرين الى عمان ولنعد الى عبد الله وما كان من امره فقد تقدم انه سار الى بصرى بتهمة الجاسوسية مخفوراً وهو يعجب للعنف الذي اتخذه الرجال في القبض عليه ونظراً لعلمه ببراءة ساحته تحقق انه لا يلبث ان يقف أمام الحارث حتى يثبت براءته فيفرج عنه فيذهب الى عمان حيث يلتقي بحماد ثم يأتيان لوفاء النذر بدير بحيراء . وهذا ما حمله على ضرب الاجل شهراً وقد فاته السبب الحقيقي للقبض عليه

اما الجند فساروا به الى بصرى وحجروا عليه في غرفة من غرف قلعتها جنوبي السور [1] فبات بقية ليلته قلق البال على حماد لئلا يأتي النزل وهو لم يلتق بسلمان فيقع في الفخ فلما مضى الليل ولم يأتوا به ترجح عنده نجاته . وفي الضحى جاءه رجلان عليهما لباس الجند الروماني وهو الخوذة من النحاس الاصفر يتدلى منها خصل من شعر من اذناب الخيل والادراع من الفولاذ تحتها أثواب حمراء لاتتجاوز الركبة . وكان هذان الجنديان يحمل كل منهما حربة صغيرة وترساً من الفولاذ وعلى صدر كل منهما شرائط من الحرير مزركشة بالذهب على شكل حرفين احدهما ا . عرف انه الحرف الاول من اسم الامبراطور هرقل والثاني لم يعرف تفسيره ولكنه الحرف الاول من اسم الفرقة التي ينتمي اليها الجنديان . ولكن هذه العلامة قلما كان يتقلدها غير الخيالة منهم [2] وكان مع الجنديين رجلان من جند ثعلبة بلباسهما العربي فساروا الى عبد الله فتقدم وصعدوا به الى طابق علوي في القلعة حتى وصلوا قاعة مفروشة باحسن الأثاث الروماني وفي صدرها شيخ روماني تام من لباسه ومقعده انه رئيس الحامية الرومانية كان جالساً في صدر القاعة على كرسي

---

(١) دمشق (٢) تاريخ الروم

مذهب يصعد اليه بدرجتين متشحاً بقميص مدرَّع بحراشف من نحاس محلاة بالذهب تحته ثوب ضيق لا يتجاوز الساقين الا قليلاً (١) وكان ضخماً كثير العضل والدهن . وشاهد بين يديه رجالاً أكثرهم في مثل لباسه وهم أهل مجلسه من الروم الا رجلاً جالساً بالقرب منه عليه لباس العرب عرف انه ثعلبة بن الحارث . فتحقق عبد الله انهم يسوقونه الى قائد جند الروم في بصرى فدخلوا به اليه فوقف متأدباً وهو موثق فخاطبه القائد وكان اسمه رومانوس (٢) بواسطة الترجمان قائلا ما اسمك

قال عبد الله

قال من أي البلاد أنت

قال من العراق

قال وما هي مهنتك

قال اني من أمراء العراق أعيش من ريع أملاكي وأتجر ببعض أصناف التجارة

قال وما الذي جاء بك الى هذه الديار

قال جئت لاني نذرت نذراً نذرته لدير بحيراء

قال وما هو نذرك

قال ان أقص شعر ولدي في العشرين من عمره

فالتفت رومانوس الى ثعلبة وتخاطبا سراً ثم نظر ثعلبة الى عبدالله واستقدمه حتى دنا منه فقال له كيف تدعي انك جئت لقص شعر ابنك وانت مقيم هنا منذ أشهر ولم تقصه

قال لاني نذرت ان لا أقصه الا في احد الشعانين القادم

فضحك استخفافاً بتلك الحجة وقال تلك حجة واهية لا ترد عنكم تهمة فانتم جواسيس من قبل ملوك الحيرة ولولا ذلك ما اقمتم في قرية بعيدة وتسترتم عنا وحاولتم اخفاء امركم فمن كان في مثل ما انتم فيه من اليسار لا يترك مدينة بصرى بمتنزهاتها وشوارعها ومسارحها وملاعبها ويقيم في قرية حقيرة مثل

(١) تاريخ المملكة الرومانية الشرقية (٢) السيرة الحلبية ج ٣

قرية غسام فاعترف بالحقيقة لئلا يزداد العقاب عليك

قال قد قلت لكم الصدق كل الصدق

فقال ليس للصدق نصيب من مقالك وزد على ذلك انكم تدعون بالانتساب الى أمراء العراق وقد امسكنا غلامك أمس بسرقة

فلم يفهم عبد الله معنى هذا القول وظنه يقوله ليستطلع شيئاً جديداً عنه فقال لعلكم اسأتم الفهم فاننا لا نعرف مثل هذه الاعمال ولدينا من نعم الله ما يكفينا مؤونة السرقة أو غيرها

فهز ثعلبة رأسه استهزاء ثم أخذ يلاعب شاربيه عجباً وقال قد تحققنا الآن جاسوسيتك وسنكتشف ذلك عياناً . ثم قام اليه وأخذ يفتش أثوابه وجيوبه بدعوى البحث عن أوراق أو أشياء اخرى تؤيد تهمته فوجد في بعضها حقاً ففتحه فاذا فيه خاتم فيه فص كبير من العقيق الاحمر فتأمله ثعلبة فرأى عليه كتابة بالحرف السطرنجيلي وهو من الاقلام التي كانت مستعملة في العراق فلما قبض ثعلبة على الخاتم ظهرت البغتة على عبد الله ولكنه تجلد

فجعل ثعلبة يقلب الخاتم بين يديه ويتأمله فلم يستطع قراءته فالتفت الى رجل من التراجمة حوله وقال له هل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم

فاخذه وقرأه وجعل ينظر الى عبد الله تارة والى الخاتم أخرى حتى ظهرت على وجه عبد الله ملامح الخوف والحضور ينتظرون ما يقوله الترجمان حتى ملّ ثعلبة الانتظار فقال له قل ماذا قرأت

قال ان على هذا الفص اسم « النعمان بن المنذر » وعليه شارة الملك .

فبهت الجميع وجعلوا يتأملون ذلك الخاتم واحداً واحداً وينظرون الى عبد الله وأخيراً خاطبه ثعلبة قائلاً كيف اتصل هذا الخاتم اليك

فاجاب وهو يحاول التجلد وقال ابتعته من بعض السوقة

فانتهره ثعلبة قائلاً أتقول بعد هذا انك لست جاسوساً ؟ أتقول انك ابتعت خاتم النعمان بن المنذر ملك العراق من بعض السوقة . متى كانت خواتم الملوك تباع في الاسواق . . ؟ قل ما الذي أوصل هذا الخاتم اليك .

فلم يجب .

فاعاد عليه السؤال ثانية وثالثة فاصر على الصمت

فتفاوض ثعلبة وورومانوس سراً ثم قال لعبد الله ان وجود هـذا الخاتم معك مما يزيد الشبهة بخيانتك الا اذا اخبرتنا كيف وصل اليك وما هي حكايته

فسكت ولم يجب . فازداد حنق ثعلبة وقال له قل . . أجب . .

فقال عبد الله قلت لك أني لا أعرف عنه غير ما قلته لك وهو انه وصل اليّ بطريق العرض في سوق الصاغة فالظاهر أن حضرة المترجم لم يحسن القراءة أو لعل ما قرأه اسم رجل يشبه الملك النعمان

فضحك ثعلبة وقال هذه دعوى فاسدة ولو كان والدي الحارث هنا الآن لاثبت نسبة هذا الخاتم الى النعمان ملك العراق لانه شاهد ختمه على كتبه مراراً . وعلى كل فانك ستبقى في السجن حتى تعترف بالحقيقة والا فانت مقتول شر قتلة

قال عبد الله افعل ما بدا لك فما انا ممن يخافون القتل لاني بريء

قال سترى عاقبة وقاحتك هذه عند ما يؤتى بابنك الغلام الفر ونريك خيانته رأي العين

ثم التفت ثعلبة الى الحراس الاربعة وكانوا لا يزالون وقوفاً على الباب وقال خذوه بعد أمر البطريق (القائد رومانوس) الى برج القلعة وابقوه مخفوراً ريثما ننظر في أمره

وكان لقلعة بصرى برج متشامخ يستحيل الفرار منه لان المسجون اذا حاول الفرار لا طريق له الا النافذة فاذا وثب منها لا يدرك الارض الا ميتاً

فصعدوا به طابقين آخرين وادخلوه البرج وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين وباب صغير فاغلقوا الباب عليه وتركوه وشأنه . فلما خلا بنفسه اخذ يتأمل في ما مرّ به في الليل الماضي وذلك الصباح ويراجع ما سمعه عن ابنه فلم يفهم معنى اتهامه باللصوصية . ولكنه شكر الله لوقوعه هو ونجاة حماد لانه ما زال متحققاً تخلصه من تلك الشراك . على ان ظهور ذلك الخاتم عرقل مساعيه ولبث برهة يفكر ثم نهض الى نافذة البرج الشرقية فاشرف منها على مدينة بصرى كلها ببناياتها

وشوارعها واسوارها وحولها احواض الماء الكبيرة واشعة الشمس تنعكس عن اسطحتها وكان الجو صافياً فنظر الى ما وراء ذلك فشاهد في عرض الافق جبلاً عليه بناء يكاد البعد يحجبه عن نظره ولكنه عرف انه قلعة سرخد (صلخد) الشهيرة وبينها وبين بصرى طريق حجري على استقامة واحدة مرصوف بالحجارة الضخمة كسائر الشوارع الرومانية الكبرى . وخيل له ان بصرى وضواحيها حديقة يانعة في وسط صحراء قاحلة لان بلاد حوران جبلية جرداء غبراء اللون [1]

وتحول من هناك الى نافذة جنوبية فاشرف على ارض اكثر خصباً من تلك يتراءى فيها عن بعد قرية ام الجمال لا يتميز شيء من ابنيتها لبعدها فتذكر حماداً ومسيره الى عمان فقال في نفسه لعله الآن يقرب هذا المكان مع سلمان. ثم هاجت به هواجسه وتذكر ما مر به منذ شبوبيته وخاف ان يقتل قبل ان يبوح لحماد بسره وقد كتمه عنه وعن سائر اهل الارض نيفاً وعشرين سنة فتراكمت عليه الهواجس حتى نسي موقفه وما هو فيه من الخطر الشديد

فقضى نهاره في مثل ذلك فجاؤوه ببعض الطعام فلم يتناول منه شيئاً وبات تلك الليلة وعاد في صباح اليوم التالي الى النافذة فحدثته نفسه ان يثب من ذلك البرج لعله ينجو فنظر الى اسفله فاذا هناك هوة عميقة لا يتمكن ان يصل الى قاعها حياً فصبر نفسه ينتظر ما يجيء به القدر

وفي اليوم الثالث افاق على اصوات النواقيس من الاديرة والكنائس فاطل من النافذة المشرفة على المدينة فرأى الناس في هرج ومرج وقد زينت الشوارع بسعف النخل واغصان الزيتون وخرج الناس زرافات ووحداناً يحملون الشموع واغصان الزيتون يؤمون الدور والكنائس [2] فيهم الرجال والنساء واولادهم بين ايديهم يحملون الازهار [illegible] وقد تزينوا باحسن ما لديهم من اللباس وانواع الزينة فعرف انه يوم الشعانين والناس يحتفلون به على جاري العادة فهاجت هواجسه فتذكر حماداً وموعده بنذره [illegible] الامس واشتد به ذلك حتى بكى ولكنه ما لبث ان عاد الى صوابه وتجلد تجلد الرجال

(١) فوجيه وميرلي (٢) المشرق

المحنكين الذين خبروا الدهر وعرفوا تقلبات الزمان فقال في نفسه ان الدهر لا يستقر على حال فلا بد لهذه الازمة من انفراج

فقضى ذلك اليوم وبضعة ايام اخرى لا يأكل الا قليلاً وقد هدأ روعه وجعل يفكر في وسيلة ينجو بها من تلك الورطة وهو في كل ذلك يحمد الله لنجاة حماد لانه لا يصبر على الاذى ولا تعود مشاق الزمان وكوارث الحدثان. ففي ذات صباح جاءه الحراس وامروه بالنزول الى المجلس فنزل وقد استعد للدفاع فلما وقف بين يدي رومانوس وثعلبة قال له هذا كيف ترى نفسك

قال ارى اني اسير بين يدي حضرة البطريق

قال لماذا لا تعترف بحقيقة امرك ونحن نعدك بالافراج

قال قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني

قال انبئنا اين هو ابنك فنعفو عنك

قال من اين لي ان اعلم ذلك وقد اخذتموني على غرة وهو خارج البيت فلا اعلم مقره . ثم ناداه رومانوس قائلاً انظر ياهذا اذا انت اصررت على الانكار لا نرى بداً من ارسالك الى مولانا الامبراطور في حمص فهو اولى بالاقتصاص منك واذا وصلت اليه لا ينجيك من بين يديه حيلة فالافضل لك ان تعترف بالحقيقة هنا وتنجو بنفسك

قال قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني فافعلوا ما بدا لكم

فامر رومانوس باعداد خفر يسير بعبد الله والخاتم الى حمص فيدفعهما الى الامبراطور هرقل . فقال عبد الله بنفسه لعل في ذلك باباً للفرج فان الامبراطور اكثر رأفة وتعقلا من هؤلاء . فاركبوه فرساً وهو موثق وحوله عشرة خفراء بينهم خمسة من جند الروم بلباسهم المتقدم ذكره وقد ركبوا الخيل بلا ركاب على جاري عادتهم

الفصل الثالث عشر

هرقل

وكان هرقل اذ ذاك في حمص جاءها بعد انتصاره على الفرس انتصاراً لم يكن يتوقعه فنذر أن يسير الى بيت المقدس ماشياً [١] فوصل عبد الله الى حمص وقد خرج هرقل منها على قدميه وفاء لنذره والحارث بن أبي شمر الغساني قد جاء حمص ليتولى تدبير ما يلزم لذلك المسير . فكان هرقل يسير مشياً والبطاركة والاساقفة بين يديه وقد لبس التاج وتوكأ على الصولجان متزملا بوشاح ارجواني مزركش [٢] وامامه الحارث ورجاله يفرشون له البسط في الطرق ليمشي عليها فسار عبد الله مخفوراً وراء الموكب من حمص الى بيت المقدس ورأى الجند يحف بالموكب وكلهم مشاة يتقدم كل فرقة منها علم في اعلاه نسر من الفضة أو صليب الاسرة صليبها من الذهب مرصع بالياقوت والالماس كانت تحيط بالموكب عن قرب . وكان الناس في اثناء الطريق يخرجون من القرى لمشاهدة الامبراطور ماشياً وحاشيته حوله يسيرون جميعهم على البسط والسجاد والناس يلقون الأزهار على الطرق وبعضهم ينثرها على الامبراطور ورجاله وآخرون يرشون الطرق والمارة بالروائح العطرية تكريماً لهم [٣] حتى وصلوا بيت المقدس وقد زينها اهلها وخرج البطارقة والاساقفة بالصلبان والمباخر يحرقون فيها البخور والند والعنبر يسيرون بالمشاعل امامهم فاستقبلوا الامبراطور على مسافة خارج المدينة وعادوا به بالتراتيل والاناشيد والصلوات والناس يزاحم بعضهم بعضاً يتسابقون لمشاهدة الامبراطور . وكانت شوارع بيت المقدس تعج عجيجاً بالمارة فضلا عن الواقفين على النوافذ والشرفات والاسطحة حتى وصل الموكب الى كنيسة القيامة والنواقيس تدق والقسس يرتلون ويسبحون . ثم اقيمت الصلاة شكراً لله على ما أولاهم من النصر على اعدائهم الفرس

(١) السيرة الحلبية (٢) الواقدي (٣) [illegible]

كل ذلك وعبد الله وحراسه يرافقون الجماهير فلاحظ عند اشرافهم على اسوار المدينة انها منهدمة وآثار منجنيق الفرس والروم لا تزال ظاهرة فيها حتى لحق معظمها بالارض وما زالوا سائرين حتى اتوا دار الحكومة فساقوا عبد الله الى السجن فلما اصبحوا ساروا الى الحارث بن ابي شمر فبلغوه الرسالة وسلموا اليه عبد الله واحكوا له حكايته ودفعوا اليه الخاتم فحفظه حتى يعرضه على هرقل . فبقي عبد الله في محبسه شهراً لم يتمكنوا في اثنائه من تقديمه الى هرقل لتزاحم الوفود من سائر الانحاء يهنئون الامبراطور بما أوتيه من النصر

فلما تمت مهمة الحارث وهمّ بالرجوع الى بصرى تذكر عبد الله فاستأذن هرقل في ان يدخل به عليه فاذن له فساقوه مخفوراً الى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة اعدت لجلوس الامبراطور ورجال دولته قد احدق بها الخفر باسلحتهم وملابسهم الرسمية وقوفاً اجلالاً للامبراطور . فدخل أولاً الحارث ثم استدعي عبد الله فدخل القاعة وقد هاله ما فيها من مظاهر الابهة والعظمة فشاهد الامبراطور جالساً في صدر القاعة على سرير من الذهب الخالص يكاد لمعانه يبهر الناظرين وعلى رأسه تاج مرصع يتلألأ كالمصابيح وعلى منكبيه وشاح من الخز سماوي اللون مزركش بالذهب وفي يده صولجان الملك وهي عصا طويلة من الذهب المرصع في اعلاها رسم النسر الروماني مرصع بالحجارة الكريمة . وكان هرقل كبير الجثة عظيم الهيئة زاد المشهد وقاراً والى يمينه بطريرك أورشليم بملابسه الرسمية وعصاه والى يساره سرجيوس بطريرك القسطنطينية والى كل من الجانبين القواد والاساقفة وسائر رجال الدولة على كراس من ذهب . وكانت ارض القاعة مكسوة بالسجاد المزركش والابسطة الثمينة

ورأى بين الاساقفة اسقفاً شاهده مرة في الحيرة وهو كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد وكان يسمع بسعة علمه ودهائه فعجب لوجوده هناك وازداد عجباً لما رآه بجانب البطريرك الاورشليمي في منزلة البطاركة ورأى بجانب البطاريرك القسطنطيني بطريركا لم يعرفه

فلما دخل عبد الله هاله الموقف ولكنه تجلد وقد علمته الايام ان ما يراه من مظاهر الابهة ليس الا اعراضاً زائلة وان الحق سلطان يعلو ولا يعلى عليه. ولم يكن من شأن الامبراطور النظر في مثل هذه الدعوى الجزئية لولا ما همه من امر الخاتم فاحب استطلاع امره بنفسه فلما مثل عبد الله بين يديه خاطبه والحارث يترجم بينهما فتناول الامبراطور الخاتم بيده وقال لعبد الله

من اين اتيت بهذا الخاتم

فاجابه عبد الله مطرقاً قد جاءني بطريق العرض يا مولاي فاشتريته بالثمن

قال لا يعقل ان مثل هذا الخاتم يباع بالاسواق أو يلقى على الطرق وهب انك وجدته على قارعة الطريق ألم يكن الاجدر بك تسليمه الى صاحبه

فقال عبد الله مولاي يعلم ان صاحب هذا الخاتم اذا صح انه النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة فهو في عداد الاموات منذ نيف وعشرين سنة

قال الامبراطور أليس من ابنائه أحد حياً تسلمه اليه

فسكت عبد الله

فقال الامبراطور ما بالك لا تجيب. أجب ولا تخف وهب انك جاسوس أو شبه جاسوس فنحن لا نخاف الجاسوسية بعد أن منحتنا العناية الصمدانية اكاليل النصر على اكاسرتكم

فقال عبد الله لقد نطق مولاي ببراءتي من الجاسوسية من تلقاء نفسه والحمد لله اذ لم يبق ثم حاجة اليها والصلح قد عقد بين جلالته وكسرى ملك الفرس بعد أن كان ما كان من ظهوره عليه

قال هرقل نعلم ذلك ولكننا شديدو الرغبة في معرفة كيفية وصول هذا الخاتم اليك وسبب اقامتك بجوار بصرى كل هذه المدة متنكراً على ما [illegible] من عاملنا هناك

فظل عبد الله مطرقاً ولم يجب

فقال الامبراطور قل يا رجل قل فان هرقل امبراطور الروم يخاطبك

فجثا عبد الله عند قدمي الامبراطور [illegible]

يا سيدي ولكنني لا أستطيع التصريح باكثر مما فهت به بين يديك

قال اذن أنت تكتم أمراً تحاذر أن تبوح به

قال أجل لقد صدق مولاي

قال اتكتم ذلك عن أمبراطور الروم ألا تخاف بطشه أو تخشى الحكم عليك بالاعدام ؟

قال لا أظن احداً لا يخاف الموت ولكنني افضله على التصريح بهذا السر وها اني بين يديك فأمر بما تشاء

فتعجب هرقل لهذا الاصرار وقال يا للعجب أتقول ذلك ولا تخاف

قال اني على يقين يا مولاي بان موتي وحياتي بين شفتيك ولكنني لا أستطيع غير ذلك

فالتفت هرقل الى من حوله من البطاركة والاساقفة والقواد وقال ما قولكم بهذه الجسارة فاني أراني ازداد ميلا لمعرفة سر هذا الخاتم . فالتفت البطريرك الاورشليمي الى عبد الله وحرضه على الاقرار عبثاً وفعل مثل ذلك أيضاً البطريرك الانطاكي وغيرهما بلا جدوى

فاراد هرقل تهديده فامر بالجلاد فجاء والسيف بيمينه فقال له إأتني برأس هذا الرجل فقاده الى باحة الكنيسة وعبد الله يسرع أمامه لا يتردد لحظة فربط عينيه واركعه على نطع ودار حوله دورة والامبراطور يراه من داخل فلما دار الدورة الثانية استقدمه هرقل وأمر بحل رباط عينيه وقال له ألا تزال مصراً على الكتمان

فقال عبد الله اقسم برأس مولانا الامبراطور وسر الثالوث المقدس أن ليس في أمر هذا الخاتم ما يمس جلالتكم بوجه من الوجوه ولكن كتمانه فرض عليَّ واجب لا استطيع التحول عنه

فازداد الامبراطور استغراباً وقال لمن حوله وكيف العمل اذاً

فقال عبد الله اذا أذن مولاي في أمر يكون فيه راحة لخاطره فعلته

قال وما هو

قال اننا معشر النصارى نحترم سر الاعتراف فاذا شئتم ان أبوح بسري هذا

لغبطة البطريرك الاورشليمي على شرط أن يشير الى جلالتكم في علاقة هذا السر بكم أو عدمها بغير أن يصرح بتفاصيل قصتي فاذا قال لكم أن لا علاقة لها بكم تحققتم صدق قولي وعذرتموني على كتمانه

قال لا بأس بذلك وأشار الى البطريرك نخلا بعبد الله في الكنيسة ساعة أطلعه فيها على سر ذلك الخاتم

ولما هما بالرجوع الى القاعة قال عبد الله أرجو من مولاي البطريرك أن يخبرني عن البطريرك الجالس بجانب البطريرك سرجيوس من هو

قال هو أثناسيوس بطريرك اليعاقبة ومقامه في الاسكندرية وقد جاء لمقابلة الامبراطور ولعله يغتنم الفرصة للمداولة معه بما هو جار من الاختلاف المذهبي بين الملكية واليعاقبة في القطر المصري

فقال وهل ذلك الاختلاف لا يزال متمكناً فقد بلغنا انه كاد يزول

فتنهد البطريرك وقال ظنناه كاد يزول ولكنه لم يزل فان مولانا الامبراطور رجل حازم ذو رأي سديد وقد علم بعاقبة هذا الانقسام فلاح له أن يختلق وسيلة للتوفيق بين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين والطبيعة والمشيئة فاستعان بالبطريرك سرجيوس القسطنطيني فاستنبط منذ بضع سنوات عقيدة متوسطة وهي الاعتراف بطبيعتين في المسيح لها مشيئة واحدة وفعل واحد وعرض عقيدته هذه على البطاركة والاساقفة فقبلها أكثرهم . وفي عزمه أن ينقل البطريرك اثناسيوس الى كرسي أنطاكية ويرسل الاسقف كيرلس الى الاسكندرية فيجعله بطريركاً ووالياً عليها ولعله يوفق بذلك بين الكرسيين الانطاكي والاسكندري ولكنني لا أظنهما يتفقان (١) فان التعصب متمكن من الجانبين وليست هذه الاختلافات في اعتقادي الا مماحكات لفظية تمسكت بها بطاركتنا التماساً للسلطة الدنيوية ولكن لتكن ارادة الله . فانا نحب للمملكة المسيحية أن تكون مذهباً واحداً تقول قولاً واحداً تأييداً للدولة الرومانية العظمى فقد كفانا ما نجم عن هذه الاختلافات من الاحن والمصائب . ناهيك عما نقاسيه من دسائس اليهود ضدنا فانهم لو استطاعوا هلاكنا جميعاً لبذلوا كل ما يملكون في سبيل

(١) تاريخ الانشقاق ج ١

ذلك فنطلب الى الله أن يلطف بعباده

فعجب عبد الله لهذه الاختلافات وأعجب برغبة هرقل في جمع كلمة رعيته وتحقق ما سمعه عن تأنيه وحزمه ولكنه لم يكن يرجو له الفوز بغيته لما يعلمه من تمكن الشحناء بين الاحزاب ثم قبل يد البطريرك وخرجا

وفيما هما عائدان نحو القاعة شاهدا الحرس في هرج وبينهم رجل غريب بلباس اهل البادية ليس عليه غير الشملة والعمامة تقلد حساماً أعقف وحمل رمحاً وحربة وقد علاه الغبار ولوحته الشمس وظهرت على وجهه آثار الاسفار. وكان عبدالله خبيراً بقبائل العرب لكثرة اختلاطه بهم فلاح له ان الرجل من اهل الحجاز فعجب لمجيئه وليس في بيت المقدس كله أحد في مثل لباسه وشكله ولولا اشتغاله بامر نفسه لخلا به وسأله عن حاله ولكنه اضطر لمرافقة البطريرك الى قاعة الامبراطور فدخلا وجلس البطريرك في مجلسه ووقف عبد الله في موقفه

فقال هرقل للبطريرك كيف رأيت الرجل قال رأيته صادقاً في لهجته وهو معذور في كتمان امره وامر هذا الخاتم وقد اطلعني على خلاصة حكايته فاذا هي مستقلة عن جلالتكم ولا علاقة لها بالروم قاطبة ولكنه سر مقدس اقسم على كتمانه فلا يستطيع التصريح به الا في حينه

الفصل الرابع عشر

دعوة الملوك الى الاسلام

فاقتنع هرقل والتفت الى عبد الله وعبد الله مطرق اجلالاً ووقاراً وقال قد اخبرنا غبطة البطريرك بعذرك في الكتمان فصفحنا عنك فكن مطمئناً آمناً وناوله الخاتم بيده ونادى الحارث فوقف بين يديه فبلغه عفوه وامره ان يدفع اليه كتاب الامان. فتقدم عبد الله وجثا أمام الامبراطور وشكر نعمته وتقهقر يريد الخروج فرافقه الحارث الى باب القاعة ثم رأى ذلك البدوي قد أذن له بالدخول

وفي يده رق من جلد يريد تقديمه الى الامبراطور فاعترضه الحارث فقال البدوي بيدي كتاب الى جلالة الامبراطور اريد تسليمه اليه فاخذ الحارث الكتاب فاذا هو مختوم بالطين (١) فقدمه الى هرقل فاغتنم عبد الله اشتغال الحارث وانزوى في بعض جهات القاعة بين الجمع ووقف ينظر الى ما يكون من امر ذلك الكتاب

فرأى هرقل قد فضه وتأمله فلم يستطع قراءته فناوله الى ترجمانه فنظر اليه ثم قال انه مكتوب باللغة العربية

فقال هرقل اتله علينا فقرأه فاذا فيه

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم والسلام على من اتبع الهدى اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين وان توليت فان اثم الاكابر عليك (٢)

(الختم) محمد
رسول
الله

فلما اتم قراءته ترجمه فبغت كل من في الجلسة لشدة لهجته فالتفت هرقل الى من حوله كأنه يستشيرهم في شأنه وهو لم يفهم المراد منه لانه لم يكن يسمع بتلك الدعوة الا همساً فقال ومن ينبئني بحكاية هذا الرجل فلم يستطع احد ايضاحاً كافياً. فنظر الى اطراف القاعة فشاهد عبد الله فاشار اليه فهرول نحوه متأدباً فقال له هل سمعت شيئاً عن صاحب هذا الكتاب وامر بالكتاب فدفع اليه فقرأه وقال نعم يامولاي ان صاحبه نبي ظهر في مكة من بلاد الحجاز من قبيلة يقال لها قريش دعا الناس الى عبادة الله وكان اكثر العرب يعبدون الاوثان فاجابه جماعة كبيرة منهم بعد ان قاسى مشقات جسيمة من اضطهاد بعض اقاربه واعمامه واهل وطنه فهاجر الى يثرب فنصره اهلها وشدوا ازره وانتشرت دعوته في اقاصي بلاد العرب ويظهر من كتابه هذا انه يدعو مولاي الامبراطور الى التصديق به

فلما سمع ارباب المجلس قوله كثر اللغط فيما بينهم واظهروا الاستخفاف فالتفت

(١) الاغاني جزء ٦ (٢) تواريخ

هرقل اليهم كأنه يستطلع رأيهم فقالوا ان في كتاب هـذا الرجل جرأة كبيرة اذ لا نرى مسوغاً أن يحتقر الامبراطور الى هذا الحد . فاشار هرقل اشارة فهم الحاضرون منها انه يلتمس سكوتهم فسكتوا والتفت الى البطريرك عن يمينه فاستخصه بالسؤال

فقال البطريرك اني ارى في هذا الكتاب جرأة لم يسبق لها مثيل لان كاتبه يبدأ في خطابه بذكر اسمه ثم يذكر اسم جلالتكم فقد قال « من محمد رسول الله الى عظيم الروم » والعادة في خطاب الامبراطور ان يكون الاستهلال باسمه ثم اسم مخاطبه (١) فارى بعد امركم ان لا تعيروا هذا الكتاب التفاتاً

فقال هرقل ولكن علينا ان نبحث عن سيرة هذا النبي وصفاته ثم نحن مخيرون في ما نفعله فهل تعرفون احد من قريش نسأله عنه

فقال الحارث اعرف اميراً من امراء مكة اسمه ابو سفيان قدم في هذه الاثناء للاتجار في غزة وهو اقدر من يخبرنا عن صفات هذا النبي

فقال هرقل الي به

فقال الحارث سمعاً وطاعة فسيكون هذا الرجل هنا بعد بضعة ايام ان شاء الله

قال الامبراطور فلنعقد مجلساً اذ ذاك يحضره هذا العراقي لانه يعرف العربية فلعله يفيدنا شيئاً

فقبل الارض بين يدي هرقل ووقف متأدباً ثم ارفضت الجلسة

الفصل الخامس عشر

ابو سفيان

خرج عبد الله في جملة من خرج وقد أسف لتأخره هناك وود الاسراع الى حماد وقد داهمه الوقت ولكنه كان قد شاهد ابا سفيان في بعض اسفاره

(١) السيرة الحلبية

الى مكة ولم يكلمه فأحب ان يراه ثانية ويسمع حديثه عن صاحب هذه الدعوة فسار تواً الى دار الضيافة بالدير فاقام على الرحب والسعة وخرج في اثناء ذلك الى المدينة فطاف احياءها وتفرج بمشاهدها فرأى فيها اخلاطاً من يهود ولغتهم جميعاً العبرانية المشوهة بالالفاظ الكلدانية وفيهم جماعة من السريان ورأى جماعة كبيرة من الروم وفي ايديهم اعظم مناصب البلاد وما منزلة الوطنيين بينهم الا منزلة الخدمة ولم يسمع في احاديث الناس الا الجدال بين القائلين بالطبيعة والقائلين بالطبيعتين فتيقن أن ذلك الخصام سيكون سبباً لسقوط هذه الدولة

فلما كان الوقت المعين للاجتماع اجتمع بالحارث وسارا معاً الى كنيسة القيامة فدخلا صحنها فشاهدا جماعة من البدو عرف عبد الله من لباسهم انهم من عرب الحجاز ففطن انهم رجال أبي سفيان فنظر فيهم فرأى رجلاً يمتاز عنهم جميعاً بحسن زيه وكبر عمامته (١) واتساع عباءته [illegible] المزركشة وقد تقلد الحسام بخلاف سائر رجاله فقد كانوا يتقلدون الرماح ومعظمهم مكشوفو الرؤوس وفيهم من قد شدّ رباطاً حول شعره من الا[illegible]

فلم يتكلم عبد الله ولكن الحارث تقدم الى ابي سفيان فوقف له هذا وقد عرفه أنه الحارث بن ابي شمر فالقى عليه التحية واخبره انه جاء انفاذاً لامر الامبراطور . فقال له تربص ريثما ندخل على مولانا ثم نبعث اليك

ثم وصل الحارث وعبد الله الى القاعة فلما [illegible] وقف الحرس عند الباب ان الامبراطور هناك ودخلا متأدبا فامر هرقل باستقدام العربي فخرج الحارث ثم عاد وحده وأخبر الامبراطور أن الرجل يأبى الدخول الا بجماعته قال هرقل فليدخل ولم تمض لحظة حتى دخل ابو سفيان ومعه بعض رجاله فبهرهم ما في القاعة من أنواع الزينة [illegible] امام الامبراطور ثم قبّل الارض بين يديه وحياه تحية [illegible] الملوك في الجاهلية (٢) فتلطف معه وامره بالجلوس فتربع على الارض وجعل سيفه معترضاً على فخذيه وجلس رجاله وراءه [illegible] الجلوس فلم يعتر عنه ثم خاطبه بواسطة ترجمان قائلا

(١) [illegible] (٢) [illegible]

من أي القبائل أنت

قال من قريش حماة الكعبة

قال وما تعني بالكعبة

قال هي حج الناس الى الآلهة

قال أتعرف رجلاً اسمه محمد ظهر فيكم يدعو الناس الى دين جديد

قال نعم أعرفه وهو من ذوي قرابتي لكنني لست على دعوته فقد جاءنا بدعوة جديدة ونحن على دين آبائنا وطالما نهيناه عن ذلك فلم ينته

قال هرقل لقد همني أمر هذا الرجل وأود ان أعرف حقيقة حاله فهل تنبئني عنه وعن دعوته وما يدعو الناس اليه

فاصلح ابو سفيان مجلسه في تربعه كأنه يعد نفسه لجلوس طويل ومشط لحيته باصابعه وأطرق طويلا يفكر في أمر ذي بال

فاستبطأه هرقل فقال له ما بالك لا تجيب وقد اقترحنا عليك أمراً يهمنا الاطلاع عليه . لعلك تجهله ؟

قال كلا يا مولاي ولكنني تذكرت بدء أمر محمد هذا وتذكرت والده ثم ما كان من دعوته وانتشارها فتجدد استغرابي له فاذا أذنت بان أقص عليك خبره فعلت

قال ذلك ما أقترحته عليك فقل

الفصل السادس عشر

سيرة صاحب الشريعة الاسلامية

فاسند ابو سفيان كوعه على ركبتيه ليستريح في جلوسه والتفت الى من حوله فاذا هو محاط بجماعة كبيرة من البطاركة والامراء والقواد فعلم انه يقص حكايته على أعظم رجال الروم والترجمان يترجم كلامه للحضور الا من كان عارفاً العربية منهم كالحارث وعبد الله فقال :

اعلم أيها الملك ابيت اللعن ان محمداً صاحب هذه الدعوة الذي توصل الى مخاطبة قيصر الروم قد ربي يتيم الابوين صفر اليدين على أنه من أصل عريق في الشرف والسؤدد من قبيلة قريش التي انا منها ويتصل نسبنا بعدنان ونسب عدنان يتصل باسماعيل بن ابراهيم فنحن من أشرف العرب نسباً وأطيبهم طينة . وكان جدنا اسماعيل قد بنى لنا بيتاً تحج اليه الناس من أقطار العالم اسمه الكعبة بناه في مكة بالحجاز وهي مسقط رأسي ومحل اقامتي ومركز تجارتي ومقام أهلي

وكانت ولاية هذا البيت تارة من قريش وطوراً من سواهم حتى اغتصبها منهم منذ قرنين أو اكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانية . اذ لا يخفى على مولاي القيصر أن العرب كافة يرجعون في أنسابهم الى ابوين هما (١) اسماعيل الذي قدمت ذكره ومنه قبيلتنا وسائر قبائل الحجاز (٢) قحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن . ولم تستطع خزاعة الاستبداد بولاية الكعبة الا لما كان من تفرق أمر قريش وضعفهم الى أن ظهر جدنا قصي فبذل الدم والمال حتى ظهر على خزاعة واسترجع ولاية البيت الى قريش وتولى هو كل أعمال الكعبة وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

فلم يستطع الترجمان فهم هذه الالفاظ واشكل عليه تفسيرها فقال هرقل افهمنا ما معنى هذه الاعمال

فقال ابو سفيان اعلم يا سيدي أن مكة لا حكومة فيها مستقلة كحكومة القيصر بل هي في مكان عبادة لان الكعبة حج يزوره الناس كما يزور النصارى ديراً من الديور ولكنها اعظم من ذلك كثيراً فمن تولى اعمالها كانت اليه حكومة مكة وولاية امرها على نسبة ما يتولى من تلك الاعمال . فمن ولي الحجابة كانت له حجابة الكعبة أي ان مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن اراد ويمنعها عمن اراد . واما السقاية فهي ان بجانب الكعبة بئراً قديمة يقال لها بئر زمزم احتفرها جدنا اسماعيل [١] فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر في عهدته يسقي الحجاج منها . أما الرفادة فهي خرج أو مال تدفعه قريش الى من يتولى الرفادة فيصنع منه

(١) ابن خلدون

طعاماً للحجاج الذين يزورون الكعبة من أقطار الارض لأنهم ضيوف عليه .
وأما اللواء فاو العلم الذي يعقدونه للحرب وصاحب اللواء يعقد الالوية للجند الذاهبين للقتال وهو بمنزلة قائد الجند عندكم . أما الندوة فهي مجلس القضاء ولها بيت في الكعبة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة وصاحب هذه الدار هو صاحب الشور والرأي [١] واليه يرجع الامر . ففي هذه الامور الخمسة تجتمع السلطة المطلقة لمن يتولاها للدين والدنيا فيكون القضاء والجند والكعبة والمال في قبضته - فقد حاز جدنا قصي شرف مكة كله[٢] وقطع مكة ارباعاً بين قومه وبه اجتمعت كلمة قبيلتنا وعادت اليها سطوتها وعلا نجم سعدها فتيمنت بامره حتى صارت لا تزوج امرأة لرجل من قريش الا في داره ولا يتشاورون في امر نزل بهم أو يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم الا في داره يعقدها لهم بعض ولده ولا تدرع جارية اذا بلغت ان تدرع الا في داره يشق عليها فيها درعها. وجملة القول كان امره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره [٣]

وكان لقصي هذا أربعة اولاد وهم عبدالدار وعبدمناف جدُّنا وعبدالعزى وعبد . فلما شاخ قصي كان عبد مناف قد شرف في زمان ابيه وعظم امره وكذلك عبد العزى وعبد . [٤] فاراد قصي ان يشرف عبد الدار وكان بكره فدعاه اليه وأوصى له بمناصب الكعبة الخمسة المتقدم ذكرها فصار شرف مكة كله الى عبد الدار وبنيه من بعده

فخلف عبد الدار اولاداً وخلف عبد مناف اولاداً آخرين وهم عبد شمس وهاشم وعبد المطلب ونوفل وكانوا رجالا اشداء وعبد شمس هو جدي فغبط بنو عبد مناف بني عمهم عبد الدار على ما في ايديهم من امر الكعبة ونازعوهم عليه حتى كاد يفضي أمرهم الى الحرب ثم تداعوا الى الصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم فاعطيت السقاية والرفادة الى بني عبد مناف واعطيت الحجابة واللواء والندوة الى بني عبد الدار وتمَّ الصلح على ذلك وانحسم الخلاف . ولا

---

(١) ابن الاثير (٢) ابن الاثير (٣) ابن هشام والسيرة الحلبية
(٤) السيرة الحلبية

تظنوا اني اطلت الكلام على غير طائل او اني دخلت فيما لم أسأل عنه فان لما قلته علاقة كبرى فيما سألتموني عنه

فتولى السقاية والرفادة اولاً عبد شمس ولكنه كان كثير الاسفار لا يقيم في مكة الا قليلاً فعهد بهما الى أخيه هاشم وهاشم هو جد محمد الذي تسألوني عنه أي أبو جده . ثم مات هاشم فوليهما أخوه المطلب وكان سمحاً سمته قريش الفيض لسماحته (١)

وولد لهاشم ولدٌ سماه شيبة ثم سمي عبد المطلب لحكاية طويلة لا محل لها هنا وهو جد محمد ابو ابيه . فلما مات المطلب تولى الرفادة والسقاية ابن اخيه هذا أي عبد المطلب . وولد لعبد المطلب عشرة أولاد ذكور منهم عبدالله والد محمد

وكان عبد المطلب قد أراد حفر بئر زمزم فمنعه اقاربه من ذلك فلاقى اموراً صعاباً ولكنه فاز اخيراً بحفرها فنذر أنه اذا ولد له عشرة أولاد ثم بلغوا منه حتى يمنعوه من مثل ذلك لينحرنّ أحدهم عند الكعبة . فلما بلغوا ومنعوه جاء الكعبة ليفي نذره ولم يكن يدري من ينحر من أولاده فاستخار هبل الصنم الاكبر القائم في الكعبة (٢) بواسطة القداح

فاشكل امر هذه القداح على الترجمان ولم يستطع تفسيرها فاستفسره عنها

فقال ابو سفيان ان لنا في الكعبة أصناماً كثيرة اتخذناها وسيلة بيننا وبين من نعبد واعظمها صنم اسمه هبل عنده سبعة قداح (اي أسهم بلا ريش) كل قدح عليه كتابة بمعنى . قدح قد كتب عليه (العقل) وقدح عليه (نعم) وقدح عليه (لا) فاذا ارادوا أمراً ضربوا به في القداح فاذا خرج (نعم) فعلوا ما جاؤا من أجله أو (لا) لم يفعلوه وقدح فيه (منكم) وقدح فيه (ملصق) وقدح فيه (من غيركم) وقدح فيه (المياه) اذا ارادوا ان يحفروا للماء ضربوا القداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به (٣)

فجاء عبد المطلب الى هبل وقال لصاحب القداح اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره . فاصطنع لاولاده عشرة قداح وأعطى كل رجل

(١) ابن اسحق (٢) ابن هشام (٣) ابن هشام ج ١

يذبح هو فهمَّ عبـد المطلب بذبحه فمنعته قريش من ذلك وقالوا لا بل يجب ان نعذر فيـه فانطلق الى عرافة في المدينة (يثرب) فوجدوها بخيبر فجاؤوها فسألوها عذراً فسألتهم كم دية الرجل عندكم قالوا عشرة من الابل قالت فخذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليها بالقداح فان خرجت عليه فزيدوا من الابل عشرة فعشرة حتى يرضى اليكم وتخرج القـداح عليها فتنحروها (١) فخرجوا وضربوا بالقـداح فما زالت تخرج على عبد الله حتى بلغ عدد الابل مائة فخرجت عليها فذبحوها ونجا عبد الله وبقي حياً وتزوج فولد له محمد

ولم أطل عليكم الـكلام الا لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الـكعبة وأصنامها فانها ضالتنا وغايتنا نستشيرها ونستخيرها واليها تحج الناس من سائر اقطار الارض ولنا بها منفعة من حيث الاتجار لما يأتينا بواسطتها من أصناف الناس عربها وعجمها . وقد ذكرت لـكم كم سفكنا من الدماء في سبيل استبقائها فهي مصدر نعمتنا ومنبع اقواتنا ومرجع آمالنا . وقد مضى عليها القرون الطوال قائمة والناس يكرمونها ويعظمونها ويذبحون عند أصنامها الذبائح ويقدمون اليها بالهدايا الى اليوم . فهذه كلها قام صاحب هذا الـكتاب (وأشار الى الرق الذي امام هرقل) يدعو الناس الى ازالتها وهدم ما بناه اجداده فيها

ولما بلغ ابو سفيان من كلامه الى هذا الحد ظهرت على وجه هرقل مظاهر الاستغراب وخاطب البطريرك الى يمينه باليونانية قائلاً أرى هذا الرجل يشكو ممن يريد ردّ قومه عن عبادة الاصنام فاذا كانت هذه هي غاية هذا النبي فنعمت الغاية . فتداول الحضور هذا الحديث برهة على نحو ما قال الامبراطور وازداد شوقهم لمعرفة بقية الحـكاية وكيف استطاع القيام بهذا المشروع على خطارته مع ما ذكره ابو سفيان من يتمه وضعفه . فالتفت هرقل الى ابي سفيان وقال له قد افصحت فيما قلت فهل لك ان تحكي لنا حكاية هذا النبي وكيف توصل الى ان يدعوكم الى ذلك

(١) السيرة الحلبية

فقال ابو سفيان قد رأيت ايت اللعن كيف نجا عبد الله بن عبد المطلب من الموت وكان ابوه يحبه فازوجه امرأة من قريش اسمها آمنه ولم يمكث عبد الله مع امرأته الا برهة يسيرة ثم قضت عليه الاحوال بالسفر الى غزة التي انا آت منها الآن ولكنه مرض في سفرته هذه فعادوا به الى مكة فمات قبل ان يدركها وهو بجوار يثرب فدفن هناك وامرأته لم تره

وكانت آمنة حين مات عبد الله حاملاً[1] ولم يترك لها الا اربعة من الابل وقطيعاً من الماشية وجارية اسمها بركة . وكانت آمنة تقيم في بيت بضواحي مكة عند جبل شرقي مكة اسمه جبل ابي قبيس . وهناك ولدت ابنها هذا في عام الفيل الذي جاء به ابرهة الاشرم من قبل الحبشة لفتح مكة سنة (٥٧٠م) فلما ولدته كان جده عبد المطلب في الكعبة فحملوه اليه فباركه وسماه محمداً . ومن عاداتنا ايها الملك ان نرضع اولادنا من المراضع ويندر أن يعيش لنا ولد على لبن امه ونختار المراضع من أهل البادية لصحة اجسامهن فاختارت له امه مرضعاً من أهل الطائف اسمها حليمة فارضعته حولين قضاهما في سهول الطائف وأوديته فنشأ نشيطاً وسمعت الناس يتحدثون عن طفولته اخباراً غريبة لم نسمع بمثلها من ذي قبل منها ان مرضعته تركته يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت فاذا بولدها قد جاء يقول ان اخي القرشي أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فشقا بطنه . فخرجت هي تلتمسه فوجدته منفرداً فسألته عن امره فقال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو وغسلاه بالثلج[2] فخافت حليمة على الغلام فحملته الى امه بمكة فقضى فيها مدة يرعى الغنم ويطوف الاحياء مع الاولاد[3] وكان كل من رآه اعجب بذكائه وجماله ونور محياه ولكنه لم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت والدته في الابواء بين مكة والمدينة فدفنت هناك فاصبح الغلام يتيم الابوين فاحتاطه جده عبد المطلب واحبه اكثر من حبه اولاده فكان الناس يكرمونه من أجل جده وكان على صغر سنه يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ ويحادثهم بما

---

(١) ابن هشام (٢) ابن الاثير وابن خلدون (٣) ابن هشام

يجتذب به قلوبهم وعواطفهم وبعد سنتين توفي عبد المطلب فولي السقاية ابنه العباس. أما الرفادة فانيطت ببني نوفل من ولد عبد شمس جدنا فاصبح محمد يتيماً غريباً فكفله ابو طالب احد اعمامه. وكان ابو طالب اقل من العباس مالاً ولكنه كان وجيهاً مقدماً في قريش فاحتضن الغلام وتولى تربيته والسبب في احتضانه اياه دون سائر اعمامه ان ابا طالب وعبد الله والد محمد كانا اخوين من ام واحدة (١)

وأعترف لك أيها الملك العظيم ان كفالة ابي طالب هذه كانت سبباً عظيماً في نجاح دعوة محمد وبقائه حياً لان ابا طالب كان وجيهاً في قريش محترماً مكرماً فاقام محمد في بيته كأحد اولاده . وكان ابو طالب اذا خرج الى تجارة أو سفر اصطحب محمداً فينزل الديور ويجالس الرهبان والعلماء. واشهر حادثة سمعناها عنه نزوله في دير بحيراء قرب بصرى . فقد اخبرنا بعض الذين رافقوه في رحلته تلك ان الراهب بحيراء انبأه بامور كثيرة من مستقبل حياته وأوصى عمه ابا طالب أن يعتني به ويخاف عليه اليهود . وكان محمد اذا عاد من سفر قضى معظم ساعات نهاره في الكعبة يحادث الناس ويجادلهم ويطارحهم ويعجبون لذكائه وقوة برهانه فقد كان على صغر سنه ذكي الفؤاد فصيحاً واسع الاطلاع بما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس في اسفاره مع انه كان امياً لايعرف القراءه وهو لا يزال كذلك الى الآن وكان مع ذلك مخلصاً حسن الطوية حتى لقبوه بالامين فاذا جاء أو ذهب قالوا جاء الامين أو ذهب الامين

وأهل مكة ايها الملك اهل تجارة يحملون الاموال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق الى مكة وغيرها وهم مشهورون بالتجارة كثيراً حتى ان نساءهم كن يتعاطينها . وكان في مكة امرأة مشهورة بالغنى اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قصي الذي قدمت ذكره وكانت لشرفها وغناها تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . فسمعت بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط (٢) فعرضت عليه أن يخرج في مال لها الى الشام تاجراً وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره

---

(١) السيرة الحلبية (٢) السيرة الحلبية

فسار في تجارتها مع غلام لها اسمه ميسرة وعاد وقد اكسبها مالاً طائلاً فاحبته وعرضت عليه ان يتزوجها ففعل وولدت له أولاداً وهم القاسم ويكنى به (فيقال ابو القاسم) والطاهر والطيب وزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة. اما القاسم والطاهر فماتا قبل أن ظهر بدعوته

واتفق اذ بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من امره غير ما عرفناه من حسن خصاله ومهارته واستقامته ان قريشاً اجتمعت لبناء الكعبة وكنت في جملتهم وسبب اهتمامنا بذلك ان نفراً سرقوا كنزاً للكعبة كان في بئر في جوفها ووجدنا تلك السرقة عند رجل من خزاعة فقطعنا يده وعمدنا الى بناء الكعبة وتسقيفها وكان البحر قد رمى بسفينة عند جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فاخذنا خشبها واعددناه لتسقيفها . وكان بمكة رجل قبطي يحسن صناعة النجارة فاغتنمنا هذه الفرصة لبنائها فاقتسمنا العمل لكيلا يحوز أحدنا من الشرف في ذلك اكثر مما يحوزه الآخر فجئنا بالحجارة والاخشاب حتى تم البناء ولم يبق الا الركن فاختصم الناس في من يرفعه منهم وقامت كل قبيلة تدعي الاحقية في رفعه حتى تعاظم الخصام وهموا بالقتال . فاتفق رأي عقلائنا اخيراً ان يحكموا فيما بينهم اول داخل من باب المسجد في ذلك اليوم فكان اول داخل محمداً فقالوا هذا هو الامين قد رضينا به وبحكمه فاخبروه الخبر فرأى رأياً حسناً لم يخطر على قلب أحد منا . وذلك انه أتى بثوب واسع جعل ذلك الركن فيه وقال لتأخذ كل قبيلة بناحية منه فرفعناه جميعاً حتى بلغنا به موضعه فوضعه هو بيده وانحسم الخلاف [1] وقد حدث هذا بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة وحدث حرب الفجار بعد عام الفيل بعشرين سنة [2] وكان لعمله هذا أثر حسن جداً في اذهاننا فخرج الناس من الكعبة وهم يتحدثون بفطنته وتعقله وكنت في جملة المعجبين به ولا ازال اعترف بفضله لولا ما اراد من تحقير آلهتنا وتعييب اصنامنا كما سأقصه عليك

وما زلنا نحن نتحدث بحسناته ونعجب باخلاقه حتى بلغ الاربعين من عمره فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في الشعب والجبال وتردده الى الكهوف

(١) ابن هشام (٢) الطبري

ويقول ان الملاك جبرائيل ظهر له وعلمه الصلاة فعلمها لامرأته خديجة ولزيد ابن حارثة مولاه ولعلي ابن عمه ابي طالب . وكان عليٌّ غلاماً صغيراً . وعلمها ايضاً لعبد الله بن ابي قحافة الذي يسمونه الآن ابا بكر وتبعه آخرون وهو يتلو عليهم آيات يقول ان ربه علمه اياها ونحن لا نعبأ بذلك لانه لم يمس آلهتنا بعيب . ولكنه ما لبث أن جمع عمومته وأهل عشيرته الاقربين الى وليمة ودعاهم الى ترك الآلهة فاجابه عمه عبد العزى (ابو لهب) منكراً عليه جرأته هذه ونصح له أن يرجع عن ذلك [1] فابى ولم يزدد الا تمسكا

ثم بلغنا انه سب آلهتنا وعاب أصنامنا فشق ذلك علينا فاجتمعنا وفينا نخبة من أشراف قريش وتداولنا في أمره وما جاء به فهياً لبعضنا أن نقتله . فقال البعض الآخر « اذا قتلناه انما نسيء عمه ابا طالب وهو رجل جليل القدر فالافضل لنا أن نخاطبه بشأن ابن أخيه وخصوصاً ان ابا طالب هذا ظل على دين آبائنا حتى مات ولم يؤمن بدعوة ابن اخيه » فسرنا جميعاً الى ابي طالب في منزله فتلقانا على الرحب والسعة واكرم وفادتنا على جاري عادته فلما استقر بنا المقام قلنا « يا ابا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فاما أن تكفه عنا او أن تخلي بيننا وبينه . فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه » فاجابنا أبو طالب جواباً لطيفاً ووعدنا وعداً حسناً وردنا رداً جميلا فانصرفنا عنه على أمل أن يردع ابن اخيه عن عمله [2] فاذا هو باق على ما كان عليه وما زلنا نسمع مثل ما كنا نسمعه عنه قبلا .

وكان ممن أيد دعوته من قريش ابن عم امرأته خديجة وكان اسمه ورقة بن نوفل وكان نصرانياً مثلكم فاشتد غضبنا وهممنا بان نفتك به ثم رجعنا الى مجاملة عمه فاجتمعنا اليه مرة أخرى وقلنا له « يا ابا طالب أن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وانا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وانا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى يهلك أحد الفريقين » [3] فآنسنا هذه المرة من ابي طالب انصياعاً وكأنه عول على اجابة سؤالنا اذ لا صبر له على فراق قومه وعشيرته ومعاداتهم . وبلغني أنه لما خرجنا من

(١) الطبري (٢) السيرة الحلبية (٣) ابن اسحاق

منزله بعث الى ابن أخيه فقال له « يا ابن أخي « ان قومك قد جاؤا اليّ فقالوا كذا وكذا فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الامر ما لا أطيق » فآنس من اصراره على معتقده وبقائه على عزمه ما كاد يغضبه لولا أن محمداً قال له « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهر أو أهلك فيه ما تركته » ثم بكى فرق له قلب عمه وتذكر ان ابن أخيه في منزله وله عليه حق الجوار فعاد الى نصرته وطمأن قلبه ووعده انه لن يسلمه أبداً

ثم علمنا ذات يوم ان محمداً ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه فقال « أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الاخرى تلك الغرانيق العلى ان شفاعتهن لترتضى »[1] وذلك ما كنا نعتقده فسررنا سروراً لا مزيد عليه وقلنا ها قد تم الوفاق . ثم ما لبث ان رجع عن ذلك وأبدل هذه الفقرة بفقرة تزيدنا نفرة منه فقال « ان تلك انما القاها الشيطان على لسانه » ثم ذكر آلهتنا بكل سوء فقال « ان هي الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم » الى غير ذلك مما زادنا نفوراً وبعداً

تحيرنا في امرنا مع هذا الرجل ولبثنا نتوقع فرصة نتخلص بها منه ونرجو رجوعه فاذا هو باق على عزمه وكثيراً ما كان بعض رجالنا اذا التقوا به يهددوه وهو لا يبالي وفيما نحن في ذلك اذ سمعنا ان عمه حمزة بن عبد المطلب قد آمن بدعوته وأخذ بناصره وحمزة هذا رجل شديد تهابه قريش فاشتد به ازره وازداد ثباتاً في دعوته فقلنا لندعون محمداً الينا نكلمه ونخاصمه حتى نعذر فيه فاجتمعنا في الكعبة وفينا كل اشراف قريش واستقدمناه نجاه فقلنا « قد بعثنا اليك لنكلمك فاننا لا نعرف رجلاً من العرب ادخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرّقت الجماعة فما أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كنت تريد به ملكاً

(١) الطبري

ملكناك علينا وان كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك (والرئي التابع من الجن) بذلنا لك اموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه او نعذر فيك »

فاجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلاً « ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتكم به أطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل عليَّ كتاباً وأمرني ان أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه عليَّ أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » فاردنا أن نمتحن اعتقاده فقلنا له « ان كنت غير قابل شيئاً مما عرضناه عليك فانك قد علمت انه ليس من الناس أحد اضيق بلداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فيسير عنا هذه الحال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كانهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا قصي بن كلاب فانه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول أحق هو ام باطل فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وانه بعثك رسولاً كما تقول » فاجابنا وهو لا يتلجلج ولا يتردد قائلاً « ما بهذا بعثت اليكم انما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بلغت ما أرسلت به اليكم فان تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والاخرة وان تردوه عليَّ أصبر ان الله تعالى يحكم بيني وبينكم » (١) وطال الجدال بيننا في مثل ذلك وهو باق على قوله حتى خرج ونحن لا نرى سبيلاً الى الايقاع به

وكان ابو سفيان يتكلم والجميع صامتون يتطاولون باعناقهم فلما وصل الى هذا الحد جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض وهم يعجبون لما سمعوه . فقال بطريرك القسطنطينية لهرقل اني لا أرى هذا الرجل الا قد جاءهم بالحق وهم انما يشكون من دعوته اياهم الى دين الله . ثم عادوا الى استماع بقية الحديث فقال هرقل وما جرى بعد ذلك

فقال ابو سفيان وما زال أمر هذا الرجل يستفحل حتى كثر أنصاره ومن

---

(١) السيرة الحلبية

غريب ما رأيناه منهم أنهم كانوا يحتملون منا الامور الصعاب والاضطهاد الشديد على ان يكفروا به فلم يفعلوا حتى اذا ضيقنا عليهم فر جماعة منهم الى بلاد الحبشة فحماهم ملكها وأخذ بناصرهم. أما محمد فبقي في مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر ونحن غافلون حتى سمعنا باسلام عمر بن الخطاب وهو من أعظم رجال قريش فتأيدت دعوته به كما تأيدت بحمزة فعظم أمره واشتد ازره فصار دعاته يتكاثرون يوماً بعد يوم بما ينضم اليهم من القبائل فخفنا عاقبة ذلك فاجتمعنا وائتمرنا على ان نكتب كتاباً نتعاقد فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ان لا ننكح اليهم ولا ننكحهم ولا نبيعهم شيئاً ولا نبتاعوا منا شيئاً فكتبنا صحيفة تعاهدنا عليها وتواثقنا وعلقناها في جوف الكعبة ولكنها ما لبثت ان نقضت لاننا تعهدناها يوماً فاذا هي قد اكلتها الارضة فتشاءمنا بذلك وأسقط في يدنا فلبثنا ننتظر ما يأتي به الزمان

فمنذ عشر سنوات تقريباً (١) توفي أبو طالب وخديجة فذهب الذي كنا نهابه ونجل مقامه فنلنا من محمد ما لم ننله قبلاً فسمناه أنواع العذاب والاضطهاد حتى كثيراً ما كنا ننثر التراب على رأسه فخرج من مكة الى الطائف يلتمس النصر من قبيلة ثقيف التي قضى زمن رضاعته بينهم فلم ينل خيراً بل كانوا يسبونه ويؤذونه ويعترضون له في الطريق ويسومونه ألوان العذاب حتى ظنناه يرتجع ويترك دعوته ولكنه لم يزدد الا ثباتاً . وكان يذهب الى المواسم حيث تجتمع القبائل للبيع والشراء كموسم عكاظ وغيره ويعرض نفسه عليهم ويدعوهم الى دينه . فكان أكثرهم اقبالا عليه قبائل الخزرج من أهل المدينة (يثرب) فانهم بايعوه بيعات تعرف ببيعات العقبة لوقوعها في مكان اسمه العقبة بقرب مكة

فقال الترجمان عند ذلك وما معنى المبايعة عندك قال ابو سفيان هي ان يتراضى الفريقان على أمر كالبيع والشراء وسمعت ان لهذا الرجل مبايعة يؤخذ منها تعهد المبايعين أن يكونوا على دعوته . ومن أمثلة ذلك قولهم له « بايعناك على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف » (٢)

(١) الطبري (٢) ابن هشام

وقد كان بيعة العقبة هـذه أول أمر الانصار وهم أهل المدينة وسماهم الانصار لان أمره ضعف بعد وفاة عمه وخديجة كما قدمت فجاء الخرزج وبايعوه ونصروه فسماهم الانصار وهؤلاء ساروا الى المدينـة ونشروا دعوته بين أهلها فتبعه منهم كثيرون فلما رأى تضييقنا عليه بمكة أمر أصحابه بالمهاجرة الى المدينة وسماهم المهاجرين تمييزاً لهم عن الانصار المتقدم ذكرهم

فلما علمنا بذلك وتبين لنا انه اذا سار هو الى المدينة سيمتنع بانصاره وأصحابه وربما عادوا الى مناوأتنا فاجتمعنا في دار النـدوة التي ذكرت لـكم ان قصياً جعلها بجانب الـكعبة للمشورة وتفاوضنا في ماذا نفعل بهذا الرجل فقال بعضنا ننفيه وقال آخرون ان نفيه لا يمنع اجتماعه باصحابه وأنصاره

فقال آخرون فلنقتله ونجعل دمه متفرقاً بين القبائل لئـلا يجتمع أعمامه بنو عبد مناف على المطالبـة بدمه فجئنا برجال من كل القبائل وسرنا جميعاً خلسة حتى أتينا منزله وتربصنا له ريثما ينام فلما ظنناه نام وقد شاهدنا رجلا ملتفاً ببردة حسبناه هو ثم خرج هو الينا ونحن نظنه سواه فـكلمنا وحثا التراب على عيوننا وفر من أمامنا فتركناه ودخلنا على النائم فاذا هو علي ابن عمه ففر الاخر من أمامنا ونجا الجميع وتبعه من بقي من اتباعه في مكة الى المدينة (١) وهناك نصره المهاجرون والانصار وهم جنده الى هذا اليوم مع ما انضم اليهم من القبائل على أثر الحروب التي حاربها والغزوات التي غزاها فانه لم يدع قافلة لنا تمر بالمدينة الا غزاها وفرق أسلابها وأموالها بين رجاله حتى كانت بيننا وبينه واقعة بدر الـكبرى والصغرى وواقعة أحـد وغير ذلك مما يطول شرحه

فعجب هرقل لحديث ابي سفيان ورآه لم يفرغ من حديثـه حتى علا وجهه الاكتئاب والاسف فقال له وكيف حال صاحبك اليوم

قال قد انتشر أمره بين القبائل في سائر بلاد العرب الا مكة فانها لا تزال ممتنعة عليه ونظنها ستمتنع برجالها وقد بلغني انه سيقدم لفتحها ولـكنه سيلقى منا غير ما لاقاه في وقائعه الاخرى . ومما يدلك على اغتراره بنفسه انه خاطب

(١) السيرة الحلبية

الامبراطور هرقل قيصر الروم بمثل هذا الخطاب على اننا ما برحنا نسمعه من بدء دعوته يقول ان كنوز كسرى وقيصر ستفتح له [١]

فقال هرقل يؤخذ من كلامك ان الرجل جاءكم بالقول الحق فان عبادة الله اولى من عبادة الاصنام وانتم انما قاومتموه ظلماً

فقال ابو سفيان ان اكثرنا أيها القيصر يعتقد بالله ولكننا نتخذ الاصنام « ليقربونا الى الله زلفى » [٢] ونعترف بالبعث والاعادة ولكننا لا نؤمن بالرسل [٣]

فاعترضه أحد البطاركة قائلاً فلا نظنكم قاومتموه الا خوفاً على تجارتكم ان تبور اذا هدمت كعبتكم وقلّ توارد الناس اليها فهي مصالح دنيوية آثرتموها على مصلحة الاخرى

ثم اشار هرقل اشارة فهم الحضور منها انه اكتفى من حديث أبي سفيان فتقدم الحارث الى ابي سفيان واوعأ اليه فوقف وقبل الارض بين يدي هرقل فقال له الامبراطور لقد سرّنا لقاؤك واستفدنا من حديثك ولكنك تكبدت المشقة بالقدوم الينا جزاك الله خيراً. فقبل ابو سفيان الارض ثانية وقال أبيت اللعن أيها الملك العظيم فاني بالمثول بين يديكم افاخر أهل الحجاز كافة اذ قلما تيسر لاحد منهم أن يخاطب قيصر الروم. قال ذلك وخرج ورجاله معه فامر له هرقل بخلعة من الحرير المزركش

ثم التفت هرقل وتناول الكتاب وهو من الرق وامر ان يحفظ في قصبة من ذهب [٤] وامر بهدية الى دحية حامل الكتاب وسلم اليه الكتاب وصرفه

(١) الطبري (٢) القرآن (٣) المسعودي (٤) السيرة الحلبية

الفصل السابع عشر

عود عبد الله

اما عبد الله فما صدق ان فرغ ابو سفيان من حديثه وخرج حتى خرج هو معه فلما التقيا في صحن الدار سلما وكان ابو سفيان لا يذكر وجه عبد الله ولكن عبد الله رآه في مكة في بعض السنين على أنهما تعارفا وتصافحا حالاً لما بينهما من رابطة اللغة في ارض قلَّ فيها العرب فسأله أبو سفيان عن مسيره او اقامته فقال اني مسافر الى عمان فقال ابو سفيان لكن في طريقك اليها أودية وعقبات فهل انت معتاد السفر فيها

قال قد سرت اليها من هذا الطريق منذ بضعة اعوام

فقال ابو سفيان أما وقد تعارفنا وترابطنا فلنسر معاً لاننا عازمون على الحجاز وقد يسهل علينا المرور بعمان فاذا أقمت هناك ودعناك وسرنا في سبيلنا ولكن قافلتنا لا تزال في غزة وفيها جمالنا واثقالنا وخيولنا فلنقم هنا يوماً او يومين ريثما تستقدم القافلة ونسير جميعاً

فقال عبد الله حسناً تفعل فها اني ذاهب لوداع الحارث ثم اقضي بعض المهام ونلتقي الليلة في الساحة بقرب الكنيسة

قال أبو سفيان نعم الرأي رأيت

وافترقا فعاد عبد الله الى القاعة وكانت الجلسة قد ارفضت فالتقى بالحارث خارجاً يبحث عنه فلما لقيه سأله الحارث عن غيابه فاعتذر بانه كان في شاغل

فقال له هل تسير الى بصري فتكون معي

فتحير عبد الله بماذا يجيبه وخاف اذا أبى الذهاب معه ان يحمل ذلك محملاً سيئاً وهو بالحقيقة لا يريد الذهاب الى بصرى قبل ان يلتقي بحماد وخاف أن يخبره عن عزمه على عمان مع ابي سفيان لئلا يستغشه فوقع في حيرة ولكنه أثنى على تلطفه في استصحابه وشكر عنايته في انقاذه وقال له ان مجيئي الى

بيت المقدس قد حبب اليَّ الاقامة فيها مدة قبل ان اسير الى بصرى على اني حيثما كنت انما اكون في ظل حمايتكم وحماية مولانا القيصر

فوافقه على ذلك وسلمه كتاب الامان وودعه فسار عبد الله حتى التقى بابي سفيان فقضيا بضعة ايام في القدس حتى جاءت القافلة فتهيأوا للسفر وكانت القافلة تنتظرهم خارج المدينة وفي صباح اليوم الثالث أُعدت الخيول لركوب أبي سفيان وحاشيته

فقال أبو سفيان لعبد الله هل عندك جواد لركوبك

قال كلا لاني تركت فرسي في بصرى

فامر ان يعطى له فرس من افراس حاشيته وقال له اركب هذا الجواد الآن فاذا وصلنا القافلة اعطيناك فرساً يليق بك

الفصل الثامن عشر

جواد حماد

فركبوا حتى جاؤوا القافلة خارج المدينة فجلسوا للاستراحة قليلاً وعبد الله لا يرتاح الا بالسفر استعجالاً لالتقاء حماد ولكنه اطاعهم فجاؤوه بفرس عليه سرج ثمين فلما وقع نظره عليه اختلج قلبه في صدره لانه يشبه فرس حماد ثم تأمله جيداً فاذا هو بعينه فاعاد نظره على السرج فاذا هو سرج فرس حماد فدنا منه ولمسه بين عينيه فآنس بالفرس حنواً اليه وارتياحاً الى لمسه فتحقق انه هو فرس حماد بعينه فبغت وكان ابو سفيان واقفاً على مقربة منه يراعيه فلما رأى ذلك منه سأله عن امره

فقال اني في ريب من امر هذا الفرس لانه فرس ولدي

فقال ابو سفيان وكيف عرفته

قال عرفته من لونه وقده وسرجه وقد رأيته منذ كان مهراً رضيعاً واعرف أمه قبله

فتعجب أبو سفيان لهذا الاتفاق الغريب وقال له واين كان ولدك

قال كان راكباً من بصرى الى عمان فأين ظفرتم بهذا الفرس

قال ظفرنا به تائهاً بالقرب من الزرقاء

فخاف عبدالله أن يكون لضياع هذا الفرس سبب يوجب قلقاً فاعاد السؤال ثانية عن كيفية عثورهم عليه

فقال ابو سفيان كنا قادمين من الحجاز الى الشام منذ بضعة أسابيع وفيما نحن بالقرب من الزرقاء نحاذر ان نقترب من مسبعتها اذ شاهدنا هذا الفرس تائهاً في الصحراء فارسلت بعض رجالي في أثره وبعد العناء والمشقة قبض عليه فجاء به الي فسقناه معنا الى غزة ثم جئنا به الى هنا كما ترى

فبهت عبد الله ولبث صامتاً لا يتكلم وقد غلبت الهواجس عليه مخافة ان يكون حماد قد ذهب فريسة السباع وفرَّ جواده منه وهو يعلم ان الفرس أصيل لا يترك صاحبه الا اذا مات او أُسر او غاب عنه فترقرقت الدموع في عينيه رغماً عنه ولكنه تجلد وقال اراني كثير القلق على ولدي ولا يهدأ لي بال حتى اتفقد المكان الذي وجدتم الفرس فيه

فقال ابو سفيان هو في طريقنا الى عمان فاذا شئت عرجنا اليه وبحثنا معك عما تريد فان امر ولدك يهمنا كما يهمك

ثم ركبوا أما عبد الله فلم يشأ ان يركب فرس ابنه بعد ما رابه من أمره فاركبوه غيره وساروا وهو لا ينبث ببنت شفة لاشتغاله بالهواجس فقضوا يومين سائرين وعبد الله لا يأكل ولا ينام الا قليلاً حتى صاروا على مقربة من الزرقاء فقال ابو سفيان ها اننا بقرب المسبعة فلنترك القافلة وجمالها واحمالها ولنصحب بعض الفرسان الى ذلك السهل حيث عثرنا على الفرس يركض فيه

فعرجوا وهم عشرة رجال وفيهم ابو سفيان وعبد الله وساروا يحاذرون ان يلقاهم اسد او وحش آخر على انهم لم يكونوا يخافون ذلك والوقت نهار وهم كثار . فلم يسيروا الا قليلاً حتى وقف أبو سفيان وقال هذا هو المكان الذى عثرنا فيه على الفرس فقد رأيته يركض في هذا السهل

فقال عبد الله وأين هي المسبعة

قال هي الى يمينا فاذا رأيت ان نعرج نحوها فعلنا

فقال عبد الله لا أراني قادراً على العود قبل ان اقتفي اثر حوافر الجواد لعلي أقف على اثر ولدي فاني أخاف ان يكون قد ذهب فريسة الوحوش والعياذ بالله فقال أبو سفيان مر بما تشاء فاننا بين يديك وامر رجاله فتفرقوا بين التلال يبحثون عن آثار الادميين وبعد برهة عاد احدهم يسوق جواده زميلاً حتى دنا منهم فقال رأيت آثار اناس بالقرب من شجرة هناك

فهمز عبد الله جواده وتبعه ابو سفيان في اثر الرجل حتى دنوا من المكان فاذا هناك شجرة كبيرة تحتها بقايا جواد مقتول لم يبق منه الا جمجمته وسرجه وبعض عظامه فعرف عبد الله من السرج انه جواد سلمان خادمه فصاح قائلا هذا هو جواد سلمان فاين حماد واخذ يبحث حول الشجرة وبالقرب منها فرأى آثار نسيج عرف بالتأمل انها عباءة فظنها عباءة حماد قد مزقتها أنياب الوحوش فلطم كفاً بكف وقال هذه هي عباءته فاين بقاياه ألعل الاسود اكلته كله قال ذلك وتناول قطع العباءة وجعل يقبلها ويذرف الدموع ويصيح وا ولداه قد اكلتك السباع آه اين انت . ولم يعد يستطيع الوقوف

فتأثر أبو سفيان وكل من حضر من حاله ولولا خشونة البداوة وتعودهم القتل والنهب لبكوا معه . أما أبو سفيان فقال له هون عليك يا اخا لخم فاننا لم نحقق موت الغلام بعد وانت لم تعثر بأثر جثته واخذ يخفف عنه ويطيب بمثل هذا الكلام وهو لا يهدأ له بال ولا ينفك عن البكاء بل جعل يلطم كفاً بكف ويقول أهذه هي آخر حياتك يا حماد آه من لي بالانياب التي نهشت جلدك الناعم فامزقها وأين تلك المخالب التي غرست اظافرها في لحمك فامزقها كما مزقته آه وا ولداه أهذا هو وفاء النذر أهذه عاقبة الاصطبار عشرين عاماً لنقص لك شعرك

فلما رأى أبو سفيان شدة اضطراب عبد الله وعظم بكائه رق له وخاف عليه فجلس الى جانبه وأمسك بيده وأخذ يخفف عنه بما يؤمله ببقاء ابنه حياً وقال له ان ما رأيناه من الآثار لا يدل على شيء مما خفته فلو كان الاسد

فتك بالغلام لرأيت شيئاً من بقاياه وهب ان الاسد اكل ثيابه فهو لا يستطيع أن يزدرد سيفه ورمحه فلو كان ما تظنه صحيحاً لرأيت سلاحه باقياً هنا على الاقل فلعله فرّ ونجا ولم يفتك الاسد بغير هذا الفرس ارجع الى صوابك وتبصر في الامر فانك رجل عاقل خبير وزد على ذلك ان البكاء لا يجديك نفعاً هلم نبحث في هذا الجوار لعلنا نقف على ما يكشف لنا الغامض

فقال عبد الله صدقت يا أخا قريش ان البكاء لا يجديني نفعاً ولكنني أخاف اذا بحثت ان لا ازداد الا فشلا ويأساً فدعني ابكي ولدي وأقبل عباءته في هذه الصحراء حتى يلقاني الاسد الذي افترسه فاما أن انتقم له منه أو أن يفترسني فنموت جميعاً فان ذلك خير لي وابقى

فما زال أبو سفيان يدافعه حتى سكن روعه فنهض وسار ماشياً بين التلال والصخور وأبو سفيان يصحبه ورجاله منبثون في أنحاء السهل يساعدونهما في التفتيش فوصل عبد الله وأبو سفيان الى غدير صغير أشرفا عليه من اكمة فانس عبد الله عند الغدير شبحاً فهرول نحوه فاذا به ثياب وسلاح فتأملها فاذا هي عباءة حماد ورمحه وسيفه فضم السيف الى صدره وصاح هذا هو سلاحه وهذه هي عباءته لا تلك فاين هو . فاخذوا يبحثون في ذلك الجوار حتى ملوا التفتيش وكادت الشمس تميل الى الاصيل ولم يجدوا شيئاً فتحقق عبد الله ان حماداً قد ذهب فريسة الاسد فعاد الى البكاء والنوح حتى انفطر قلب أبي سفيان له وأشفق عليه فأخذ يعزيه ويخفف أحزانه وهو لا يزداد الا بكاء

فقال أبو سفيان ما يجدينا البكاء يا اخا العرب اننا لا نستطيع رد الضائع ووالله لو كان ابنك أسيراً في ايوان كسرى أو قصر قيصر لبذلنا انفسنا في سبيل انقاذه لان لك علينا حق الجوار وزد على ذلك أنك رجل قد وقعت من نفسي موقعاً عظيماً فسررت بلقائك وها أني بين يديك فافعل ما تراه فاني أطوع لك من بنانك

فسكت عبد الله برهة ولم يجب ولبث برهة غارقاً في بحار الهواجس يراجع في ذهنه تاريخ حياته وما جاء من أجله الى بصرى وما كان من أجل النذر ثم رجع الى صوابه وتجلد تجلد الرجال المدبرين فعلم ان البكاء لا يجديه نفعاً

ورأى من الحزم أن يتـدبر الامر بالصبر والتروي فلاح له أن يسير الى عمان يفتش فيها عن حماد فلعل أحـداً ينبئه بحاله ونظر الى الشمس وقد قاربت الزوال وبينهم وبين الطريق بضعة أميـال ورأى ابا سفيان ورجاله واقفين في خدمته ينتظرون أمراً يطيعونه فيه فخاف أن يسبب لهم بالبقاء هناك اذية فقال لابي سفيان اني يا اخا قريش شاكر لحسن صنيعك وأخشى أن اكون سبباً لضرر ينالك على يدي ونحن في هذه الصحراء التي شربت دم ولدي فسيروا الى مقصدكم بحراسة الله ودعوني أسير في طريقي

فاجابه ابو سفيان قائلاً دع عنك الهواجس واعلم أننا لا نبرح هذا المكان الا وأنت في مقدمتنا فلسنا بتاركيك وحدك فاذا رافقتنا فنحن في خدمتـك حتى تصل مأمنك واذا شئت المسير معنا الى مكة فانك تنزل بيننا على الرحب والسعة فاختر لنفسك

فهم عبد الله بابي سفيان وضمه الى صدره لما آنسه من تعزيته وقال لقـد وفيتم الكيل وأجزلتم الجميل . اما المسير معكم فغير مستطاع ولا بد لي من النظر في الامر فاما ان أسير الى عمان أو أعود الى منزلي بقرب بصرى حتى يحكم الله بما يشاء

قال اننا اذن في ركابك الى عمان ثم الى حيث تشاء قال ذلك وأمسك بيده وسار به فمشى عبدالله وسيف حماد بيده يتنسم منه رائحته وعادوا جميعاً الى القافلة

وكان عبد الله في أثناء عودته صامتاً يفكر في حاله ويتردد بين أن يسير الى عمان وهو لا يدري ما بقي هناك بعد ما داخله من الريب في امر حماد وهو موقن على انه لما نظر في الامر طويلاً وراجع ما مر به من أحوال ذلك اليوم اعترضه امل رأى من خلاله بصيصاً هيأ له حماداً حياً وذلك انه فكر في أمر ما عثر عليه من بقاياه فلم يجد دليلاً قاطعاً بموته وهو لم يعثر بشيء من جثته فقال في نفسه لو اكلته السباع لبقيت منه بقية مثل بقية ذلك الجواد من جمجمة او عظام او قطع من ثوبه ممزقة . ثم فكر في ما وجده من السلاح فاذا به لم يره في الموضع الذي رأى فيه بقايا الجواد فقضى مدة يتردد بين اليأس والرجاء حتى وصلوا القافلة

فقال أبو سفيان ما ترى يا أخا لخم هل تسير معنا الى الحجاز أو تزمع الى مكان نوصلك اليه في انحاء الشام أم تريد أمراً نقضيه لك

فقال عبد الله اني والله لا أدري ماذا أقول ولا أعلم ماذا أعمل فارى أن تتركوني في هذا المكان أفكر في أمري حتى ألهم أمراً أعمله فاني لا أفقه من امري شيئاً

فقال أبو سفيان لسنا تاركيك وأنت في هذه الحال

فقال عبد الله لقد غمرتموني بفضلكم وانسيتموني مصيبتي بتعزيتكم اما وقد اصررتم على ذلك فاني أود الذهاب الى عمان لعلي استطلع خبراً جديداً

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال فباتوا ليلتهم هناك وأصبحوا باكراً يريدون عمان فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها فقال عبد الله استودعكم الله فاني معرج الى عمان انتظار ما يأتي به القضاء

الفصل التاسع عشر

عمان

فودعهم وانصرف وقد تركوا عنده فرس حماد وبعض الزاد فلما انفرد عبد الله بنفسه نظر الى عمان وقد أشرف عليها من مرتفع فاذا هي مدينة خربة لم يبق من آثارها الرومانية الا بضعة أبنية متهدمة أعظمها هيكل خرب على تل بالقرب من غدير كاد ماؤه ان ينضب ورأى على مقربة من ذلك المكان بيوتاً حقيرة يسكنها بعض الفقراء لا تكاد تزيد على قرية حقيرة . فسار نحو الهيكل وعبر اليه على جسر يظهر من منظره انه كان عظيماً وتهدم (١) فوصل الهيكل ماشياً يقود الفرس وراءه وهو يحرص عليه حرصه على ابنه لانه من آثاره

(١) قاموس التوراة لسميث

فما وصل ذلك البناء حتى غابت الشمس واغبر وجه الافق فجلس على حجر من احجار الهيكل ملقى عند بابه وأمسك بزمام الفرس ونظر اليه فرآه هادئاً كئيباً كأنه شعر بما يخامر قلب عبد الله من الهواجس فشاركه في الأسف على فقيده ثم نظر عبد الله الى ما حوله فاذا هو في أرض خالية من انفاس الناس لا يسمع فيها صوت ولا يرى فيها الا أشباح بعض التلال او الاحجار أو الاشجار والتفت الى ذلك البناء على عظمه فرأى الذلة والمسكنة قد ضربتا عليه لما يتجلى فيه من آثار الخراب فكان له بذلك عبرة عن مصير الانسان فتذكر حاله مع حماد وما مر به في ذلك اليوم من الاهوال فغلب عليه القلق واشتد به الحزن حتى ترقرقت الدموع في عينيه ثم حانت منه التفاتة فرأى بيوت القرية عن بعد فحدثته هواجسه انه سيجد حماداً بين أهلها فنهض بغتة يريد الذهاب اليها . ثم عاد الى صوابه فقال في نفسه لا اراني الا في اضغاث احلام ان حماداً قد أصبح في عداد الاموات . فعادت اليه احزانه فجلس على ذلك الحجر وعاد الى البكاء

وقضى مدة في مثل هذه الحال يتردد بين اليأس والرجاء والليل قد سدل نقابه وعلا نعيق الغربان ونعبت اصوات الضفادع في ذلك الغدير القليل الماء فخاف ان يكون في بقائه هناك خطر على حياته من وحش يفترسه او لصوص يسطون عليه فيقضي نحبه قبل ان يحقق امر حماد فعاد الى ذكرى احزانه فامسك بحسامه وقبله واجهش في البكاء

وما زال في مثل ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس على أثر ما قاساه من تعب المشي فاسند رأسه الى جدار الهيكل وهو بين اليقظة والمنام وعنان الفرس في يمينه فما شعر الا والجواد يصهل ويفحص الارض بحوافره فعلم ان هناك أمراً ذا بال فوقف وأصاخ بسمعه وحدق بعينيه فلم ير شيئاً ولا سمع صوتاً فعاد الى متكأه وهو لا يستطيع الرقاد لشدة هواجسه فالقى باذنه الى الارض ليستطلع سبب اضطراب الجواد لعله يسمع صوتاً او يستطلع نبأ جديداً . فسمع وقع اقدام كثيرة فعلم ان الجواد لم يجفل عبثاً وان جماعة قادمون الى ذلك المكان فهيأ نفسه للدفاع وصعد الى ربوة بالقرب منه لعله يرى اشباحاً عن بعد فلم

بر شيئاً لان الظلام كان شديداً فعاد الى مكانه وهو يتوقع امراً خطيراً شغله عن هواجسه برهة فقضى بقية ذلك الليل في مثل هذه الحال حتى دنا الفجر وكان قد غمض جفنه قليلاً فافاق على صهيل الجواد فرأى بالقرب منه جماعة كثيرة من الرجال في لباس البدو فظنهم لاول وهلة من رجال ابي سفيان لانهم في مثل زيهم وقيافتهم ولكنه ما لبث ان سمع بعضهم يناديه منتهراً ثم هموا به يريدون القبض عليه فهمَّ بالركوب على الجواد للدفاع عن نفسه فتجمهروا حوله وهم كثار فلم يستطع دفاعاً فقبضوا عليه واوثقوه وساقوه وهو يكاد يتميز غيظاً فقال ماذا تريدون مني ولا ثار بيني وبينكم فناداه أحدهم قائلاً كيف لا ترى ثأراً بيننا وبينك وأنت من رجال غسان وقد قتلتم رسولنا واهنتم نبينا

فقال لقد اخطأتم المرمى فما أنا من غسان وانما انا غريب في هذه الديار

فقالوا ان كنت صادقاً فيما تقول تبرىء نفسك أمام اميرنا قالوا ذلك وساقوه موثقاً وأخذوا سلاحه وفرسه فمشى معهم برهة فاشرف على خيام متضروبة ورأى جموعاً كثيرة من عرب الحجاز ومعهم الاحمال والاثقال والخيول فساروا به الى فسطاط كبير علم من العلم المنصوب أمامه أنه فسطاط الامير وكان العلم ابيض (١) ولم يكد يدنو من الخيمة حتى تقاطر الرجال زرافات ووحداناً وكلهم من أهل البادية مكشوفو الرؤوس تغطي أبدانهم شملات يلتحفونها الا قليلاً منهم وقد لوحت وجوههم الشمس وظهرت عليهم آثار الاسفار ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال

فلما وصل الفسطاط اوقفوه خارجاً ودخل بعضهم ثم عاد فقاده الى داخل فرأى في صدر المجلس رجلا بعمامة وجبة جالساً على فسطاط وبين يديه بضعة من رجال في مثل لباسه فعرف أنهم امراء ذلك الجيش فاستعاذ بالله مما هو مسوق اليه فخاطبه الامير قائلاً

من أنت يا أخا العرب ألملك من رجال الحارث بن أبي شمر

قال لست من أهل هذه الديار

(١) السيرة الحلبية

فقال ألست من غسان

قال كلا

قال ومن أنت

قال من لخم

قال وما جاء بك الى هذا المكان ولخم تقيم في العراق . ألعلك ممن جاؤوا لنجدة الروم من لخم وجذام وبلقين فقد علمنا ان هرقل جند جنداً فيه من العرب المتنصرة

قال لست من اولئك بل جئت في حاجة ولا ألبث أن أعود

قال أصدقنا الخبر فانك اسير بين ايدينا

قال قلت لكم الصدق

قال وما دليلك على ذلك

وكان عبد الله قد عرف من لغتهم ولباسهم انهم من قريش فتذكر ابا سفيان فظن استشهاده به ينجيه من الخطر فقال ودليلي انني كنت في الامس مع ابي سفيان امير قريش وهو صديق لي حميم فاذا كان بينكم اسألوه

فما اتم كلامه حتى قطب الامير وجهه وقال أأنت صديق لذلك المشرك فانك لم تزدنا في شأنك الا شكاً وما الذي جرك الى صداقة هذا الزنيم

فارتبك عبد الله في أمره ولم يدر كيف يخلص نفسه من ذلك الاقرار ولكنه تجلد وقال عرفته منذ بضعة أيام فقط وقد جاء اتجارة الى هذه الانحاء فاصطحبته زمناً يسيراً ثم افترقنا بالامس

قال ذلك وقد تذكر حكاية ابي سفيان وعدوانه لصاحب دعوة الاسلام فادرك انه بين يدي رجال صاحب الدعوة الاسلامية فلم يزد شيئاً

فقال له الامير لو اقتصرت على كونك من لخم لكان الامر سهلا ولكنك أقررت بانك صديق لعدونا فأنت مقيم في أسرنا حتى نرى ما يكون من امرك ثم أمر فاخرجوه مخفوراً الى خيمة منفردة جعلوه فيها

الفصل العشرون

غزوة مؤته

ولو كان عبد الله ممن لم يتعودوا الاخطار لاستعظام الامر كثيراً ولكنه لعلمه ببراءته صبر نفسه حتى يتمكن من اظهار حقيقة حاله على انه ما زال في ريب من امر هذا الجيش ومجيئه من الحجاز الى الشام فأحب الاطلاع على مهمته حتى يعرف كيف يخاص نفسه . فلما وصل الى الخيمة جاءه بعض الخفراء وأخذ يسأله عن ابي سفيان وكيف لقيه وأين رفاقه فاغتنم تلك الفرصة فقال للرجل الى اين تقصدون بهذا الجند

قال نقصد مشارف الشام لحرب الروم

قال وما الذي دعاكم الى حربهم

قال دعانا الى حربهم ما رأيناه من وقاحتهم

فقال وما أوجب ذلك وأنتم من قريش على ما يظهر ومقامكم في الحجاز وليس بينكم وبينهم علاقة

فقال ان نبينا محمداً الذي أرسله الله نذيراً للناس كافة أنذرهم بكتاب يدعوهم الى الاسلام فلما وصل الكتاب الى الغساني امير العرب المتنصرة حتى مزقه وقتل رسولنا (١) فاشتد الامر على نبينا فبعث مولاه زيد بن حارثة في هذا الجند لقتال الروم

فقال عبد الله قد رأيت رسولكم الى هرقل بمثل هذا الكتاب فلم يفعل به مثل ذلك

قال ذلك كتاب غير الذي ذكرته لك ارسله قبله أما قولك ان هرقل لم يفعل مثل ما فعل الغساني فلأنه هاب ملكنا وأما الغساني فقد غرّه جهله وسوف يلقى منا ما لقيه عرب الحجاز واليمن ممن ابوا الاسلام

---

(١) السيرة الحلبية

فقال عبد الله ومن هو الامير الجالس في صدر الخيمة ومن هم الامراء الذين حوله

قال هو زيد بن حارثة مولى رسول الله أما الامراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينه هو جعفر بن ابي طالب ابن عم نبينا والجالس عن يساره عبدالله ابن رواحة وقد اوصى لهما بالامارة على هذا الجيش لكل منهما عند الحاجة(٢) وقد امرنا نبينا ان نأتي المكان الذي قتل فيه رسولنا وهي قرية يقال لها مؤتة فندعوا اهله الى الاسلام فان ابوا قاتلناهم حتى نفنيهم عن آخرهم او يحكم الله بيننا وبينهم

فادرك عبد الله سر الامر . فقال للرجل وما الذي جنيته انا حتى سقتموني اسيراً وما انا من الروم ولا من غسان

قال لا اظن عليك بأساً من هذا الامر ولو لم تتظاهر بصداقتك لابي سفيان لكان ذنبك خفيفاً ولكنك ستبقى في اسرنا لعلنا نحتاج اليك في اثناء الحرب

فسكت عبد الله وقد هان عليه ما خافه ومكث ينتظر ما يأتي به القدر ولكنه ما لبث ان هدأ روعه من قبيل الخطر عليه حتى عاد الى هواجسه بشأن حماد وكلما ترجح له موته تمنى ان يقتل فيلحق به

وبعد يومين من دخوله في الاسر تهيأت تلك الحملة للمسير الى مؤتة فلنتركهم في طريقهم ولنعد الى حماد وما تم له مع سلمان

الفصل الحادي والعشرون

حماد وسلمان

تركنا حماداً وسلمان وقد خرجا من الدير وسلمان يفضل العدول عن ذلك الطريق لما خافه من مسيرة الزرقاء وحماد يحبب اليه المسير فيه خوفاً من طول المسافة اذا عدلا عنه

(١) ابن هشام

فلما رأى اصرار حماد اطاعه وسارا في أقرب الطرق ولكنه ظل خائفاً غائلة ذلك السبيل فعول على الاحتراس واتخاذ وسائل الوقاية فاوعز الى حماد فلبس درعه تحت أثوابه وسارا حتى امسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفته فما لبثا ان تناولا شيئاً من الزاد حتى تعاظمت هواجس سلمان وكأن نفسه حدثته بخطر قريب فاخذ يتجسس المكان قبل اشتداد الظلام . وكان حماد قد نزع عباءته وسلاحه وجعلهما الى جانبه على ضفة الغدير فلما نهض سلمان نهض حماد معه وقادا فرسيهما وراءهما وصعدا الى اكمة اطلا منها على السهل المحدق بهما وجعلا ينظران الى ما حولهما من السهول وفيها بعض الاكام تتراءى كأنها جماعات من الناس او اسراب من الوحوش فهالهما ذلك المنظر ثم سمعا زئيراً عن بعد فاجفل الجوادان واخذا يقصحان الارض بحوافرهما

فقال سلمان ها قد أحدق الخطر بنا وهذا ما كنت أتخوفه يا سيدي فهلم بنا الى النجاة . فقال حماد وماذا ينجينا . فالتفت فرأى شجرة فقال عليك بهذه الشجرة نتسلق اغصانها فان الاسد لا يقوى على الوثوب اليها . فاسرعا وقد نسي حماد سلاحه وعباءته فشدّا الجوادين اليها وتسلقا أغصانها والجوادان لا ينفكان عن الصهيل

ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتمسكا بالاغصان وهما يحاذران أن يراهما الاسد مع علمهما بامتناعهما عليه ثم رأيا دوائباً عنا كذا بالقرب منهما اما الجوادان فاجفلا وصهلا صهيلا طويلا ونفرا يريدان الفرار فانقطع زمام فرس حماد فطلب عرض الصحراء . واما فرس سلمان فلم يستطع التخلص قبل أن ظفر به الاسد فقبض على صدره بمخالبه فوقع الفرس الى الارض فهم به الاسد فزق عنقه بانيابه فسال دمه فاخذ ينهش لحمه

ثم وقف الاسد ونظر الى ما حوله فرأى عباءة سلمان فوثب عليها كأنه ظنها رجلا فزقها بين أنيابه ومخالبه أي ممزق وأخذ يمايل بعشيته المعهودة حول الشجرة وقد تنسم رائحة الرجلين في اعلاها مع عجزه عن ادراكهما فجعل يحك جلده بجذعها ويزأر اي زئير حتى مالت الشجرة بهما وخافا السقوط فتمسكا بالاغصان وثبتا في مكانيهما وقلباهما يخفقان خوفاً وحذراً

والاسد لا ينفك عن الزئير والخطران ذهاباً واياباً وعيناه تتلألآن في الظلام كأنهما سراجان منيران والفرس يخور خوار الثور حتى ملّ الاسد فزأر زأرة دوى لها ذلك السهل الواسع ورددت صداها تلك الآكام وأرسل ذنبه فوق ظهره وعاد من حيث اتى . فلبثا يراعيانه في مسيره وهو يخطر الهوينا متبختراً تيهاً وعجباً حتى واراه الظلام عنهما ولكنهما ما زالا يسمعان زئيره عن بعد وهما صامتان لا ينبسان ببنت شفة . فلما تحققا النجاة منه وهما لا يصدقان انهما نجوَا قال سلمان أرأيت يا سيدي ما كنت اخافه فنشكر الله الذي أنبت هذه الشجرة في هذه الصحراء لتكون سبباً لنجاتنا من الموت بين مخالب الاسد

فتحقق حماد عظم الخطر الذي نجوا منه ولكنه اسف لذهاب فرسه . فقضيا معظم الليل مستترين في تلك الشجرة يخافان الانحدار منها حتى انبلاج الصبح فنزلا ونظرا الى فرس سلمان فاذا هو مضرج بدمائه ولا حياة فيه . فقال سلمان هلم بنا نطلب عمان على أقدامنا وقد كان في طاقتنا أن نذهب اليها راكبين ولكن هذه ارادة المولى فنشكره لنجاتنا من مخالب الاسد وما خسرناه أنما هو متاع يسهل التعويض منه

فقال حماد أن الفرس عزيز عندي كما تعلم فهل تظننا نظفر به بعد

فقال دعنا والافراس فان منها شيئاً كثيراً حيثما حللنا فسر بنا حالاً لنقطع هذه المسبعة قبل أن يدركنا الظلام

فقال ولكنني اعزل وقد تركت السيف والرمح والعباءة على الغدير فهلم بنا للبحث عنها

فقال لا اراني قادراً على تعيين المكان الذي كنا فيه لان الطرق تشابهت عليّ وأخشى اذا اطلنا البحث ان تفوتنا الفرصة للنجاة وقد نجونا من الاسد مرتين فلا نأمن أن ننجو منه المرة الثالثة ونمشي على اقدامنا [illegible] بنا

فاطاعه حماد وسارا الى عمان فوصلاها واقاما فيها بقية الشهر المعين فلم يأت عبد الله فقضيا أسبوعاً آخر وهما على أحر من الجمر فلم يأت احد فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما نحو بصرى من طريق غير التي جاءا بها خوفاً من غائلة الاسود وهما في هواجس من [illegible] [illegible] يدبران وسيلة الدخول

بها المدينة أو ما جاورها ولا يعلم بهما ثعلبة أو احد من رجاله

أما حماد فكان بين هاجسين عظيمين هند من جهة وعبـد الله من جهة أخرى ولـكنه شكر الله لبقاء الدرع لانها تذكار ثمين عنده

فلندعهما في حيرتهما ولنذهب بالقارىء الى بصرى وما كان من أمر ثعلبة بعد أن تم له القبض على عبد الله وارساله مخفوراً الى بيت المقدس كما قد رأيت

الفصل الثاني والعشرون

عوامل الغيرة

تركنا ثعلبة بعد ذهاب عبد الله في بصرى وفي نفسه غلّ على هند لا يهنأ له بال الا بالايقاع بحماد فبث رجاله في ضواحي المدينة للبحث عنه فلم يقف له على خبر فانفذ نفراً من خاصته سراً يتجسسون حال عبد الله بعد ذهابه الى هرقل فانبأوه بما كان من عفو الامبراطور عنه ومسيره مع ابي سفيان ولكنهم لم يعرفوا عنه شيئاً بعد ذلك لانهم لم يتجرأوا على مرافقة القافلة خوفاً من انـكشاف امرهم

أما ثعلبة فانه اندفع بعوامل الغيرة على الانتقام من حماد وايقاع الاذى بهند وشعر بانعطاف اليها لا حباً بها بل رغبة منه في أن يحرمها من حبيبها وقد تكون تلك الغيرة سبباً للحب الحقيقي على ما نراه عادة في الناس – فقد يعاشر الشاب فتاة اعواماً لا يهمه من امرها شيئاً ولا يخطر له الاقتران بها وربما كان في نفسه ترفع عنها وهو يزعم انها لو عرضت عليه لا يرضاها فاذا آنس منها ميلا الى غيره أو رأى منـه ميولا اليها وخصوصاً اذا كان الحب متبادلا بينهما فان عوامل الغيرة تثور في قلبه ويتحول حبه الفاتر الى شغف شديد ولا يرتاح له بال الا بنيلها ولا يقتصر ذلك على هذا النوع من الحب ولـكنه يتناول سائر انواعه . فقد ترى عقاراً أو متاعاً معروضاً للبيع ولا يهمك ابتياعه فاذا رأيت الناس يقبلون عليه آنست في نفسك ميلا الى شرائه والظاهر ان ذلك غريزي

في الناس على اختلاف ادوار حياتهم فاذا أردت أن تعلم الطفل شيئاً لا يحبه ونفر منه فاذا تظاهرت باعطاء ذلك الشيء الى سواه رأيته يطلبه بلجاجة ويتناوله بلذة

فثعلبة لم يكن يهمه امر الزواج بهند ولا هو احبها حب الزواج الا بعد ما آنس من ميلها الى حماد فدفعته عوامل الغيرة الى الاقتران بها ولكن خبث فطرته جعل ذلك الميل مقروناً بالانتقام . ولما لم يجد سبيلا الى ذلك بالقوة عمد الى الحيلة فحدثته نفسه ان يشكوها الى والديها ويكشف لها ما كان من انفرادها بحماد في الدير ولكنه خاف ان تكون تلك الوشاية سبباً لغضب عمه حتى ينقلب عليه لعلمه بمنزلة هند عنده فربما صدقها وكذبه ورغب في حماد عنه . فلم ير سبيلا الى شفاء غله الا بخطبتها من ابيها وهو يعلم ان والدها لا يرده فلما عاد ابوه من بيت المقدس بسط له عزمه على الاقتران بها لما بينهما من رابطة القرابة فسرّ ابوه بذلك ووعده ان يخاطب جبلة في الامر

فركب ذات يوم الى البلقاء في موكبه وحاشيته فاستقبله جبلة بالتجلة والاكرام وان يكن في نفسه منه غيرة لاحرازه الوجاهة عليه لدى هرقل فلما التقيا ودار الحديث بينهما ذكر الحارث رغبته بمصاهرته فأبدى له ارتياحاً ووعده باتمام الامر قريباً وهو غافل عما تضمره هند من البغض لثعلبة والاشتغال بحب حماد

فلما رجع الحارث الى بصرى خلا جبلة بامرأته تلك الليلة وذكر لها حديث الحارث فلم يسمع منها ايجاباً ولا سلباً لعلمها بما في نفس ابنتها من الاحتقار لثعلبة ولكنها استمهلته ريثما تفاتح الفتاة وتطلع على رأيها وان تكن عاداتهم لا تبيح للبنات حق الاختيار في مثل هذا الشأن ولكن هنداً كانت متغلبة على عواطف والديها ولها نفوذ يؤذن بمراجعتها واستشارتها

الفصل الثالث والعشرون

هند وأمها

اما هند فقد تركناها ليلة الدير عائدة الى القصر وقد تمكنت من حب حماد والاعجاب بشهامته الى درجة لم تراعي معها حقوق الوالدية وخصوصاً بعد ما عاينته من ثعلبة وغدره ولكنها وصلت القصر وقلبها لا يزال مشيعاً حماداً في عودته وهي تدبر حيلة تتخلص بها من لوم والدتها على غيابها. فلما دخلت القصر رأت والدتها في قلق لغيابها فبادرتها بالعتب على تأخير الخادمة بالاساور. فقالت الوالدة اننا استحسنا الاساور وأعدنا الخادمة لتعجيل حضورك فادعت هند أنها انتظرت رجوعها حتى حالك الظلام فلما ابطأت استصحبت بعض خدمة الدير حتى اوصلها الى ذلك المكان. فاستغربت والدتها ذلك الاتفاق وجعلت تعتذر لها عما حملتها من المشقة وقالت لعل الخادمة سارت اليك من طريق غير الذي جئت به ولا تلبث ان تعود

فتظاهرت هند بالتعب وسارت الى غرفتها وهي غارقة في بحار الهواجس وقلبها واجس على حماد من غدر ثعلبة لما تعلمه من لؤمه وخيانته

فقضت تلك الليلة بمثل هذه الهواجس لم يغمض لها جفن الى قبيل الصباح فنامت قليلا فلما اصبحت جعلت تتنسم الاخبار ممن يذهب من خدمة صرح الغدير الى بصرى لابتياع حاجيات القصر

فما لبثت ان علمت بالقبض على عبد الله وفرار حماد وشكرت الله على نجاته ولكنها ظلت في خوف عليه وهي لا تستطيع سبيلا الى الوقوف على خبره فقضت بضعة ايام منقبضة النفس لا يلذ لها طعام ولا يهنأ لها عيش حتى ظهر اثر ذلك على وجهها ووالدتها تبالغ في تسليتها وتستغرب ما ألم بها وهند تعتذر بانحراف صحتها على اثر التعب من ليلة الدير

فجعلت تصطحبها في أثناء النهار الى ضواحي القصر تقضيان الساعات معاً في البساتين على ضفاف الغدير وهند لا تزداد الا انقباضاً وضعفاً حتى امتقع

لونها وقلّ طعامها فارتابت والدتها من أمرها وازدادت حنوّاً لها وميلا لاستطلاع حقيقة حالها فلم تجد الى ذلك سبيلا . وقد قدمنا ان سعدى كانت من الذكاء والفطنة على جانب عظيم فساءت في ابنتها الظن وخيل لها ان لذلك التغيير سبباً مهماً فعولت على اغتنام الفرص لكشف ذلك السبب فلما خاطبها زوجها بامر ثعلبة ورغبته في هند اتخذت الامر وسيلة لاستطلاع ما في ضميرها فدعتها ذات يوم للخروج معها الى الغدير على حدة فامرت بعض الخدم فاعدوا لها وسائل الراحة فخرجتا حتى أتتا ضفة الغدير وكان الجو صافياً والنسيم عليلاً والماء يجري امامها وكانت هند بلباس البيت وقد ضفرت شعرها ضفيرة واحدة أرسلتها على ظهرها وشدت عصابة حول رأسها كمن يشكو الصداع فقضت مسافة الطريق من القصر الى المكان المقصود تسير الهوينا صامتة تجر ذيل ردائها وراءها وتتشاغل تارة في رفعه عن الارض لئلا يعلق ببعض الاشواك النابتة في ذلك البستان وطوراً تلهو بالتأمل في ما يتطاير عن الاشجار من الطيور . فلما وصلت المكان اتكأت على وسادة من الحرير المزركش صنع دمشق فوق بساط ثمين تحت شجرة ظللتها ساعة العصر وكانت والدتها قد جمعت بعض الازهار في ضمة واحدة جاءت بها اليها فتناولتها وهي لا تتكلم فهمت بممازحتها فقالت اليك هذه الازهار فان لتقديمها معنى هل تفقهينه ؟

فتناولت هند الازهار وهي لا تفهم المراد

فقالت لها والدتها ما بالك لا تجيبيني على سؤالي

قالت اسأليني فأجيبك

قالت قد سألتك فاجيبت

قالت لم تسأليني ولا اجبتك

قالت بلى قد اجبت

قالت كيف ذلك وأنا لم افه بكلمة

قالت ان تناولك هذه الازهار من يدي جواب على سؤالي

قالت لم أفهم مرادك يا أماه فافصحي

قالت اضمرت في باطن سري وانا أقدم هذه الازهار اليك انك اذا قبلتها

من يدي كان اخذها جواباً على ما في ضميري

قالت مالي اراك تخاطبينني بالرموز فاني لم أقل شيئاً

قالت ما لنا وهذا فاني اسألك سؤالاً آخر فهل تصدقينني فيه

قالت قولي فاني طوع امرك

قالت أتحبين ابن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمه اجفلت وعلا وجهها الاحمرار ثم عقبه الاصفرار بغتة وظهر الانقباض عليه ولم تجب

فقالت والدتها قد وعدتِ بالجواب ولا اراك تجيبين

قالت اني لم أرَ مسوغاً لهذا السؤال ولم افهم مرادك منه وأنت تعلمين منزلة هذا الشاب عندي

قالت ما لنا والمزاح فاني اسألك سؤالاً صريحاً فارجو الجواب عليه صريحاً فهل تحبين ثعلبة . فتجلدت هند وتجاهلت قائلة أليس هو ابن عمي فأحبه محبة ابناء الاعمام وان يكن لا يستحق هذه المحبة

قالت ولكنني أسألك هل تحبينه محبة غير هذه . فادركت هند مغزى كلام والدتها فنفرت ولم تجب

فاقتربت سعدى منها حتى تحاك جنباهما وقالت ما بالك لا تجيبينني فان والدك كلفني بالسؤال عن ذلك فماذا أجيبه

فسكتت هند ولبثت برهة تفكر في مراد أمها فتوسمت من وراء هذا الكلام شيئاً قرأته على ملامح وجهها ولكنها تجاهلت وأظهرت عدم الاكتراث فظلت منكسة تنظر الى والدتها شذراً كأنها تقول لها كفي المزاح في الموضوع

فكررت والدتها السؤال بهذا المعنى فاعتدلت هند في مجلسها ونظرت الى والدتها والاستغراب ظاهر على وجهها وقالت افصحي يا أماه فان لسؤالك معنى انقبضت له نفسي هل تعنين بحبي لهذا النذل السافل غير الحب الذي أوجدته القرابة رغم ارادتي

فتبينت والدتها ما في قلب هند من الحقد على ثعلبة وكانت قد لاحظت

منها ذلك قبلا فأرادت المغالبة في التجاهل حتى تستطلع افكارها فقالت لا تسارعي الى الطعن في ابن عمك فانه سيكون اليك اقرب من ذلك

فنفرت هند حتى وقعت الازهار من يدها ونظرت الى والدتها نظرة العتب وقالت لها أرجو ان لا أسمع منك يا أماه ما يكدر عواطفي فاني لا أرى مسوغاً لتكديري بهذه الالغاز فليس لثعلبة وطر عندي ولا هو ممن يطمع بقرابة فوق هذه فوحبك لو استطعت التبرؤ منه لفعلت وأنت أعلم الناس بمنزلته عندي وأظنك أقدر مني على الجواب عن هذا السؤال . . . أم انت تمازحينني ؟

قالت بل أقول الجد فان عمك الحارث خاطب والدك بشأنك فماذا تجيبه

فالتفتت هند الى والدتها باستخفاف كأنها تقول لا أصدق ما تقولين

فاجابتها بملامح عينيها وابتسامها انها تريد الجدّ وقالت لا بل اني أسألك سؤالا صريحاً هل تحبين ثعلبة

فنهضت هند عند ذلك وتظاهرت بجمع الازهار التي كانت قد وقعت من يدها وازدادت امتقاعاً وظنت سكوتها جواباً كافياً . وظنها في محله لكن سعدى كانت تبالغ في التجاهل لعل الحديث يجرها الى معرفة سبب انقباض ابنتها بعد ليلة الدير فقالت لها ما بالي أخاطبك فتتشاغلين عن جوابي ألعل خطابي لا يستحق الجواب عندك

فترامت هند على صدر والدتها بدالة الوالدية وقبلت يدها وقد خجلت لهذا التوبيخ وقالت حاشا لي ان افعل ذلك يا أماه ولكنني أعجب لسؤالك واصرارك على طلب الجواب وأنت تعلمين اني اريد التبرؤ من القرابة القديمة فهل أجر عليّ عيباً آخر . . فليس لثعلبة وطر عندي

فقالت أظنك شغلت عنه بغيره . قالت ذلك وتظاهرت بالمزاح ولكنها آنست في وجه هند تغيراً سريعاً فعلاه الاحمرار بغتة وسكتت

فقالت سعدى ما بالك لا تجيبينني وأرى وجهك يتكلم وعيناك تعترفان فما بال لسانك لا ينطق

فتذكرت هند حبيبها واشتغالها به عن كل شيء وتصورت ما أتاه ثعلبة من الاذى له فاشتد بها الامر حتى ترقرقت الدموع في عينيها فحولت وجهها عن

والدتها اخفاء لما كان يظهر من عواطفها وتشاغلت بمراقبة غزال نافر رأته يشب على التلال عن بعد وظلت صامتة ويكاد الدمع يتناثر من عينيها

فازدادت والدتها ارتياباً من شأنها وقالت في نفسها هذه هي الفرصة المناسبة لكشف المخبأ فقالت لها ما بالك تحولين وجهك عني يا هند ألعلك تخفين شيئاً

فظلت هند ملتفتة وتمنت ان تكون في خلوة لتطلق لدموعها العنان

فأمسكتها والدتها بيدها وحاولت تحويل وجهها نحوها فأفلتت هند وغطت وجهها بكمها لئلا يظهر بكاؤها فتحققت سعدى ان هنداً تبكي فكاد قلبها ينفطر عليها فقالت ما بالك ياهند ما الذي يبكيك ألعلي أصبت ظني وهل انت تخفين شيئاً عني

فاوغلت هند في البكاء وهي تحاذر ان تسمع والدتها شهيقها حتى بللت كمها ولم تستطع التسلط على عواطفها . فتحققت سعدى ان هنداً قد وقعت في الشراك وان قلبها في شاغل ولكنها لم تفقه حقيقة الحال فحاولت استطلاع السرّ فقالت اذن انت في شاغل عن ثعلبة

فظلت هند صامتة خجلاً وقد سترت وجهها بكمها بين يديها

فسكتت سعدى وأخذت تفكر في من عسى ان يكون ذلك الشاغل وخافت ان تلح على ابنتها بالسؤال فيزيدها خجلاً فلا تعترف لها بالواقع

فمضت بضع دقائق وهما صامتتان وأخيراً تظاهرت سعدى بالجدّ ونادت هند قائلة . أما وقد ظهر منك ما ظهر فلم يعد ثم داع الى الاخفاء فقد تحقق لديّ انك في شاغل ذي بال فافصحي يا ابنتي وقولي ما في ضميرك فاني والدتك وانت تعلمين حبي لك فاجعليني مكان سرك واتخذيني صديقة لا والدة واطلعيني على مكنونات قلبك فنحن في خلوة لا يرانا احد وقد قضيت اياماً افكر في ما غيرك وقبض نفسك وانت تخفين عني حقيقة حالك . اما ابن عمك ثعلبة فانه لن ينال منك شعرة وانا اعلم الناس به وهبي ان والدك رضي به فانا لا ارضاه لك

ثم همت بها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهند تبالغ في تغطية وجهها حياء.

فقالت لها سعدى افصحي يا ابنتي واخبريني فقد نفد صبري قولي ما في نفسك

فاني معينة لك على المراد

فلما سمعت هند كلام والدتها رفعت رأسها من بين يديها فنظرت الى والدتها بعينين قد اذبلتهما الدموع وغيرها الهيام وحاولت الكلام فمنعها الحياء فأعادت وجهها الى ما بين يديها والقت نفسها على صدر والدتها وقد أخذ الهيام منها مأخذاً عظيما

فرفعت سعدى رأس هند بين ذراعيها وقالت قولي يا ولداه لا تخافي لاننا في خلوة لا يرانا احد هل تحبين أحداً

فتنهدت هند تنهداً عميقاً ولم تجب فأخذت والدتها التنهد جواباً كافياً فقالت ومن ذا الذي تمكن حبه منك حتى تسلط على قلبك ونحن نحسبك أثبت جأشاً من الرجال وما عهدي بك مسترسلة لعواطفك الى هذا الحد

فأطرقت هند وقالت لا بأس بي ولا انا احب احداً ولكنني أحب التخلص من هذا العالم فاني تعسة قد كتب عليّ العذاب من يوم ولدت. قالت ذلك وعادت الى البكاء

فانصدع قلب والدتها لذلك وجعلت تقبلها وتضمها الى صدرها وتقول ما هذا الكلام يا هند الملك يئسة ممن تحبين

فنبذت هند الحياء عند ذلك وقالت نعم يا اماه أني يئسة فابكي على ابنتك واندبيها لأنها تعسة شقية . فتحققت سعدى ظنها فأرادت معرفة الباقي

فقالت وما سبب تعاستك وانت فتاة غسان وزهرة هذه البلاد والناس يتحدثون بمقلتك ويحسدك اترابك على مقامك

فقالت على اي شيء يحسدونني وازدادت بكاء ولسان حالها يقول :

هم يحسدونني على موتي فوا أسفي حتى على الموت لا أخلو من الحسد

فازدادت سعدى تحرقاً وتساقط الدمع من عينيها وهي تحاول التجلد خوفاً على هند وقد ادركت انها عالقة بحب رجل لا سبيل لها اليه فقالت لها لا تذكري التعاسة وأنت الأميرة الناهية ولا تخشي بأساً وانا الآخذة بيدك العاملة على رضاك فافصحي عن ضميرك فقد كفانا بكاء واعلمي ان ثعلبة سيرتد خائباً ولو كان مستهلكاً في هواك

فخرقت هند اسنانها عند ذكر ثعلبة وقالت ان الشر كله من هذا الخائن وهو وحده سبب هذا الشقاء وهل تظنين انه رغب في خطبتي من عظم حبه لي ؟

قالت وكيف اذن

قالت انه فعل ذلك انتقاماً من ذلك الشهم الذي أبقى على حياته كرماً وانفة

فتذكرت سعدى حكاية السبق وما كان من شهامة حماد واحست كأن غشاوة انقشعت عن عينيها فأيقنت ان الفتاة مغرمة بحماد فبغتت ولم تبـد جواباً لعلمها ان الرجل غريب من تلك الديار وكانت قد سمعت بفراره والقبض على والده بتهمة الجاسوسية فوقعت في حيرة على انها لم تنفر من ذكر هذا الشاب في عرض الحديث بل كانت ترتاح الى ذكره والتحدث عنـه لما ظهر لها من شهامته وكرم اخلاقه ولـكنها استغربت وقوع هند في هواه مع انفتها وعلمها بغموض حسبه وعدم سنوح الفرصة لها للاجتماع به وحسبت وقوع ذلك من قبيل التقادير الالهية

فنظرت هند اليها لتستطلع ما يظهر منها بعد هذا التلميح فلما رأتها صامتة قالت ألم اقل لكِ اني تعسة فها ان مجرد الاشارة الى سبب بلائي اضاع حنوك وألقاك في حيرة

فقالت كلا يا حبيبتي فقد وعدتك بالانتصار لك ولا أزال على الوعد ولـكن الخبر جاءني على حين غفلة فبغت له فهل أنت تحبين ذلك الشاب ؟ انه بالحقيقة شهم كريم النفس وأنت تعلمين منزلته عندي من يوم السباق

فسكتت هند وكان سكوتها جواباً صريحاً

فعادت سعدى الى استغرابها واستعظمت زفاف ابنتها الى رجل لا يعرف له حسب ولا نسب فضلاً عن اتهامه بالجاسوسية والقبض على والده وغضب الحارث وثعلبة عليه فلاح لها أن بقاء هند على عزمها سيكون سبباً للنفور بين زوجها وابن عمه ولـكنها لم تستطع مكاشفة هند بذلك خوفاً عليها من سلطان الغرام بعد ما عاينت من شغفها وشدة تعلقها بحماد فعمدت الى الملاينة فسايرتها في مجرى عواطفها ريثما ترى ما يكون من أمر ثعلبة وقبضه على حماد فقالت لابنتها ان

حماداً أهل لحبك ولـكن كيف بلغت الى هـذه الدرجة من الحب والرجل غريب عنا

فقطعت هند الكلام وقالت ألم اقل لكِ اني صائرة الى الهلاك لاني علمت ما يخامر ذهنك ولـكن ما الفائدة من كل ذلك وحماد في مكان لا نعرفه ولعله ذهب فريسة غدر ذلك اللئيم قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقالت والدتها لا تجزعي يا هند ان الله على الباغي ولكنني أستغرب تعمد ثعلبة الايقاع بهذا الشاب وليس بينهما علاقة

قالت هو الحسد والغيرة ولؤم الطبع فوالله ان هذا الخائن لا يساوي قدة من نعل حماد قالت ذلك وهي تشرق بدموعها

فأخذت سعدى تخفف عنها وتطيب قلبها حتى سكن روعها فأحبت الاطلاع على تاريخ ذلك الحب وكيفية وقوعه . فقالت لها كيف تسلمين قلبك الى رجل لا تعرفين حسبه ولا نسبه وأنت في ما نعلمه من تعقلك ودقة نظرك وحسن رويتك

قالت انه حسيب نسيب وسيماه في وجهه

فقالت ان الوجوه لا تدل على الاحساب يا ولدي

فقالت قد علمت انه من امراء العراق وهذا يكفي وهبي انه اقل من ذلك فقد تسلط على عواطفي بقوة من الله تمجد اسمه فها قد اطلعتك على مكنونات قلبي . قالت ذلك وأطرقت حياء وقلبها يرقص فرحاً لما آنسته من مجاراة والدتها ووعدها بالمساعدة

قالت سعدي وكيف عرفت حسبه

فانتبهت هند لما ارتكبته من الكذب في ذهابها الى دير بحيراء فهمت بيد والدتها وجعلت تقبلها وتقول اصفحي عن زلتي فقد ارتكبت ذنباً يوجب غضبك

فقالت وماذا تعنين

فأحكت لها حكاية دير بحيراء واعترفت بكل ما دار بينها وبين حماد باختصار وحشمة وهي تطرق تارة وتبتسم أخرى ووالدتها مصغية تتطاول بعنقها حتى أتت على آخر الحكاية فاحست كأنها أفاقت من غفلة فسارتها وطمأنت قلبها ولـكنها صبرتها لتدبر وسيلة لا تشين شرفها أو شرف عائلتها

فاطمأن بال هند من قبيل رضاء والدتها ولكنها ما زالت قلقة لفرار حماد بل صارت بعد ما آنسته من تلك الملاطفة اكثر قلقاً عليه لان خوفها من المعارضة كان شاغلاً لها عن التفكر بما وقع فيه حماد من الخطر فلما فرغت من ذلك الخوف تعاظم قلقها . وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب وهما لا تعلمان لو لم تريا الرعاة عائدين بالماشية من المراعي الى الزرائب بالقرب من الصرح فهمّتا بالنهوض ومشتا الهوينا وكل منهما في شاغل فكانت هند في هاجس عظيم على حماد وما هو فيه وهمها كثيراً البحث عنه فرأت أن تغتنم تلك الفرصة للاستعانة بوالدتها على ذلك فدنت منها واسندت يدها على كتفها وهما ماشيتان وخاطبتها بدالة البنوّة قائلة ما الحيلة يا أماه لكف سعاية ثعلبة عن حماد أيحل في شرع الله أن يذهب هذا الشهم فريسة الحسد والغدر

قالت خفّفي عنك يا ولدي وكوني مطمئنة فاني كافلة نجاته باذن الله ولا بد من الصبر والتؤدة لنرى ماذا تم من امر حماد وفراره

قالت ذلك وهي ترتاب ببقائه حياً وكانت تحدثها نفسها باعظام عمل ابنتها وتنازلها الى حب رجل غريب وعدت نفسها مخطئة بمسايرتها في ذلك ولكن ضعف املها ببقاء حماد في قيد الحياة كان يهون عليها ذلك فبالغت في طمأنتها حتى وصلتا الى صرح الغدير وقضتا بعض تلك الليلة في مثل هذه الاحاديث. وفي الصباح التالي بدأت سعدى تشتغل باستطلاع خبر حماد فعلمت بعد ايام ان هرقل عفا عن عبد الله وامر له بكتاب الامان فاخبرت هنداً بذلك فاطمأن قلبها لعلمها انه انما فرَّ خوفاً من ثعلبة واتهامه بالجاسوسية فغدت تترقب من يعلمها بمقر حماد لتبلغه ذلك فلم تجد اليه سبيلاً . فلما طال غيابه زاد قلقها عليه فصبرت نفسها تنتظر ما يأتي به القدر وهي تنذر النذور سراً لدير بحيراء

الفصل الرابع والعشرون

منادي دير نجران

فبما هي ذات يوم جالسة في غرفتها تفكر في امره سمعت منادياً بجوار القصر يقول « من نذر نذراً لنجران المبارك » [١] فاطلت من النافذة فرأت فارساً مزملاً بعباءة وعلى رأسه قلنسوة الرهبان وفي يده صليب من الفضة فعلمت أنه منادي دير بحيراء يطوف البلاد والقرى يجمع النذور على جاري عادته في كل عام

فلما سمعت اسم ذلك الدير هاجت عواطفها وتذكرت حبيبها وما دار بينها وبينه هناك فتوسمت في ذلك المنادي خيراً لعلمها أنه كثير التجوال فأحبت محادثته لعلها تستطلع منه خبراً سمعه عن حماد اثناء تجواله فأمرت بعض الخدم أن يستقدمه ففعل فتحول الرجل ودخل القصر حاملاً خرجاً فجاء به الى هند فحياها تحية الملوك وناولها الصليب فقبلته وقبلت يده وقدمت له وسادة جلس عليها ووضع الخرج الى جانبه

وكانت أمها في شاغل ببعض مهام القصر وليس في الغرفة سوى هند فتأملت وجه الرجل فاذا هو غير الراهب الذي كان يمر بهم عادة فخافت أن يكون قد جاء بحيلة للسرقة أو نحوها فسألته اذا كان يريد الذهاب الى قاعة الطعام فأثنى على كرم الغسانيين واعتذر أنه لا يحتاج الى طعام

فقالت من اين أتيت يا حضرة الاب

قال اتيت من تجوالي في جهات البلقاء اجمع النذور

فقالت هل جمعت شيئاً كثيراً

قال نعم يا سيدتي ان المسيحيين في هذا العام اكثروا من النذور حتى

---

(١) معجم ياقوت (ونجران اسم من اسماء دير بحيراء)

ملأت خرجي هذا من خيراتهم وتناول الخرج بيده وهزه فسمعت له صوتاً يشبه صليل الحديد

فقالت ما هي انواع النذور التي جمعتها هذا العام اني اسمع لها صليلاً

قال ان في خرجي هذا نذوراً كثيرة لم يدخل دير بحيراء مثلها منذ عمر حتى العام. قال ذلك وتبسم فارتابت هند بقوله وادركت ان وراء تبسمه معنى خفياً

فقالت وكيف تأتى لك ذلك والنذور تحمل الى هذا الدير ذهباً وفضة وحجارة كريمة من اقاصي البلاد

قال لم اخرج لهذه المهمة الا في هذا العام فجئت بالعجائب والغرائب

فرأت في كلامه لهجة غريبة فلم تستغرب ذلك لعلمها ان الرهبان في دير بحيراء اخلاط من امم كثيرة ولغات شتى ولكنها ازدادت شبهة في مغزى كلامه

فقالت وما هي الغرائب التي اتفقت لك دون سواك

قال جئت الدير بنذر لم يسبق له مثيل لا لغلاء ثمنه بل لغرابته. قال ذلك وحل رباط الخرج ومد يده اليه وحاول اخراج ما فيه فسمعت صليلا كصليل الدرع فتذكرت درع حماد فاختلج قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار فقالت هات ما عندك فاستخرج يده وفيها قطعة من درع لم يقع نظر هند عليها حتى امتقع لونها وغلبت عليها البغتة لما آنست من المشابهة بينها وبين درع حماد فتناولتها وتأملتها فاذ هي هي بعينها فالتفتت الى الراهب فرأته يتغافل عنها ولكنها قرأت على وجهه سرًّا يحاول اخفاءه والابتسام يكاد يظهره فابتدرته قائلة من اين اتتك هذه الدرع ومن هو الذي اعطاكها

قال اعطانيها صاحبها

فقالت هل تعرف مكانه فانها مسروقة من عندنا

فالتفت اليها قائلا لا اظن صاحبها سارقاً بل هو رجل امين وقد ابتاعها بثمن غال جداً

فقالت ربما كان ذلك كما تقول ولكنني اعلم ان هذه الدرع كانت عندنا فلا بد لي من رؤية الذي اعطاكها فهل هو قريب من هذا المكان

قال هو قريب جداً واذا صدق ظني فهو في أقرب مكان منك وانت تعلمين انه ليس سارقاً

فادركت انه يلغز بحماد وانه عالم بشيء مما بينهما فتجاهلت ولكن الحياء والبغتة غلبا عليها فقالت ما تعني بهذا الكلام أراك تقول جزافاً

قال كلا ياسيدتي اني اتكلم عن ثقة ولكنك تتجاهلين والحقيقة ظاهرة على وجهك

فتحققت عند ذلك انه رسول من حماد ولكن سوء الظن سبق الى ذهنها مخافة ان يكون قادماً بدسيسة من ثعلبة فتجاهلت ايضاً وقالت اراك تقول كلاماً لا افهمه او لعلك مخطىء في ظنك

قال لست مخطئاً لاني اتكلم عن ثقة وان شككت بمقالي سلي الاساور تصدقك الخبر

فقالت واي الاساور تعني

قال الاساور التي بيعت هذه الدرع بها واذا بالغت في التجاهل جئتك بتاجر الحلي عينه

فايقنت عند ذلك انه رسول حماد اليها وحدثتها نفسها ان تسأله عنه صريحاً ولكنها تجلدت ريثما تخبر والدتها بذلك فنهضت للحال ولم تفه بكلمة وسارت الى غرفة والدتها وخلت بها واخبرتها بما كان فقالت اخشى ان يكون الرجل جاسوساً من ثعلبة فلا تبوحي له بشيء قبل ان نتحقق رسالته

فجاءت سعدى وهند تتبعها فلما دنت من الراهب وقف لها وحياها فتظاهرت بالجفاء قائلة . ألعلك قادم من دير بحيراء الآن

قال كلا ياسيدتي بل انا آت من البلقاء

قالت أرني الدرع فأراها اياها فتحققت انها الدرع التي نالها حماد جائزة سبقة يوم السباق فتناولتها من يده وقالت له ان هذه الدرع مأخوذة من عندنا ولعلها مسروقة فهل تعرف الذي اعطاك اياها

فتبسم الراهب تبسماً مازجه ريب وقال اظنني امرءه

فقالت واين تركته

قال تركته في بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر

قالت هل هو مقيم هناك أم راحل

قال هو مقيم ينتظر عودتي

قالت (وقد استغربت ذلك) وماذا يتوقع من رجوعك وانت تقول انه دفع اليك هذه الدرع نذراً نذره الى الدير فما معنى رجوعك اليه اني أرى في كلامك تناقضاً

قال لا مناقضة في ما اقول لان صاحب هذه الدرع شرط في نذره انها لا تكون نذراً الا بعد ان أعود اليه بخبر عن امر يهمه قال ذلك وهو ينظر الى هند بطرف عينه كأنه ينتظر اشارة منها فآنس في وجهها اشراقاً فتبسم واومأ بجفنه نحو والدتها كأنه يقول هل ابوح بالسر أمامها

فتحققت هند ان الرجل مرسل من حماد اليها ولكنها تجلدت ولم تجبه فجلس والدرع في يده ينتظر ما تأمر به هند

اما هي فاومأت الى والدتها وخرجتا معاً وتركتا الراهب في الغرفة فلما خلتا قالت هند وقلبها يرقص فرحاً لا ريب عندي يا أماه ان الرجل رسول من حماد ويظهر من اساليب كلامه انه آت ببشرى خير ولكنه لم يتجرأ على التصريح بذلك امامك لظنه انك لا تعلمين بما بيني وبين حماد ولا ريب عندي باخلاصه فاسمحي لي بمخاطبته صريحاً فنسمع منه الخبر الصحيح فاجابتها والدتها الى ما ارادت فجلستا في غرفة منفردة وارسلتا الى الراهب فجاءها والخرج على ذراعه فلما جلس قالت له سعدى عزمت عليك ان تخبرنا بحقيقة حالك ومن هو صاحب هذا الدرع — وكان لعزمة الامراء عند العرب حق ان تطاع فنظر الراهب الى هند كانه يستشيرها في الجواب . فقالت له قل ولا تخف

فمد يده الى الخرج واستخرج الخوذة وقال اذا كنت لا تعرفين الذي البسته هذه الخوذة بيدك فمن العبث ان اخبرك عنه

فخفق قلب هند وعلا وجهها الاحمرار وقالت نعم نعرفه فقل انت ما اسمه

قال اسمه حماد يا سيدتي . فابرقت اسرة الفتاة اي ابراق ولولا حجاب التعقل والرزانة لرقصت طرباً لذكره ولكنها امسكت نفسها فاكتفى الرجل بما قرأه في عينيها من آيات البشر فشاركها في ذلك وانتظر جوابها فقالت له صدقت هو حماد فاين هو الآن

قال هو في خلوة لا يجسر على القدوم الى هذه الديار لاسباب لا يجهلها عامة غسان فضلاً عن خاصتهم

فقالت سعدى قل لنا اذن من انت فاني لا اظنك راهباً فرفع القلنسوة من رأسه وقال لا اظنكما تعرفاني ولكنني اعرفكما بنفسي فاني عبدكما سلمان خادم سيدي الامير حماد

فاستأنستا به كثيراً واخذت هند تسأله عن حال حماد وما مر به فقص عليها الخبر منذ خروجهما فراراً من غسان الى ان نجوا من الاسد وسارا الى عمان وعادا منها الى ان قال وقد جئت متنكراً بهذا اللباس وتركت سيدي حماداً في بعض القرى في قلق شديد على والده وفي شوق ولهفة لمولاتي (واشار الى هند)

فقالت سعدى ألم يبلغكما خبر سيدك الامير عبد الله بعد

قال (وقد حملق عينيه ومال بكليته لاستماع خبره) كلا يا سيدتي فما هو خبره

قالت قد علمنا ان الامبراطور هرقل عفا عنه وأمر بصرفه مصحوباً بكتاب الامان

فانبسط وجه سلمان عند سماعه الخبر وود لو يكون طيراً فيسرع الى حماد يبشره بذلك ولكنه استشار سعدى في الامر فقالت ارى أن تسرع الى مولاك بالخبر وتطمئنه عن هند وقل له ان والدتها تهديك السلام . ولكن احذر أن يعلم أحد في الارض انك جئت هذا المكان أو نطقت بهذا الكلام فليبحث هو عن والده وستتصل الاخبار بيننا عند الحاجة على مقتضى الاحوال وليكن هو مطمئن البال والايام بيننا . وكانت هند تسمع كلام والدتها فلا تبدي ملاحظة ولم تكتف بهذه المواعيد البعيدة . بل كانت تود أن تضرب اجلا للقاء ولكن الحشمة امسكتها عن الكلام اما سلمان فسر كثيراً لما آنسه في سعدى من الرضاء

عن حماد ولكنه رأى قولها مختصراً مقتضباً لا يشفي غليلاً على انه اقتنع بما لقيه وما سمعه فلبس قلنسوته وودعهما وخرج الى فرسه وسار قاصداً حماداً . اما سعدى فلما تحققت بقاء حماد حياً ورأت هنداً قد انتعشت قواها وزال امتقاع لونها الذي كان السبب الاول في تحريك حنوها حتى سايرتها في ما دار بينهما بشأن حماد مع ما كانت تظنه من موته وانقطاع خبره — فلما تحققت بقاؤه تمثل لها الامر مجسماً وندمت على ما فرط منها من مجاراة هند بشأن حبها حماداً على غموض حسبه مع ما تخشاه من ايقاظ الفتنة بين زوجها والحارث اذا منعت ثعلبة من ابنتها . ثم تذكرت غدر ثعلبة وكره هند له فصوبت ردها طلبه ولكنها أحست بصعوبة ذلك فلبثت برهة صامتة تفكر في الامر وهند تتأمل في ملامح وجهها وتنتظر ما يبدو منها . فلما طال سكوتها توسمت فيها التردد فانقبضت نفسها وعادت هواجسها اليها فتركت والدتها وسارت الى غرفتها والقت نفسها على السرير حزينة تراجع في ذهنها حكاية سلمان وما قالت والدتها له فلم ترَ في قولها ما يشفي غليلاً فاحست ان والدتها انما كانت تسايرها ظاهراً فعظم عليها الامر

وفيما هند في ذلك جاءت والدتها وكانت منقبضة النفس فرأت الدموع تتلألأ في عيني ابنتها فهاج حنوها ونسيت هواجسها ودنت منها وهي تبتسم واخفت ما في نفسها وهند تنظر الى وجهها لعلها تستطلع شيئاً جديداً . فلما رأتها تبتسم اطمأن خاطرها ولكنها أدركت انها انما فعلت ذلك حنواً فعمدت الى اثارة شفقتها التماساً لمساعدتها فتظاهرت بالغضب دلالاً وتيهاً وأطرقت هنيهة لا تتكلم

فقالت سعدى ما لي أرى الهواجس قد عادت اليك ألم يكفك ما سمعته عن حماد فلم تجب

فازدادت سعدى حنواً والقت يدها على كتف ابنتها وقالت لها ما بالك ساكتة يا هند ألم تشكري الله على انعامه

قالت شكرته كثيراً ولكنني اراه لم يأذن بانقضاء زمن تعاستي لاني لم اكد

اسمع ما سرني حتى رأيت ما كدرني

قالت وما الذي يكدرك بعد ذلك

قالت يكدرني أن أرى حبل المساعدة كاد ينقطع

قالت وماذا تعنين بذلك

قالت اعني ما أقرأه على وجهك من آيات التردد ولا لوم عليك فقد عاملتني بما أستحقه . قالت ذلك وقد وقفت تتشاغل بحل ضفيرتها وعقصها أمام المرآة فرافقتها سعدى وهي تنظر اليها وتتوقع منها ابتساماً فرأتها لا تزال منقبضة نخافت أن تعود الى حالها من الضعف فهان عليها كل ما تريده وصممت على مساعدتها فعلاً فتظاهرت بالاستغراب وهمت بها فقبلتها وضمتها الى صدرها قائلة أنزعي عنك الظنون يا هنـد فاني على ما تريدين ولسوف ترين مني ما يسرك

فانتعشت هند لما سمعته ولـكنها تظاهرت بانكار ذلك وقالت يكفيني املاً بلا عمل فاني اراك تسخرين بي

فضحكت سعدى حتى قهقهت وأظهرت المزاح وهي تقول ذلك خلق المحبين فانهم لا يستقرون على حال

فنظرت هند اليها شذراً وشعرها لا يزال محلولاً واصابعها تتخلله . فلما رأت والدتها تضحك انبسط وجهها وعادت اليهـا الآمال فتبسمت ولـكنها حولت وجهها نحو المرآة وتشاغلت بضفر شعرها

فمدت سعدى يدها الى الضفيرة وتناولتها وقالت وهي تتم ضفرها عنها دعينا من ضفر الشعور فانا في ما هو ادعى الى الاهتمام

فقالت هند لا ارى الاهتمام بشيء آخر الا عبثاً

قالت أمن العبث أن نتخلص من مطالب ثعلبة ؟

فلما سمعت اسمه نفرت وانقبض قلبها ولـكنها توسمت باباً للفرج فقالت يا حبذا ذلك لو صح

وكانت سعدى قد فرغت من ضفر الشعر فامسكتها بيدها وأجلستها الى السرير ونظرت اليها نظرة فهمت هند منها أنها تريد الجد فأصغت اليها فقالت

دعينا من الهواجس يا هند ولنبحث في الامر بالتروي

فقالت قولي ما تريدين واذكري وعدك

قالت ما أقول الا ما يرضيك ولكنني أعلم انك عاقلة ورزينة ولا اظنك ترتابين من حبي لك وانعطاف والدك نحوك واذا أتينا أمراً ساءك أو سرك انما نأتيه التماساً لراحتك

فخافت هند ان يكون وراء هذه المقدمات نصيحة تمنعها من حماد فلبثت صامتة وقلبها يخفق في انتظار اتمام الحديث

فقالت سعدى لا يسعني الاغضاء عن اهمالك البحث عن أصل حماد وفضله فان الحب يعمي ويصم فأتقدم اليك أن تستجمعي رشدك وتسألي عقلك هل هو مساعد لك على ما رضيه قلبك !

قالت نعم يا أماه اني في كمال عقلي ولا أرى في عملي هذا خطأ . ولا ريب عندي اذا خاطبت حماداً واستطلعت اخلاقه واطواره انك ترين فيه مثل ما رأيته أنا فهو شاب كامل الصفات كريم الاخلاق ولا بد من أن يكون ذا حسب ونسب فاذا لم يكن ملكاً أرضياً فهو ملاك سماوي ولا أقل من أن يكون اميراً . وفضلاً عن ذلك ان ما شهدناه من شهامته وكرم أخلاقه يؤهله لمصاهرة والدي وقد قيل المرء باصغريه لا ببرديه فهي انه غير حسيب فهو لا ريب شهم كريم . قالت ذلك وعلامات الهيام ظاهرة على وجهها تخالطها ملامح الخجل

فقالت سعدى اذا كان الامر على ما تقولين فاني أهنئك بهذا النصيب ولكننا يجب أن نتدبر الامر بالحكمة حتى لا ينجم عن عملنا ما يضر بمصلحة والدك أو يأول الى حرب وأنت تعلمين علاقته بابن عمه الحارث وما بينهما من المنافسة المموهة بالمجاملة فنخشى أن يأول عملنا هذا الى حرب تتقد نارها وتسفك الدماء من أجلها

فقالت اتريدين اذن أن ارضى بثعلبة و ...

فقطعت سعدى كلامها قائلة كلا لا أريد ذلك ولا ارضاه ولكنني أريد أن لا تستعجلي في الامر فان في العجلة ندامة

قالت وماذا أفعل اذن

قالت اتركي تدبير ذلك اليّ على ما تقتضيه الاحوال ولا ريب عندي انك ستنالين مناك على اهون سبيل

قالت ها أني قد القيت حملي عليك وجعلت قيادي في يديك فافعلي ما تريدين. فقبلتها سعدى وطمأنتها وسارت الى غرفتها

الفصل الخامس والعشرون

التفتيش عن عبد الله

أما سلمان فعاد الى حماد وكان في مأمن خفي ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما لقيه استطلعه الخبر فاجابه وأمارات الانبساط ظاهرة على وجهه وبشره بالعفو عن والده وبقاء هند على حبها ورضاه والدتها بذلك فلم يكن يوم اسعد على حماد من ذلك اليوم فابرقت اسرته وتمثلت له السعادة خادماً مطيعاً وقضى بقية يومه يردد حديث سلمان عن هند وما ينطوي تحت كلام والدتها لكنه ما لبث أن عاد الى ذكرى والده وقد خاف عليه طول الغياب فاستشار حماداً في امره فقال ارى أن نبحث أولاً عنه فاذا التقينا به تركنا تدبير ذلك اليه

فقال حماد أنسير الى بصرى متنكرين

قال لا خوف علينا بعد ما صدر من العفو ولكن ثعلبة ثعلب لا يركن اليه فامكث أنت هنا ودعني اسير وحدي الى منزلنا في غسان ومتى وصلت المكان علمت حقيقة الخبر

فقال وكيف تعلمه

قال أني ذاهب للبحث عن الخبأة التي تركناها بجوار منزلنا لا يعلم بها احد سوانا فاذا لم اجدها علمت ان سيدي اخذها فنعلم انه عاد من سفرته فنبحث عنه في بصرى وجوارها والا فنعلم انه لم يعد بعد فاسير الى بيت المقدس للتفتيش عنه

فاستحسن حماد الرأي فباتوا ليلتهم ولما اصبحوا ركب سلمان وهو بلباس

الرهبان وترك حماداً في منزل رجل من بقايا الانباط الذين كانوا يقيمون في جنوبي البلقاء وكان الانباط في الزمن القديم امة عظيمة ذات عز ومجد وكانوا واسطة عقد التجارة بين مصر والشام والعراق وبلاد العرب يقيمون شرقي العقبة بين مصر والشام وبلاد العرب ولا تزال بعض آثارهم باقية حتى الان في ما يسمى باترا او بارة ويغلب على الظن ان أصلهم من انباط ما بين النهرين . وما زالت دولتهم قائمة حتى غلبهم الرومانيون في اوائل القرن الثاني للميلاد فتشتت شملهم وتفرقوا في البلاد واختلطوا بقبائل العرب الاخرى . ومن طرق معائشهم التنجيم وقد حملوه معهم من بين النهرين (١)

وكان صاحب المنزل المشار اليه طاعناً في السن لم يرزق اولاداً يعيش من زراعة بقعة من الارض صغيرة ولم يكن يحب الغسانيين لانهم على زعمه احدث نعمة من الانباط وان الانباط أولى منهم بالسيادة . وسبب بغضه لهم الحسد وذلك طبيعي في من كان من سلالة الحكام ثم رأى السيادة في غير اهله فانه لايستطيع حبهم او الاذعان لهم الا قهراً فاذا خلا بنفسه ندد في حكومتهم وعدد معائبهم — وذلك من ادلة الضعف في بني الانسان

وكان سلمان لما عاد بحماد من عمان قد عثر على الرجل واستطلع حاله فعلم انه احسن ملجأ يلجأ سيده اليه ريثما يعود اليه بخبر هند فلما عاد بخبرها كما تقدم واتفقا على ذهابه الى غسام سار اليها وهو مطمئن البال ولكنه غادر حماداً على مثل الجمر في انتظار رجوعه

فلم يمض يومان حتى عاد سلمان ومعه التحف والنقود التي كانوا قد خبأوها بجوار منزلهم فدفعها الى حماد وهو منقبض النفس كاسف البال فسأله عن امره

قال اني خائف على سيدي من دسيسة ابن الحارث واخاف ان يكون قد غضب لما ناله من العفو فانفذ اليه رجالاً اغتالوه

قال وما الذي حملك على هذا الظن

قال اني تدبرت الامر واستطلعت الخبر من اهل بصرى سراً فعلمت

(١) الانسكلوبيذيا وغيرها

ان الخبر بالعفو وصلهم من عشرة ايام وان سيدي خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت الى الحجاز رأساً فهل تظنه سار معها

فقال حماد وكيف يعقل ان يسير الى الحجاز ونحن على موعد من لقائه في عمان فلا يبعد ان يكون قد رافق القافلة الى جوار عمان ثم عرج اليها

قال سلمان ولكنه يعلم ان موعدنا فرغ اذ قد مضى الشهران او اكثر منذ افتراقنا

فقال حماد لعله اراد المرور بعمان ليتحقق عودتنا منها فلا يلبث ان يعلم بذلك حتى يعود فلنصبر قليلاً نتنسم اخباره

فصمت سلمان وهو لا يزال خائفاً على سيده ولكنه تظاهر بالاقتناع تخفيفاً عن حماد وكان لا يزال بزي الرهبان وقد غشيه الغبار فنزع ثيابه وغسل وجهه وكان صاحب المنزل قد خرج في بعض المهام وترك كلبه يحرس المضارب ريثما يعود

فاغتنما تلك الفرصة واخفيا ما جاء به سلمان من الاموال فجملا بعضه في جيوبهما وبعضه بين الثياب

الفصل السادس والعشرون

رجوع جبلة

تركنا هنداً في صرح الغدير وقد املت الحصول على حماد ولكنها كانت ترى أظلالاً من الريب تعترض آمالها لان ذكاءها ودقة نظرها اوحيا اليها شكاً في رضاء والدتها عن حماد . اما هذه فكانت تحاول اقناع نفسها في صلاح ما وعدت هنداً به ولكنها ما زالت ترى في ضميرها ما يعترض مقاصدها على انها كانت تتغلب على ذلك الضمير ارضاء لابنتها وتنتظر ما يأتي به القدر

وبينما هي جالسة ذات يوم في الصرح جاءها بعض الخدم ينبئها بقادم من البلقاء فهرولت اليه لعله جاء بخبر من جبلة وقد طال امد غيابه فرأت فارساً ترجل وقبل يدها فعرفت انه من رجال زوجها فاستطلعته الخبر فقال ان الامير جبلة قادم اليكم في صباح الغد وهو يقرئك السلام

فقالت اهلاً ومرحباً فاننا نتأهب لاستقباله ثم دخلت وقد علمت انه آت

ليسألها بشأن هند وثعلبة . فانقبضت نفسها وشعرت بحرج المقام وجعلت تفكر في حل ذلك المشكل

وفيما هي غارقة في بحار الهواجس جاءت هند وكانت قد رأت الفارس وعلمت سبب مجيئه فخفق قلبها لما يعترض آمالها من الشكوك وتوقعت أن ترى والدتها في ارتباك . فلما علمت بخلوتها دخلت بغتة فرأتها في ما تقدم من الانقباض فحيتها فانتبهت سعدى لحالها فحاولت الابتسام لتخفي ما يخامر قلبها فابتدرتها هند بصوت مختنق قائلة لا يشغلك شاغل يا أماه فما في الامر ما يدعو الى هذا الاهتمام

فقالت سعدى لست في اهتمام يا ولدي ولكنني اشعر بانحراف في صحتي

فقالت صدقت ولكن سببه هند هذه

قالت حاشا وكلا فانك تسليتي ومنشأ سعادتي ألا تريني حالما وقع نظري عليك انشرح صدري وانبسط وجهي

قالت ارى ذلك ولكنني ارى عليه صبغة التكلف فلا ترتبكي ولا تقهري نفسك فان كل حال تزول . وارادت هند بذلك ان تختبر والدتها وتستعيد وعدها لها قبل قدوم والدها لان على اجتماعهما هذا يتوقف مستقبلها

فقالت سعدى ما بالك تكلمينني بالرموز ألم تتحققي حتى الآن اني على ما وعدت ؟

قالت قد تحققت ذلك ولكنني اراني سببت لك تعباً وارتباكاً

قالت ان تعبك راحة فاقلعي عن هذه الظنون وهلم بنا نتدبر الامر فنتفق على خطة نسير عليها . لان والدك قادم غداً ولا أظنه الا فاتحاً حديث ثعلبة فما ظنك فيما تجيبيه به

قالت انت تعلمين ما في قلبي فاجيبيه بمقتضى حكمتك . اما انا اذا سئلت فلا جواب عندي غير السلب ولو مهما كلفني ذلك

فقالت هي انه سألنا عن سبب هذا الرفض فهل اذكر له حكاية حماد

قالت لا ادري ما تقولين ولكنني اخبرتك بمكنونات قلبي وقد وعدتني تدبير الامر فافعلي ما تشائين

فسكتت سعدى وقد وطنت نفسها على مجاراة ابنتها وخرجت من الغرفة وامرت اهل القصر بضرب المضارب واعداد الذبائح لاستقبال جبلة وحاشيته في صباح الغد

فأصبح الصباح وقام الخدم لاعداد ما يلزم ففرشوا البسط ونصبوا الخيام وذبحوا الذبائح وأوقدوا النيران ولبست سعدى وهند احسن ما لديهما وتهيأتا للاستقبال . فلما كان الضحى ظهر الغبار من جهة البلقاء فعلم اهل القصر بمجيء جبلة ورجاله فخرجوا لملاقاتهم واطلت سعدى من بعض النوافذ المشرفة على ذلك السهل . اما هند فاستلقت على سريرها وفرائصها ترتعد لهول ما تصورته من غضب والدها اذا علم بما في نفسها ثم ما لبثت ان سمعت قرقعة اللجم وصهيل الخيل بجوار القصر فعلمت بوصول والدها وفرسانه فخفق قلبها ولكنها تجلدت وأطلت من الشرفة فرأت الفرسان قد تحولوا الى الخيام المضروبة لهم هناك وترجل والدها امام الحديقة ودخل بلباسه الفاخر وقد لف رأسه بكوفية والعقال حولها والتف بالعباءة فوق القباء فاستقبلته سعدى بوجه باش يخامره بعض الانقباض . ثم جاءت هند فقبلت يده فضمها وقبلها واستغرب ما في وجهها من النحول فسألها عن سبب ذلك فأجابته والدتها بأنها تشكو من ألم عارض فساروا جميعاً الى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد فدخل جبلة ممسكاً هنداً بيدها حتى جلس في صدر القاعة واجلسها الى جانبه وقد تنبهت فيه عواطف الشفقة والحنو لما آنسه فيها من الضعف فما صدق انه خلا بها وبوالدتها حتى سألها عن شكوى هند منه فطمأنتاه وألحتا عليه ان يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل وقد اوصى الخدم باصلاح ما يحتاج اليه رجاله من الزاد

اما سعدى فآنست في وجه زوجها انقباضاً لم تعهده فيه وخصوصاً عند مقابلته هنداً بعد غياب طويل فحاولت على استطلاع السبب بعد الغداء والاستراحة ولكنها لم تستطع ذلك لاشتغاله بمشاهدة غرف القصر ونزوله الى الاسطبل يتفقد افراساً له كان قد تركها هناك ولكنها لاحظت انه انما كان يتلاهى بذلك تخلصاً من سؤالها واستفهامها

فلما كان المساء جلسوا للطعام وكل منهم في هواجس فلم يدر بينهم حديث

غير ما لا بد منه على المائدة كالتماس الآنية او استبدال بعض انواع الطعام او الشراب أو نحو ذلك

فلما فرغوا من العشاء تفرق الخدم يهتمون بشؤونهم وبقي جبلة وزوجته وابنته في القاعة على حدة وكان جبلة متكئاً على وسادة وهند الى جانبه ووالدتها بين يديه

فنظر الى هند وتأمل وجهها ثم التفت الى سعدى وقال لها لقد اطلنا الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل انتابتني وكنت أعد النفس بالقدوم اليكم منذ أيام فلم استطعه الا اليوم وكنت أحسب مجيئي هذا يفرج كربتي فلم أرَ الا ما يزيدني انقباضاً

فتطاولت سعدى بعنقها قائلة

ليس في هند ما يدعو الى الانقباض فقد يمر على الانسان أيام يتوعك بها مزاجه لغير سبب يعرفه ولكنني توسمت في وجهك انقباضاً منذ قدومك هذا الصباح وكنت أغالط نفسي واحسبني مخطئة اما وقد اقررت به من فيك فارجو أن تفصح عن السبب

قال ليس ما تشاهدينه من الانقباض ما يهمك الاطلاع على أسبابه فهو أمر عارض لا يدعو الى بحث

فقالت لا أظن أمراً يهمك لا يهمنا ومهما يكن من شأنه فان بالنا لا يهدأ الا بمعرفته

فقال دعينا من الخوض فيه وقد يكون سحابة صيف تنقشع ولا تمطر

فاشتاقت سعدى الى استطلاع الخبر وعلمت أنه منقبض من خبر سمعه ولم يتحقق صدقه . فقالت هب أنك لم تحقق ما سمعته فاطلعنا عليه

قال جاءنا قادم من الحجاز يخبرنا بقدوم جند من العرب لمحاربتنا

فبغتت سعدى وقالت وما سبب قدومهم ولا نعرف بيننا وبينهم ما يوجب حرباً

فهز رأسه واعتدل في مجلسه وجعل يمشط لحيته باصابعه وقال ان هؤلاء

العرب عصابة قوية برئاسة نبي ظهر بينهم يدعو الناس الى دين جـديد وقد بعث كتاباً يدعونا فيه الى دينه فوصل كتابه الى الحارث فمزقه وامتهن حامله فشق ذلك على صاحب الدعوة فانفذ جنـداً من رجاله لمحاربتنا فبثثنا العيون والارصاد لمراقبة مسيرهم ولا نعلم متى يصلون

فاجفلت هند عند ذكر الحارث وقالت في نفسها « قد كتب علينا الشقاء على يد الحارث وابنه فلا حول ولا » ولـكنها نظرت الى والدها وقد ثارت فيها الحمية وقالت وما يخيفنا من قدوم هؤلاء العدنانيين ونحن بني غسان رجال أشداء لا نرهب القتال

فانشرح صدر جبلة لما أظهرته هند من الشهامة وقال نعم اننا لا نخاف حربهم ولـكننا كنا في غنى عن حشد الرجال واعدادمعدات الدفاع وحصوننا لا تزال متهدمة على أثر حروبنا مع الفرس سامح الله الحارث لما جرّه علينا من البلاء

فقالت سعدى يظهر ان هؤلاء العدنانيين انما يريدون قتال الحارث لا قتالنا

قال نعم ولـكننا جميعاً تحت سيطرةالروم فاذا احتاجوا الى دفاع استنجدونا جميعاً ولا يسعنا الا الاذعان

فقالت هند أيخطىء الحارث ونحن نحارب عنه

قال ذلك ما لا بد منه اذا دعت الحالة اليه وسنرى ما يكون من امر هذا الجند . ولـكن الحارث جاءني بالامس وتداولنا في الامر ملياً واخذنا في حشد الرجال واعداد معدات القتال وعلى الله الاتـكال

فلما سمعت سعدى باجتماع الحارث بزوجها ايقنت انهما تداولا في شأن هند وتوقعت ان تسمع حديثه من جبلة ولـكنها علمت انه لا يذكر ذلك وهند حاضرة فتظاهرت بالملل وقالت اظنك تعباً من السفر في هذا الصباح فهـل تريد الذهاب الى الفراش . فادرك مرادها فأجاب دعوتها ونهض ونهضت هند ولم يفتها المراد من ذلك فانصرفت الى غرفتها بدعوى الرقاد وقد نظرت الى والدتها بطرف خفي كأنها تذكرها بوعدها . فافترقوا وخلت سعدى بزوجها

في غرفة الرقاد وقد اعد له الخدم ثياب النوم فبدل ثيابه وبدلت هي ثيابها وكلاهما صامت يفكر في جهة والموضوع واحد

الفصل السابع والعشرون

كشف السر

فاتكأ كل منهما على سريره والسريران متقابلان وفي الغرفة شمعات مضيئة على مائدة وقد هدأ الليل واستولى السكوت على صرح الغدير لذهاب الناس الى منامهم الا ما كانوا يسمعونه من صهيل خيول في معسكر حاشية جبلة عن بعد

فبدأ جبلة بالكلام قائلاً عهدت اليك مهمة منذ أيام وكنت اتوقع قدومك الينا بخبر اتمامها فابطأت حتى استبطأ الحارث جوابي فجاء يستعجلني فيه وقد آنست منه تغيراً لما كان يتوقعه من سرعة الاجابة وخصوصاً بعد ما سمعه من قدوم هؤلاء العدنانيين فانه يرى التعجيل في الاقتران قبل وصولهم

فاحست سعدى بما جرته علي نفسها من المشاق بما اكدت لهند من الوعود فترددت برهة في الجواب

فابتدرها جبلة قائلاً ما بالك لا تجيبنني ألعل في الامر مندوحة للتردد

قالت لا أعلم ذلك ولكنني أعلم ان هنداً لم ترَ صحة منذ ذكرت لها هذا الامر

فقال وماذا كان جوابها

قالت لا سلباً ولا ايجاباً

قال اذن هي راضية

قالت لا يدل السكوت على الرضاء في كل حال

قال وقد بغت وماذا اذن ألملك فهمت ما يدل على الرفض

قالت لا ادري ... ولعلي مخطئة في ظني

فقال وقد استغرب جوابها قولي افصحي فاني أرى وراء توقفك ما يأول الى خطر جسيم

فقالت وأي خطر تخافه

قال ألا تعلمين ان رفض هذا الامر يؤول الى نفور بيننا وبين الحارث

فقالت وهي تتجاهل مراده وأي علاقة بين الامرين أيكون الزواج قسراً

فهبَّ من مجلسه وقد زاد استغراباً وقال أبلغ من هند أن ترفض ما اختاره لها والداها

قالت لا تقل (والداها) بل قل (والدها) فقط

فحملق وقال وقد علا صوته : ألعلك مجارية لها على قحتها يا سعدى

فاجابته بصوت منخفض قائلة لا لم أجارها في شيء ولكنني خفت عليها الموت فاذا كنت ترى ان تجود بهند فريسة لذلك الرجل زوّجها به . قالت ذلك وأطرقت وقد شرقت بدموعها

فبهت جبلة عند سماع تلك العبارة ولبث برهة يحسب نفسه في منام ثم قال وماذا تعنين يا سعدى أهل تتكلمين عن ثقة

قالت لم اذكر لك الا ما تحققته بعد جدال طويل واذا كنت لا تصدق مقالي فهذه هند أدعها اليك وخاطبها وجهاً لوجه فقد نفدت حيلتي فيها

فرجع جبلة الى صوابه وتذكر حبه هنداً وما يعجب به من شهامتها وتعقلها ولكنه ما زال على ما يخافه من عواقب ذلك الرفض فقال لها ادعيها اليّ لاخاطبها وأسمع اعتراضها

فوقفت سعدى وهمت بالخروج الى غرفة هند ولكنها علمت ان مجيئها وجبلة في حال غضبه قد ينتهي الى عاقبة وخيمة فرأت من الحكمة ان تخفف من غضبه وتهدىء روعه قبل مجيئها فتقدمت منه والدموع ملء عينيها وقالت ها أني ذاهبة لاستقدامها ولكنني أنبهك الى أمر أرجو أن لا يبرح من بالك

قال وما ذلك

قالت أنت تعلم أنفة هند ورقة أحساسها وخصوصاً بعد ما عانته من الضعف على أثر حديثي معها بشأن ثعلبة وتعلم أيضاً أن ثعلبة كما نعرفه نحن ليس كفوءاً

لها مع ما خبرناه من خساسته وغدره ولا تظنه يحبها بل هو يريد قتلها فاذا علمت ذلك تدبر الامر بالحكمة وخاطبها بالحسنى ولا تطمع في اكراهها لئلا تسوقها الى حتفها فتندم حين لا ينفعنا الندم . فمن الحكمة أن نأخذها باللين والمطل ربما تتغلب على عواطفها

فقال جبلة لقد نطقت بالصواب ولكنني لا أراني قادراً على التخلص من شر أتوقعه بسبب ذلك .... على أني لم أفهم سبب رفضها اياه وهو ابن عمها . ولا أعرف في غسان من هو أقرب نسباً منه ولا أليق بمقامها فما سبب هذا البغض ؟

قالت أما كرهها له فسببه دناءته وخساسته فقد عاشرته أعواماً طوالا فلم تجد فيه شيئاً من انفة الرجال وكرم أخلاق بني غسان وطالما حدثتني بذلك عنه منذ أعوام وكثيراً ما كنا نذكر سيئاته بحضورها فلا يسعنا بعد ذلك اقناعها بنزاهته وكرم أخلاقه

فقال جبلة لا أنكر عليك ذلك يا سعدى ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا الحارث من المنافسة المستترة برداء القرابة تحت ظل المجاملة ولا ريب عندي ان رفض طلبه يجرنا الى حرب ونحن في حال تدعو الى اجتماع الكلمة لما سمعناه من اخبار الحجاز

فقالت اني موافقة لك على ما تقول ولكنني على ثقة مما قلته لك وأقوله ايضاً وهو ان اصرارنا على اقترانها بثعلبة يقودنا الى ما تندم عليه ساعة لا ينفعنا الندم — فهي لا تحبه ولا ترضاه ولا يمكن ان ترضاه . فهل يهون علينا ان نخسر هنداً وهي ثمرة حياتنا ومرجع آمالنا فنضعها بين يدي ذلك الجبان الخسيس وهو لا يحبها — قالت ذلك والدموع تتناثر من عينيها

قال أراك واثقة بعدم حبه لها .... ولو كان كذلك لم يطلبها

قالت أنا متحققة ذلك مما سأقصه عليك في فرصة اخرى أما الان فاني داعية هنداً اليك لتسمع كلامها شفة والتمس منك ان ترفق بعواطفها ما استطعت لان العنف لا يجدينا نفعاً

قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت غرفة هند فرأت الباب

موصداً وآنست في الغرفة صوتاً فاصاخت بسمعها فسمعت بكاء يتخلله شهيق فعلمت ان هنداً تبكي فطرقت الباب وناديها باسمها فابطأت قليلاً ثم فتحته فادنت سعدى المصباح من وجه هند ونظرت اليها فاذا هي ذابلة الاجفان، محمرة العينين كاسفة البال فانفطر قلبها لذلك المنظر المريع فوضعت المصباح على الارض وهمت بها وجعلت تقبلها ودموعها تتساقط حنواً وشفقةوهي تقول لا تبكي يا ابنتي لا تبكي ولا تحزني فلا يكون الا ما يسرك

فقالت كفاني يا أماه تعزية ومسايرة فقد سمعت غضب والدي باذني

قالت وما الذي اسمعك كلامه وأنت هنا

قالت مررت بالباب فسمعته ينتهرك وهو مصر على قوله وما ذلك الا لتعاستي فاذا كان لا يزال على عزمه فأستودعك الله . قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقبلتها سعدى وقالت لقد اخطأ ظنك يا هند فان والدك يكاد يسلم برفض ثعلبة وهو انما ينتظر مخاطبتك في شأنه ليسمع الجواب من فيك فهيا بنا اليه فانه ينتظرنا في الغرفة . وارادت سعدى ان تدخل على زوجها بهند وهي باكية لعله يرق لها فيجاريها على مرامها

الفصل الثامن والعشرون

موقف هائل

فاحببت هند الانتظار برهة ريثما تجف دموعها فلم تمهلها فسارتا حتى وصلتا الغرفة وجبلة متكئ على فراشه وقد استبطأ امرأته وأحب البقاء متكئاً اظهاراً لما في نفسه من العتب على هند . أما هي فدخلت مطرقة وقد تكسرت اهدابها وذبلت اجفانها واحمرت عيناها وتوردت وجنتاها واسترسل شعرها على ظهرها . ومشت حتى اقتربت من سرير والدها فوقفت واسندت كتفها الى الحائط ذليلة كئيبة ولبثت مطرقة

فلما رآها جبلة على تلك الحال حنَّ لها ونسي غضبه ولكنه ما زال مكبراً عملها فخاطبها قائلا ما رأيك يا هند

فظلت صامتة تتشاغل باهداب ضفيرتها بين أناملها

فقال ما رأيك بابن عمك ثعلبة

فلما سمعت اسمه ارتعدت فرائصها وعاد البكاء اليها فامسكت نفسها عن الشهيق ولكنها لم تستطع امساك دمعها عن الانحدار . فلما شاهد جبلة تلك الدموع تتقطر على خديها شعر كأن قلبه يقطر دماً عليها

فقال ما بالك لا تجيبيني ونحن انما بعثنا اليك لنسمع الجواب من فيك قولي ما جوابك على طلب ثعلبة

فلم تعد تتمالك عن الشهيق فتحولت من الغرفة وأرادت الخروج فامسكت والدتها يدها وهمت بارجاعها فالقت بنفسها الى الارض وأخذت في البكاء حتى كاد يغمى عليها

فجعلت سعدى تخفف عنها وأومأت الى زوجها ان يكف عن السؤال وجاءتها بماء رشتها به وسقتها منه قطرة حتى هدأ روعها وجبلة صامت ينظر اليها وقلبه يكاد يتقطع حتى هان عليه كل صعب فقال لها قد فهمت يا هند انك لا تحبين ثعلبة فهل تحبين والدك وعشيرتك

قالت وهي تشرق بدموعها نعم أحبك وأحبها وان كنت ترى في تسليمي لذلك الخائن راحة لك ولعشيرتك فاني راضية بالموت فداء عنك وعنها وهذه روحي بين يديك فافعل بي ما تشاء

قالت ذلك وترامت على والدها فضمها الى صدره والدموع تتساقط من عينيه رغم ارادته وجعل يقبلها ويخفف عنها وهو يقول لا تجزعي يا هند اني على ما تريدين فهوّني عليك واستجمعي حواسك . قال ذلك وأجلسها الى جانبه فجلست وهي تجمع شعرها وترسله الى ظهرها وكان قد مال الى الامام عند استلقائها على والدها . ولما رأت في والدها هذا الانعطاف تذكرت ما لا يزال في طريقها من العقبات بشأن حماد لعلمها أن والدها سيعظم أمر حماد اكثر مما أعظم أمر ثعلبة فعولت على اغتنام تلك الفرصة وهو في حال الانعطاف

لنيل رضاه عنها فعادت الى البكاء

فعجب لبكاءها بعد مجاراته لها في العدول عن ثعلبة وكان يظن ذلك كافياً لزوال كل احزانها فلما رآها تبكي ظنها لم تفهم مراده . فقال كفي البكاء فقد أغفلنا ثعلبة وطلبه فهدئي روعك . فلم تزدد الا بكاء فادركت والدتها ما في نفسها فأومأت الى والدها ان يكف عن السؤال هنيهة ودنت من هند وجعلت تمسح دموعها بمنديلها وتقبلها ثم أمسكتها بيدها وخرجت بها الى غرفتها . فلما خلت بها سألتها عن مرادها بذلك فقالت دعيني يا اماه دعيني أبكي على صباي فقد أدركت ما جرته على نفسي من البلاء

فعلمت أنها تشير الى أمر حماد وما تخافه من غضب والدها اذا علم بحبها له فقالت اشكر الله يا هند انا قطعنا نصف الطريق بامان والله يساعدنا على الباقي

فقالت هند لم تقطع الا السهل منها وقد بقي الوعر يا أماه

قالت ان الذي نجانا من ثعلبة لا يبخل علينا بحماد طيبي نفساً وقري عيناً

قالت لا يطيب لي عيش فقد زهقت روحي قبل ان أقطع السهل الهين وكيف وقد وصلنا الى العقبة التي لا أرجو اجتيازها فقد رأيت ما أعظمه والدي من امر ثعلبة وهو يعلم خساسته ويعتقد بانه ليس اهلاً لي فمن يتجرأ على ذكر حماد أمامه وهو رجل غريب يقول انه لا يعرف أصله ولا فصله آه يا لتعاستي وسوء حظي

وكانت سعدى تعتقد مثل اعتقادها وربما خافت اكثر من خوفها ولكنها لما رأت حال ابنتها هان عليها ركوب ذلك المركب الخشن فجعلت تخفف عنها وتنشط آمالها وهند تبالغ في اظهار يأسها

فقالت سعدى خففي عنك وانهضي الى فراشك وعليّ تدبير ما تريدينه ولك مني ان لا يصبح الصباح الا وقد رضي والدك بكل ما تريدين

فلما سمعت هند ذلك شعرت بانتعاش وأحست كأن قلبها انفتح وقد انفرجت الازمة ولكنها استبعدت ذلك كثيراً فالتفتت الى والدتها شزراً وتبسمت تبسم طفل نال أمراً كان يتطلبه باكياً فقبض عليه وهو لا يصدق

انه ناله . فلما رأتها سعدى في تلك الحال إزادت انعطافاً اليها وابتسمت لهـا والدموع ملء عينيها وقالت هوني عليك فقد قلت لك اني ضامنة لك ما تريدين ألا يكفيك ذلك . . ؟

قالت يكفيني يا اماه ولكنني أرى والدي صعب المراس فلا اظنه يشفق على قلبي

قالت لا تستعظمي أمراً تريدينه والله قادر على كل شيء فاذهبي الى فراشك وها اني ذاهبة الى السعي في مرامك والله يفعل ما يشاء

الفصل التاسع والعشرون

الاستغراب

فسكن روعها وعادت اليها آمالها والقت حملها على والدتها وسكتت ثم نهضت ومشت الى الفراش وقد انهكها التعب وخارت قواها من هول ما قاسته تلك الليلة ولما رأت والدتها تهم بالخروج استحلفتها أن تبذل جهدها في اقناع والدها . فاكدت لها الوعد وخرجت حتى اتت غرفة زوجها فاذا هـو في انتظارها ليستطلعها سبب ما شاهده من هند. فلما دخلت ابتدرها بالسؤال قائلاً أتظنين هنداً تبقى على عزمها من رفض ثعلبة فقد رأيت أني جاريتها في امر ربما آل الى حرب دموية بيني وبين الحارث ولكنني فعلت ذلك مدفوعـاً بشفقتي على الفتاة وانا أرجو ان اعود الى اقناعها في فرصة اخرى ألا تساعديني على ذلك

فابتسمت وأظهرت الاستغراب قائلة أتظنني جاريت هنداً في عملها هـذا عبثاً ألم أقل لك أني انما فعلت ذلك رغم ارادتي وقد خفت على حياة ابنتنا ولو علمت ان الاصرار ينفعنا شيئاً ولو بعد حين ما سمعت منها قولاً ولكنني رأيت ذلك لا يجدينا غير خسارة لا تعوض . اليست هند ثمرة حياتنا ومرجع

آمالنا وزهرة عمرنا . أليست تعزيتنا في شيخوختنا. ألم نفاخر بها ملوك العرب ونفضلها على خيرة البنين . أليست هي فتاة غسان ومضرب امثالهم . أليست هي افرس فرسانهم واكرم كرامهم . أنسيت وقد رأيتها تبكي كالطفل أنها تجاري فرسان غسان في حومة الميـدان واذا ركبت جوادها تطاولت اليها الاعناق وحامت حولها القلوب . ألم تكن هنداً اذا وقفت في حومة الوغى واستحثت الرجال على دفاع الاعـداء انهضت هممهم واثارت حميتهم . اغرك منها ذلها وانكسارها الليلة فنسيت هنداً وما هي ... أمثل هذه الفتاة يسهل التسليم بها لرجل لا يساوي قدة من نعلها . ثعلبة وما ثعلبة . أليس هو ذلك الجبان الغر الذي رأيناه يحقد كالفيل ويحتال كالثعلب ويغدر كالعقرب.. أنسيت يوم السباق وما كان شأنه مع ذلك الشاب الغريب يوم سبقه مرتين حتى اذا سابقه ثالثة عاد من حلبة السباق وفي يده قصبة السبق مبرية بري القلم ألا تذكر انك رأيت القصبة مبرية ؟

وكان جبلة في اثناء ذلك صامتاً وقد اعجب بفصاحـة سعدى وانسجام حديثها .فلما ذكرت القصبة تذكر انه رآها مبرية فقال نعم اذكر ذلك

قالت اتدري سبب بريها فوالله وشرف بني غسان لو أطلعتك على سر الامر للعنت الساعة التي ولد فيها ثعلبـة في بني غسان ولوددت لو ان حماداً مكانه لانه اشبه بشهامتهم وكرم اخلاقهم

فمال جبـلة الى استطلاع السبب فقال وما سبب بريها

فسرت سعدى لاصغاء زوجها الى حديثها فقصت له حكاية القصبة وبالغت بما اظهره حماد من الشهامة وكرم الاخلاق وما كان من دناءة ثعلبة وخساسته. فلم تكد تفرغ من حديثها حتى انقبض وجه جبلة لما جره ثعلبة من العار على الغسانيين وأحس بارتياح الى حماد . فقال تباً لثعلبة ورعياً لذلك الشاب فياليته قتله ولم يسمعنا هذا الحديث عنه

فتبسمت سعدى من جبـلة اصغاء لحديثها فقالت اما وقد فتح الحديث وجرنا الـكلام الى هذا الحد فاسألك مسألة ستكون جواباً لسؤال سألتنيه الليلة

قال وما ذلك

قالت أتدري ما الذي حمل ثعلبة على خطبة هند بعد ما علمته من تباعده عنها

قال وما تعنين بتباعده

قالت ألم تكن هند ابنة عمه منذ ولدت

قال بلى

قالت ألم يكن يجادر به أن يخطبها لنفسه منذ أعوام وقد يخطب ابناء العم أطفالاً

قال بلى

قالت أتدري ما الذي أمسكه عن خطبتها حتى الآن

قال وقد بهره قولها وتطاول بعنقه لاستكمال حديثها لا أدري وما ظنك بذلك

قالت لأنه يحسب نفسه ارفع منها مقاماً أو لعله كان يتوقع أن نعرضها عليه فاذا قبلها اذ ذاك انما يقبلها كرماً ومنة

قال جبلة وقد اقطب وجهه وتعاظم غضبه خسىء النذل وخسىء ابوه قبله

قالت بل خسىء كل من يقول قوله فقد علمت ان ثعلبة لم يكن عازماً على خطبة هند لو لم يحدث ما حرك غيرته وهاجه على الانتقام واذا أذنت ان اكشف لك الغطاء فعلت

قال وقد مال بكليته الى استطلاع السر نعم اني شديد الميل الى معرفة ذلك قولي

قالت ولكنني استحلفك بحبك هنداً أن تبقى على حبها وتشفق على صباها وتعذرها في ما رأيته أو تراه من حالها

قال لقد عذرناها من قبل فلا حاجة الى الاستحلاف

قالت انما استحلفك على امر لم تعلمه بعد

فازداد شوقاً وقال قولي لقد نفد صبري

قالت لقد علمت حسد ثعلبة حماداً على أثر ما ناله من قصب السبق عليه

وقد تعاظم حسده لما رأى هنداً تلبسه تلك الدرع وهي أنما فعلت ذلك بامرك

قال نعم

قالت وقد رأيتك وأنت رجل معجباً بشهامة ذلك الشاب ولا يخفى عليكَ ان النساء اكثر اعجاباً بشهامة الرجال وخصوصاً من كانت مثل هند في مقتبل العمر وريعان الشباب . قالت ذلك وهي تراعي ما يبدو من جبلة ولم تكن تتوقع الا استغرابه

فحملق جبلة ونظر اليها والشرر يكاد يتطاير من عينيه وقال وماذا تعنين

قالت وهي تتردد بين ان تصرح له أو تبقي على الكتمان « أعني انه لما رأى هنداً معجبة بحماد ثارت في قلبه نيران الغيرة والحسد والانتقام و ... »

فقطع عليها الكلام قائلا أظنك تعنين اكثر من ذلك

فرأت سعدى ان تصرح بالحقيقة لترى ما يكون فقالت اعني انه ظنها تحب حماداً فاراد خطبتها ليحرمها منه فينتقم منهما جميعاً

فبهت جبلة وقد ارتاب في كلام سعدى بعد ما آنس من ترددها ولكنه استزادها ايضاحاً فقال هل كان ذلك منه على سبيل الظن فقط

قالت لا ادري اذا كان يتجاوز الظن

فقال اراك تدافعينني وتكتمين شيئاً آخر فافصحي عما في ضميرك

فسكتت وقد خافت التصريح

فألح عليها وهو في ريب من امرها وقال افصحي

فقالت وهب اني اكتم شيئاً آخر فما الفائدة من الافصاح

فادرك ان في ضميرها سراً تخاف افشاءه فراراً من غضبه فقال وقد اشتد قلقه وحمي غضبه قولي افصحي فهل علمت يقيناً ان هنداً تحب ذلك الشاب

فاطرقت ولم تجب ولكنها اشارت بكتفها وحاجبيها انها لا تعلم

فقال ما بالك لاتجيبين ألعلها تحبه

فنظرت اليه وقد عولت على التصريح . فلما رأت تقطب حاجبيه وحملقة عينيه خافت اشتداد غضبه فنهضت وتظاهرت بتأجيل الحديث الى وقت آخر

وقالت وهي تهم بالخروج « لا اعلم وسأبحث عن ذلك واخبرك

فامسكها بيدها واقعدها وقال لها يكفي مدافعة فانك تعلمين فقولي ولا حاجة الى التسويف بعد أن فهمت ما فهمت من خلال حديثك

فقالت فاذا كنت قد فهمت فلماذا تستعيدني ما قلته

قال اذن هي تحبه وتريد الاقتران به

قالت ربما كان ذلك . واعرضت عن جبلة متشاغلة باصلاح فراشها واظهرت عدم الاكتراث

فحمي غضبه وامسكها بيدها وجذبها اليه بعنف وقال ما بالك تستخفين بغضبي كانك لا ترين في الامر ما يستحق الاهتمام . ألا يهمك ان تقترن ابنتك برجل غريب لا نعرف اصله ولا فصله وقد يكون من السوقة

فنظرت اليه عاتبة لما اظهره من العنف وقالت بصوت منخفض وهذا الذي حملني على الكتمان لعلمي انك ستتلقى الخبر بما اعلمه من تعلقك بشرف الغسانيين وانكارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم . على ان حماداً ليس من السوقة بل هو من أمراء العراق بني لخم

فخجل لما كان من خشونته في خطابها والغضب يمنعه من الاعتذار ولكنه أمسكها بلطف وقال لها ألا تنكرين أنت ذلك أيضاً . هب أنه أمير فبيننا وبين العراقيين عداوة لا تؤذن بالمصاهرة

قالت لا أخفي عنك اني استعظمت الامر عند سماعه لاول وهلة ولكنني تلقيته بالحكمة والصبر لارى حيلة في تدبيره ولو علمت أنت حال هند كما علمتها أنا لفعلت مثل فعلي ولكن ما الفائدة من الكلام وقد نسيت حنوك وشفقتك فافعل ما تشاء واذا ماتت هند فاللوم لاحق بك . قالت ذلك وهي تنظر اليه والدموع ملء عينيها

فلما شاهد ذلك منها سكن غضبه وصبر نفسه ونظر اليها بطرف يكاد يدمع وقال وما الحيلة التي ترينها والحال كما قلت

قالت اذا اذنت ان تنظر في الامر بعين الحكمة دبرت لك حيلة ينصرف بها هذا المشكل على اهون سبيل والا فالامر لك

فبهت ثم قال ما الرأي قولي

فجلست الى جانبه وخاطبته باهتمام قائلة أما الرأي فهو ان نتظاهر بالرضاء عما ارادته هند ثم ندبر حيلة نتخلص بها من حماد لا يكون فيها ضغط على عواطفها

فقال وكيف ذلك

قالت سأخبرها غداً ان حماداً اذا طلبها منك لا تمنعه ثم ابين لها ترفع مثلها عن الاقتران برجل غريب لم يثبت لنا نسبه وهي لا تنكر ذلك . ثم احبب اليها ان يعمل عملاً نقترحه عليه يكون له به فخر يغنيه عن النسب فاذا قبلت ولا اظنها الا قابلة لعلمي بعزة نفسها اقترحنا على حماد امراً يقرب من المستحيل. فاذا استطاعه كان اقترانه بهند أمراً مقضياً من الله سبحانه وتعالى فلا مندوحة لنا عن القبول به

فارتاح جبلة الى هذا الرأي وسألها عما تنوي اقتراحه فقالت سننظر فيه ونقر عليه ريثما يأتي الوقت

فسر لتعقلها وأثنى على ما أظهرته من الروية والحكمة فقالت له عند ذلك دعني أذهب الى هند واطمئنها لئلا تقضي الليلة ساهرة فتعود الى الضعف قالت ذلك وخرجت فرأت هنداً في انتظارها على مثل الجمر

اما هند فلما رأت والدتها قادمة نهضت لملاقاتها وهي تنظر الى وجهها تتفاءل بما تقرأه عليه من آيات البشر . فرأتها تبتسم فسكن بلبالها فاستطلعتها الخبر فطمأنتها وأكدت لها ان والدها لا يمانعها في ما تريده فلم تصدقها حتى اقسمت بحبها لها . فانبسط وجه هند ولم تتمالك عن الابتسام وكان سرور والدتها اكثر من سرورها . ولكنها ما زالت تفكر في الحيلة ثم ودعت ابنتها وخرجت ولم تنم هند تلك الليلة من الفرح

الفصل الثلاثون

اليأس من وجود عبد الله

تركنا حماداً في انتظار خبر والده وسلمان يتردد الى بصرى وضواحيه يسأل عنه حتى يئسا من العثور عليه هناك فقلق حماد كثيراً وخاف من سوء يصيبه . وكان سلمان في مثل قلقه فعاد ذات يوم من بصرى وكان غارقاً في بحار الهواجس فلما دخل ناداه حماد ما وراءك يا سلمان

قال ما زلت على ما فارقتني ولا أراني قادراً على الصبر بعد هذا الانتظار فأذن لي في المسير الى بيت المقدس أو عمان للتفتيش عن سيدي فقد مللت الانتظار

فقال حماد ألا ترى ان أسير أنا معك

قال لا حاجة الى ذهابك فامكث هنا ريثما اعود

فقال هل تسير الى بيت المقدس أم الى عمان

قال أرى ان أسير الى بيت المقدس أتتبع خطوات سيدي منها حتى أقف على خبره فضلاً عما في الطريق من هناك الى عمان من الاخطار التي لم نأمنها بعد

قال سر بحراسة الله ولا تطل الغياب فاني في انتظارك وأنت تعلم حالي من القلق

فودعه وخرج على جواده وقد لبس ثياب السفر وسار قاصداً بيت المقدس فوصلها بعد أيام فجال في شوارعها حتى انتهى الى خان علم من قيافة صاحبه انه عربي فدخل والتمس مبيتاً عنده فأعد له غرفة نزل فيها وأرسل جواده الى الاسطبل . ثم بدل سلمان ثيابه وجاء الى صاحب الخان فجلس اليه وجعل يحادثه في مواضيع مختلفة حتى تطرق الى حكاية هرقل وما كان من مجيئه الى هناك فآنس في الرجل علماً ببعض الحكاية فقال له وهل رأيت القيصر يوم مجيئه

قال رأيته ماراً بموكبه يوم وصوله ثم تراكمت علينا الاشغال لتقاطر أهل القرى والبلاد الى بيت المقدس

فقال وهل يرد عليكم كثير من العرب ام كل زائريكم من الروم والسريان واليهود من اهل هذه البلاد

قال قلما يرد علينا قوافل من العرب أما في هذا العام فقد جاءنا كثير منهم

فقال وما سبب ذلك

قال لان القيصر بعث الى أمير من أمراء الحجاز يقال له ابو سفيان فجاء برجاله وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعاً في هذا الخان ومكثوا مدة بيننا فانتفعت المدينة بقدومهم لما يبتاعونه من الطعام لهم والعلف لخيولهم ويظهر انهم من اهل الرخاء خلافاً لما تعودناه من فقر اهل الحجاز وقلة أموالهم كما هو مشهور من جدب ارضهم

فقال سلمان كثيراً ما سمعت بأبي سفيان هذا وعهدي به من أعظم امراء مكة وانه كثيراً ما يقدم برجاله الى الشام وضواحيها للاتجار

فقال ولكنه قلما يأتي بيت المقدس . اما في هذا العام فقد جاء بامر من القيصر

قال وما الذي دعا القيصر الى استقدامه ومن يكون ابو سفيان حتى يهتم قيصر الروم باستدعائه

فأحكى له حكاية الكتاب الذي ورد على هرقل وماكان من امره حتى انتهى الى سفره الى بيت المقدس

فاراد سلمان ان يستطلع خبر سيده فقال اظن العرب الذين يأتونكم كلهم او اكثرهم من الحجاز ويندر ان يأتيكم احد من أهل العراق

وكان الخاناتي قد علم من لهجة سلمان انه عراقي فقال كثيراً ما يأتينا من تجار العراق ايضاً ولكن قدومهم يكون غالباً في ازمنة المواسم والاعياد عندما يكثر الواردون الى القبر المقدس لان الناس يحجون الى اورشليم من جميع اقطار العالم فيأتي الباعة والتجار من سائر البلدان ايضاً لعرض سلعهم

وبضائعهم واهل العراق يحملون الينا مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه وشيئاً من محصولات العراق كالتمر وغيره

فقال هل جاءكم احد منهم في هذه الاثناء

قال رأيت كثيرين ولكن لم ينزل منهم احد عندي الا اميراً جاءنا يوم سفر ابي سفيان وسار معه

فتوسم سلمان من ذلك خيراً فقال هل عرفت اسم ذلك الامير

قال اظنني سمعتهم ينادونه عبد الله

فتحقق سلمان أنه سيده بعينه فقال هل تعرف شيئاً عن هذا الامير بعد سفره

فاطرق الخاناتي هنيهة ثم قال لقد اذكرتني من شأن هذا الامير ما يتفطر له القلب

فاقشعر بدن سلمان عند سماعه ذلك حتى ظهر الارتباك على وجهه وتطاول بعنقه نحو الخاناتي وقال لقد شغلت بالي يا اخا العرب بما اشرت اليه فهل اصيب الامير عبد الله بسوء

قال كلا لم اسمع عنه شيئاً من هذا القبيل ولكنني علمت انه اصيب بفقد ولد له اكلته السباع في مسبعة الزرقاء

فعجب سلمان والتفت الى الخاناتي باهتمام وقال اعترف لك يا سيدي ان امر هذا الامير يهمني كثيراً لانه سيدي وانما جئت للتفتيش عنه فهل تتفضل بتفصيل حكايته وما تم له ومن انبأه بمقتل ابنه

قال لا اخفي عليك شيئاً مما اعرفه من هذا القبيل فقد جاءنا هذا الامير يوم سفر ابي سفيان ولحظت انه سار في ضيافته . فلما خرجت القافلة ارسلت معها بعض خدمة الخان ليشيعوها لعلها تحتاج الى ارشاد في اختيار بعض الطرق دون غيرها . وكان مع القافلة جواد عثروا عليه شارداً في بعض السهول أثناء مجيئهم الى الشام . فلما همت القافلة بالمسير قدم ابو سفيان ذلك الجواد للامير عبد الله ليركبه فلما رآه هذا عرف انه جواد ولد له كان قد فارقه في بعض جهات

الزرقاء فالتبس عليه امر الجواد وفراره فاحكى حكايته هذه لابي سفيان فرافقه هذا مع بعض رجاله الى المكان الذي رأوا الفرس فيه . وبلغني انهم عثروا على بقايا فرس آخر تحت شجرة واشياء اخرى استدلوا منها على ذهاب الغلام فريسة السباع . فبكى ذلك المسكين بكاءً مرًّا وندب ابنه وبالغ ابو سفيان بتعزيته فلم يتعزَّ

وكان سلمان في اثناء هذه الحكاية مصغياً وقلبه يخفق . فلما وصل الخاناتي الى هذا الحد احس سلمان بقشعريرة وقف لها شعره وقال للرجل وماذا تم له بعد ذلك

قال سمعت انه لما تحقق موت ابنه لم يعد يحلو له الذهاب الى منزله في بصرى فسار مع القافلة الى الحجاز

فقال سلمان وهل تحققت انه سار الى الحجاز

قال هذا ما سمعته ولا ادري اذا كان قد عدل عنها بعد ذلك

فقال سلمان وقد ظهرت البغتة على وجهه اني اعترف لك باهمية هذه الحكاية عندي وأشكر الله لنزولي عليك حتى سمعت هذا الحديث منك ولكنني ارجو ان تزيدني ايضاحاً ما استطعت

فقال الخاناتي لقد رأيت من اهتمامك وظهور البغتة على وجهك ما حرك فيَّ الاهتمام لمعرفة مصير هذا الامير فلندعُ المكاري الذي قص الخبر عليَّ بعد عودته لعله يزيدنا ايضاحاً . قال ذلك ونادى المكاري وكان مشتغلاً ببعض شؤون الخان فجاء فسأله عما يعلمه من تفاصيل حكاية عبد الله

فاحكى القصة كما قالها الخاناتي مع بعض التفصيل حتى انتهى الى مسير القافلة بعد الرجوع من مسبعة الزرقاء فقال رأيت ذلك الامير عائداً على قدميه يحمل سيف ابنه وعباءته وكان قد عثر عليهما عند ضفة غدير هناك فاستأنس بهما واشتم رائحة ابنه منهما واما الجواد فكان مسوقاً وراءه كئيباً كأنه علم بمصير صاحبه . فلما وصلوا الى الطريق دعاه ابو سفيان للمسير معه الى الحجاز او ان يوصله الى منزله في بصرى فقال انه لا يريد العود الى بصرى ثم تردد في الذهاب الى الحجاز ولكنه رافقه وساروا جميعاً وعدنا نحن ولا نعلم ما تم له بعد ذلك

فقال سلمان ألم تسمعه يذكر عمان وعزمه المسير اليها

قال لا اذكر اني سمعته يقول شيئاً من هذا القبيل

فبهت سلمان برهة يفكر في ما سمعه وقد علم ان سيده لا يصبر على ما ظنه من ذهاب حماد فريسة للسباع وخاف أن يكون قد حمله ذلك على مهاجرة الشام والمسير الى الحجاز مع أبي سفيان ولكنه رأى اذا فعل ذلك سيده لا يخلو من المسارعة وهو يعلم أن عبد الله عاقل لا يأخذ الامور بظاهرها . فلبث برهة يفكر ثم استأذن الخاناتي في الذهاب الى غرفته ليتبصر في الامر بعد ان شكره لما قصه عليه

فلما خلا في غرفته اخذت الهواجس تتقاذفه وهو يفكر في الامر وقد انقبضت نفسه خوفاً مما قد يصيب سيده من عواقب اليأس وعظم عليه الرجوع الى حماد بهذا الخبر المشوم فضلاً عن انه لا يفيده شيئاً. فقضى بقية ذلك النهار وطول الليل في مثل هذه الهواجس فلاح له بعد اعمال الفكرة ان يتبع خطوات سيده بنفسه فيسير الى عمان لعله يقف على ما يجلو له وجه الحقيقة

فلما أصبح سار الى الخاناتي واطلعه على عزمه واستأذنه في مسير ذلك المكاري معه فاطاعه فركب سلمان والمكاري في ركابه وكلما مرّا بمكان أحكى له المكاري واقعة حاله حتى تجاوزا طريق المسبعة ووصلا الى النقطة التي عاد المكاري منها فقال سلمان ألا تسير معي الى عمان لعلنا نسمع هناك خبراً جديداً

قال اني في ركابك الى حيثما تريد ولكنني سمعت منذ أيام ان بالقرب من عمان جماعة من قريش جاؤوا لمحاربتنا فلا نأمن اذا رأونا أن نقع في ايديهم غنيمة باردة

فتذكر سلمان انه سمع مثل ذلك قبل خروجه من بصري أيضاً فتردد في الامر ولكن نفسه لم تطاوعه على الرجوع قبل الوصول الى عمان . فقر رأيه على الذهاب اليها من طريق مجهولة لا يطرقها الا القليل من الناس والمكاري يعرفها فسارا حتى انتهيا الى عمان . فلم يجد فيها أثراً ولا خبراً

فعاد سلمان يئساً حزيناً لا يدري كيف يقابل حماد بهذا الخبر الابتر

على انه كان يتوهم ان سيده ولو أطاع عواطفه في حال تأثرها وسار الى الحجاز لا يلبث ان يهدأ روعه ويعود الى البلقاء للبحث عن ابنه ولا اقل من ان يرجع الى بصرى بعد ان عفي عنه فيتفقد ما اذخروه من المال والمثمنات في منزلهم بغسام

فقضى سلمان طول الطريق في عودته وهو يفكر في ذلك وكثيراً ما حدثته نفسه ان يتأثر سيده الى الحجاز لو لم يعرض له الشك في مسيره اليها وعوّل اخيراً على الرجوع الى حماد والمداولة معه في هذه الشؤون فاذا تحقق ذهابه الى الحجاز سار للتفتيش عنه فيها

فلما وصل الى منعطف من الطريق يؤدي الى البلقاء رأساً اثنى على المكاري واكرمه وودعه وسار قاصداً حماداً

الفصل الحادي والثلاثون

حماد في خيمته

لم يكد يتوارى سلمان عن حماد يوم خروجه الى بيت المقدس حتى أحس حماد بالوحشة لانفراده في تلك الخيمة بعيداً عن حبيبته قلقاً على والده فجلس يفكر في ما مر به ذلك العام من الاهوال وما رآه من حوادث الايام وتذكر حاله قبل قدومه البلقاء يوم كان خلي البال لا يعرف الهواجس فعلم ان السبب في ذلك كله الحب فتذكر هنداً وما ناله من رضاء والدتها فرقص قلبه طرباً ونسي ما ينتابه من الشواغل والحب مع ما وصفه به امام العاشقين بقوله

فعش خالياً فالحب راحته عنى   فاوّله سقم وآخره قتل

فهو اذا رضي الحبيب تعزية للمحبين ينسيهم الهموم ويخفف عنهم الاحزان

فلم يكن لحماد تعزية في غربته وهواجسه الا رضاء حبيبته فاذا تراكمت عليه الاحزان تذكرها وتصور قربها فتنتعش جوارحه وتثوب اليه آماله

فينجلي صدره وتنبسط نفسه

فلبث برهة في خيمته يتردد بين اليأس والرجاء ينقبض صدره تارة وينبسط اخرى حتى كان المساء فسمع خوار ثور بين الخيام فعلم ان مضيفه عائد من مرعاه فحسده لسذاجته وقلة شواغله ولبث يفكر في امره وود لو انه في مثل حاله خلي البال قليل البلبال لا يهمه من دنياه الا ما يرجوه من غلة ارضه أو نتاج ماشيته ولكنه تذكر ان ذلك الشيخ لا يعرف الحب ولا شعر بلذته فخيل له انه اشبه بالحيوان الاعجم منه بالانسان

وفيما هو يتأمل سمع وقع خطوات بالقرب من الخيمة علم من خفتها انها خطرات الشيخ لانه كان لا يمشي الا حافياً فتحفز لاستقباله فاذا به قد دخل الخيمة والمنجل لا يزال في يده وقد كسا لحيته وعمامته الغبار وانفتح قميصه عن صدره فبان الشعر متجعداً كأنه نبت الربيع يعانق بعضه بعضاً . فلما رآه حماد وقف له وحياه اكراماً لشيخوخته فالقى الشيخ المنجل عند باب الخيمة ودخل وعلى وجهه ملامح البشر حتى كاد يبتسم وكان قد عاشره اياماً لم ير ثغره باسماً قط . على انه قلما رآه منقبضاً او مهتماً فلما رآه يبتسم أحس بارتياح وسرور ودعاه الى جانبه واخلى له مجلساً على البسط فأبى الجلوس الا على الارض فجلس وهو يحك احدى كفيه بالاخرى لينزع ما علق بهما من التراب فلما تفتت التراب عنهما جعل ينفض لحيته البيضاء لينزع ما علق بها من الاتربة

فبدأ حماد بخطابه قائلا كيف انت اليوم ايها الشيخ ارجو ان تكون في خير وعافية

فنزع الشيخ عمامته وتشاغل بنقرها لينفض غبارها ثم قال نحمد الله على خيراته فقد سرني اليوم ان بقرتي ولدت عجلاً ابلق ولا يمضي عليه العام او العامان حتى استخدمه في الحراثة فيغنيني عن تربية البنين وهمومهم

فعجب حماد لسذاجة البداوة وقلة هموم اهلها فاراد مداعبته فقال له أيكفيك من دنياك رعاية الماشية وتربية العجول والغسانيون متمتعون بالسلطة والسيادة — وكان حماد عالماً بما يتقوله الانباط على الغسانيين كما تقدم

فضحك الشيخ مستهزئاً وقال لا يغرنك من دنياك يوم نعيم فانها لا تحسن يوماً حتى تسيء اياماً . فلا تفرح للحارث الغساني من اجل يوم استبدّ فيه فقد جاءه من ينزع عنه السيادة ويلحقه باجداده اصحاب سيل العرم الذين اتانا جاؤونا فراراً من الفقر بعد ان كانوا يقيمون في ارض تستقي من مستنقعات يجمعونها من مياه الامطار وراء سد من حجر . فلما انهدم السد سال الماء فاغرق السهول ولم يعودوا يستطيعون بناء السد لضعفهم وقلة تدبيرهم فاجدبت ارضهم ففروا في جملة من فر منها الى هذه البلاد منذ قرون متطاولة وقدر لهم الملك عن غير استحقاق فجاءهم الان من ينزع الملك منهم ويكسر شوكتهم ويعلمهم ما لهم وما عليهم

فعلم حماد ان الشيخ يشير الى حكاية سيل العرم في جهات اليمن وما كان من تفرق بني قحطان بعده والغسانيون في جملتهم . ولكنه لم يفقه ما اراده من قوله بقرب زوال ملكهم فقال له وما تعني بزوال ملكهم ونحن لا نراهم يزدادون الا قوة ومنعة

قال ألم تسمع بالعدنانيين الذين قدموا من الحجاز في هذه الاثناء فقد جاؤوا جماعة كبيرة ليقتصوا من الغسانيين ويبيدوهم عن آخرهم

فقال وما اوجب الاقتصاص واي علاقة بينهما والحجاز على مسافة ايام من الشام والناس هناك في شاغل باصلاح دينهم فقد ظهر فيهم من يدعوهم الى دين الله وقد سمعت بانه أنشأ فيهم دولة جديدة دانت لها كل بلاد العرب فاهل الحجاز في شاغل عن هذه البلاد

فضحك الشيخ وقال كل ذلك من تدبير الله . واما ما أوجب مجيء العدنانيين فهو وقاحة الحارث الغساني وكبرياؤه . فقد انبأني بعض المارين من هنا ان نبيّ قريش الذي ذكرته كتب الى الحارث كتاباً يدعوه فيه الى دينه فبدلاً من ان يقرأه ويتأمله ويرد الرسول رداً جميلا مزق الكتاب وأهان الرسول فشق ذلك على صاحب الرسالة فانفذ جنداً لحرب الحارث وفتح بلاده

فاهتم حماد بذلك الخبر لعلمه ان الحرب اذا قامت عرقلت مساعيه وحالت

بينه وبين ما يريد فضلاً عما يخافه على هند من الخطر لان جبلة لا بد له من نصرة ابن عمه الحارث . على انه لم يكن يخاف انهزامهم لما كان يتوهمه من ضعف أهل الحجاز وقلة خبراتهم كما هو مشهور عن تلك البلاد منذ القدم . ولكن خوفه على هند من عواقب الحرب همه كثيراً فلبث برهة يفكر في أمره ثم قال للشيخ وهل انت واثق بمجيء هؤلاء الحجازيين

قال لا ريب عندي من ذلك

قال ألعلك سمعت الخبر عن ثقة

قال سمعته من خبير وهمني أمره كثيراً حتى تحققته اذ يسرني خذلان الغساسنة فقد قلت لك انهم اعداؤنا . وكان ذلك الشيخ النبطي يظن حماداً يفرح بسقوط دولة بني غسان لانه من لخم ولم يدر ان قلبه في صرح الغدير

فلبث حماد صامتاً لا يدري ماذا يعمل وتذكر سلمان ووالده فتراكمت همومه فالتفت الى الشيخ فاذا هو قد ذبلت عيناه وغلب عليه النعاس شأن المشتغلين مثل شغله على خلو بالهم وخصوصاً من كان في مثل سنه فانك بينما انت تخاطبه في شأن لا تلبث ان تراه ينام — فتركه حماد واشتغل بهواجسه

ثم أفاق الشيخ مذعوراً لصوت ثيرانه وهمّ بالخروج من الخيمة وهو يقول لقد تقاتل الثوران فخرج حماد في أثره وكان الليل قد سدل نقابه فسارا حتى دنوا من مربط الثيران فاذا هي لا تتقاتل ولكنهما شاهدا بينها جملاً غريباً . فتقدم الشيخ اليه وامسكه بعنقه وأبعده عن ثيرانه حتى دنا به من نار موقدة يستضيء بها وحماد يراعيه بعينيه ولم يكد الشيخ يتأمل ذلك الجمل حتى ضحك وقال وهذه ناقة من نوق أهل المدينة قد تخلفت عن جند الحجاز الذي قلت لك انهم جاءوا لحرب الغسانيين

فقال حماد وما الذي دلك على ذلك

قال دلني عليه شكل الرحل فانه خاص بأهل المدينة وكثيراً ما رأينا امثال هذه النوق مارة بنا الى الشام وغيرها

فقال حماد يظهر ان هؤلاء العدنانيين قد أصبحوا على مقربة منا.

فقال الشيخ لا اظنهم قريبين فقد يكون بيننا وبينهم مسافة ايام ولعل هذه

الناقة تاهت منذ بضعة ايام — قال ذلك وهو يعقلها ويأتي لها بالعلف

فتركه حماد وعاد الى خيمته وقد تمثل له الامر بجسامته فعظم عليه ان يذهب امله ادراج الرياح لاشتغال جبلة بالحرب فشعر باحتياجه الى سلمان فصبر نفسه ريثما يعود اليه بالخبر عن والده

الفصل الثاني والثلاثون

سلمان واخباره

وبعد ايام عاد سلمان كاسف البال لخيبة مسعاه في التفتيش عن سيده وكان حماد قد مل الانتظار فاستطلعه كنه ما علمه فاحكى له ما سمعه ثم قال يلوح لي ن سيدي رافق ابا سفيان الى الحجاز اذ يظهر مما سمعته انه تحقق خبر مقتلك فلم يبق له وطر في الحياة. ولعل ابا سفيان حبب اليه السفر ورغبه في المسير الى الكعبة فجاراه

فقال حماد لا اظنه يفعل ذلك قبل ان يأتي بصرى ويستخرج الخبأة التي خبأناها في غسام

فقال وما ادرانا انه لم يأت اليها بعد ان استخرجناها او لعله ارسل من يبحث عنها ولم يظفر بها وعلى كل حال ان سيدي ليس في فلسطين ولا البلقاء ولا عثرت عليه في عمان ويؤخذ من مجمل ما سمعته انه سار الى الحجاز فهل تأذن لي في الذهاب الى مكة للتفتيش عنه

قال لو كنا على يقين من ذهابه اليها لسرت انا بنفسي ولكننا انما نرجم بالغيب وزد على ذلك اننا في حال تدعو الى القلق من أمر الحرب المنتظرة بين الحجازيين والغسانيين وقد سمعتك تشير اليها في اثناء حديثك وكنت في ريب من امرها مع اني سمعتها من شيخنا النبطي منذ أيام

فقال سلمان اما مجيء هؤلاء الرجال فلا شك فيه لاني شاهدت معسكرهم شهادة عين بجوار عمان وأما سيدي فالارجح انه سار الى الحجاز او لعله

أصيب بما عاقه عن المجيء الى بصرى ولا يلبث ان يأتي فاذا لم يرد بعد أيام علمنا انه سار مع ابي سفيان الى مكة

فلم ير حماد بدّاً من التربص لما سيظهر من هذا القبيل ولكنه عاد الى امره مع هند وما عسى ان يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف ان يتغلب القنوط على قلبها فيذهب سعيه هدراً

فقال عليك يا سلمان ان تتردد الى بصرى لعلك تسمع شيئاً عن والدي ولا تنس البحث عن هند ووالدها فقد علمت ما داهم الغسانيين من امر الحرب على حين غفلة واخشى اذا حمي وطيسها ان تذهب آمالنا كلها ادراج الرياح

فقال سلمان والقلق ظاهر على وجهه وما ادراك انني غافل عن هذا الامر وهو شاغل فكري ليلاً ونهاراً وكنت عازماً على استئذانك في الذهاب الى بصرى في صباح الغد فقد سمعت الناس يتقولون اقوالا لم أصدقها

فبغت حماد وقال وماذا عسى ان يكون تقولهم وعمن يتقولون — قل ما الذي سمعته

قال لم اسمع شيئاً يوجب قلقاً لاني على يقين من حب هند وثباتها في حبك

فازداد حماد دهشة وقال هند .... وما شأن هند وماذا يتقوّل الناس عنها قل يا سلمان .. ؟

قال هدىء روعك فاني لا أخفي عنك شيئاً وخصوصاً ان ما سمعته لا يوجب قلقاً ولا يجرّ الى خوف

فقال حماد وقد نفد صبره قل ماذا يقولون

قال سمعت الناس يتحدثون في بصرى وضواحيها ان ثعلبة طلب الاقتران بهند فلما سمع حماد اسم ثعلبة مقروناً باسم هند قف شعره واقشعر بدنه وقال وكيف طلب ذلك ومتى .. ؟

قال سمعت انه طلبها بواسطة والد الحارث وان والده خاطب جبلة فوعده

فصاح حماد وبماذا وعده ....

فقال سلمان وهو يبتسم مالي أراك قليل الصبر خفف عنك واصغ الى ما أقول فقد عهدتك صبوراً حازماً

قال اني صبور على كل شيء الا على هند .. قل ما كان وعده

قال وعده بمخاطبة الفتاة أو بالحري بمشاورة والدتها اذ لا تجهل ان اقتران البنات قلما يتوقف على ارادتهن

فقال حماد وماذا كانت النتيجة

قال لم أحقق الخبر بعد فقد قال بعضهم انه خاطبها ولم تقبل وقال آخرون انه لم يخاطبها بعد ولكن صديقاً لي من اهل بصرى صادفته على أثر هجوم ثعلبة على منزلنا يوم قبضوا على سيدي الامير وأظنه اعلم الناس بحقيقة الواقع انبأني امس وقد لقيته في الطريق بجوار بصرى ان الحارث استبطأ جواب جبلة بشأن هند فسار اليه ثانية يستعجله في الجواب على أثر قدوم هؤلاء الحجازيين لانه يريد التعجيل في الاقتران قبل انتشاب الحرب

تخفق قلب حماد كمن أخفق مسعاه ووقف وقد امتقع لونه وقال ما هذه الاحاديث يا سلمان فاني اراني في حلم اتظن آمالنا ومساعينا قد ذهبت عبثاً وهل ترضى هند بابن عمها ثعلبة . قال ذلك والدمع يكاد يتناثر من عينيه

فاتقدت الشهامة والغيرة في قلب سلمان وهمّ بحماد فضمه الى صدره وقال له خسىء النذل ان هنداً أرفع من ان تدنس قلبها بمحبته وأنت أعلم مني بانفتها وعزة نفسها وكرهها لثعلبة ويلوح لي ان التباطؤ في جوابها ناتج عن تمنعها

فانتعش حماد لذلك الكلام ولكنه ما زال خائفاً من أن تؤخذ الفتاة قسراً فقال حاشا لقلب هند أن يحب ذلك الخائن ولكنني أخاف ان تحمل على القبول به مراعاة لعلاقة أبويهما لما بينهما من النسب وما يخشى من عواقب الرفض فقد يصعب على هند أن ترفض ما يريد أبواها

فقال سلمان لا يصعب عليها ذلك ووالدتها نصيرة لها فقد آنست من هذه المرأة يوم قابلتها وانا في زي الراهب ما دلني على دهائها وقوة جنانها فهي اذا ارادت تحويل زوجها عن امر لا يصعب عليها

قال حماد ومن ينبئنا بقائها على ذلك ونحن لم نر من حديثها في ذلك

اليوم ما يدلّ على اخلاصها لنا وزد على ما تقدم ان مجاراة جبلة في رفض ثعلبة لا يضمن لنا رضاه بسواه (يريد نفسه)

فادرك سلمان وعورة المسلك ولكنه أظهر الاستخفاف به وقال دع ذلك اليّ فاني ذاهب في صباح الغد لاستطلاع الخبر وتدبير الحيلة والله يفعل ما يشاء فسكت حماد لا عن اقتناع ولكنه صبر نفسه ينتظر ما يأتي به القدر

الفصل الثالث والثلاثون

وعند جهينة الخبر اليقين

وباتوا تلك الليلة وحماد لم ينم الا قليلاً لما تراكم عليه من الهواجس أما سلمان فقضى ليلته يفكر في سبيل يوصله الى المراد فنهض في الصباح التالي وفي نيته الشخوص الى صرح الغدير لاعتقاده ان الخبر اليقين عند هند فلبس ثياب الرهبان وركب جواده وسار حتى اذا أتى الصرح سأل عمن يقيم فيه فقيل له ان جبلة برحه منذ ايام بعد أن جاءه لزيارة . فتقدم الى باب الحديقة فاستقبله بعض الخدم وسأله عن غرضه فقال انه جاء بمهمة من رئيس دير بحيراء الى الاميرة سعدى وطلب مقابلتها فسألوها فاذنت بدخوله . فلما خلت به عرفته فسألته عن حماد فانبأها بحاله وانه جاء يستطلع ما تمّ من أمره فاستدعت هنداً وكانت في غرفتها تفكر في حماد وهي لا تعلم مقره فلما سمعت بمجيء سلمان خفق قلبها وأسرعت اليه وامارات البغتة تلوح على وجهها . فلما رآها سلمان قام لها وسلم عليها وطمأنها عن حماد وسألها عن صحتها فطمأنته وكان سلمان في أثناء الحديث يراقب حركات سعدى لعله يلاحظ فيها ما كان يخافه من اخلافها فآنس منها ما حقق آماله برضائها ولكنه ما زال قلقاً لما عساه ان يكون من أمر ثعلبة وطلبه فجعلوا يتجاذبون أطراف الحديث واكثره بين سلمان وسعدى فعلم سلمان ما كان من عدول جبلة عن ثعلبة ورضائه بحماد فسرّ سروراً لا مزيد عليه حتى رقص قلبه من الفرح وود لو أن له

اجنحة يطير بها الى حماد يبشره بذلك

ثم قال لسعدى وما هو موعدنا من مخاطبة سيدي الملك بهذا الشأن

قالت نحن على موعد من مجيئه الينا بعد أيام فاذا كان يوم مجيئه يتقدم حماد في طلب هند فينال مبتغاه . وكانت هند في أثناء ذلك مطرقة حياء لا تتكلم وقلبها يرقص طرباً . فقال سلمان ومن ينبئنا بذلك اليوم ونحن بعيدون عن هذا القصر

قالت نبعث معك من يعرف مقركم فاذا كان اليوم المعهود أرسلناه في طلبكم

قال حسناً وهمّ بالخروج فوقفتا له فودعهما وخرج وهو لا يصدق انه سمع ما سمعه ولكنه لم يعلم بما سيقوم في سبيل سيده من العقبات . ورافقه خادم انتدبوه لهذه المهمة على ان يكتمها

ولا تسل عن فرح حماد بلقاء سلمان وما كان من سروره لما سمعه حتى تمثلت له السعادة عبداً رقاً ونسي والده وضياعه لا عن عقوق ولكن الحب تغلب عليه فوعد نفسه بالبحث عن والده بعد ان يصير صهراً لملك غسان فيكون أقدر على ذلك لما يرجوه من مساعدة عمه

فلنتركه في فرحه ولنرجع الى جبلة وما كان من أمره بعد رجوعه الى صرح الغدير فانه ما لبث ان توارى عن الصرح حتى انجلى له خطأه وما كان من تهوره في مجاراة امرأته بشأن حماد ولم يعلم كيف يجيب الحارث عن طلبه وقد عظم عليه ان يرده خائباً بعد أن وعده لما في ذلك من ضعف الرأي فقضى معظم الطريق في مثل هذه الهواجس فلاح له أخيراً ان يكتم حقيقة الامر ويجعل جوابه تأجيل الخطبة الى ما بعد انقضاء الحرب على نية ان يبعث حماداً في مهمة لا يعود منها واذا عاد انما يعود خائباً فلا يستطيع طلباً ولا ينال وطراً

الفصل الرابع والثلاثون

ثعلبة

اما ثعلبة فقد دبر ما دبره وهو على ثقة من رضاء هند به ولو قسراً ثم علم بضياع عبد الله وترجح لديه مقتل حماد مما نقله اليه جواسيسه الذين انفذهم في أثر عبد الله عند خروجه من بيت المقدس وذلك ما كان يتمناه فهمدت غيرته على هند لانه انما طلب الاقتران بها ليمنعها عن حماد فلما علم بمقتله ود الرجوع عن طلبه لتبقى منغصة العيش فتخسر الاثنين معاً . فاخذ يترقب فرصة يؤجل بها الاقتران ثم يسعى في سبيل ينتقم به من هند وكانت تحدثه نفسه اذا قبلت هي به ان يجيبها بالتأجيل والوعود حتى تموت كمداً الا اذا علم بعد ذلك ان حماداً لم يقتل فيعود الى طلبها

ولم يكن والده يعلم بحقيقة مراده فكان يستعجل جبلة في امر الاقتران ظناً منه ان ذلك يسر ابنه ويجعل عيشه سعيداً فلما سمع بمجيء الحجازيين الى عمان سار بنفسه الى جبلة وألح عليه بامر الاقتران قبل انتشار الحرب كما تقدم ثم تواردت عليهم الاخبار باقلاع اولئك العرب الى عمان وشخوصهم الى البلقاء وبلغ ذلك ثعلبة فجاء الى والده وتداولا في اعداد المعدات وتحصين الحصون في حدود البلقاء فجرهم الحديث الى هند والاقتران بها فاخبره والده انه استعجل جبلة في استجواب هند بشأن الاقتران وانه لا يشك بقبولها وأوعز اليه ان يستعد للزفاف على أبسط الطرق بلا احتفال الى ما بعد انتصارهم فيكون الفرح مزدوجاً

فصمت ثعلبة برهة كمن يفكر في امر همه ثم قال ان حالتنا الحاضرة يا أبتاه لا تؤذن لنا بالاحتفال كما قدمت فلا أرى ان نستعجل بالاقتران ولا بأس من تأجيله حتى تنقضي الحرب . فعجب والده لجوابه بعد ما آنسه من الحاجة قبلاً ولكنه حمل ذلك منه على رغبته في الحرب فاستحسنه وقال له اراك تفضل

الاشتغال بدفع الاعداء على نيل ما طالما كنت تتمناه وهي شهامة غسانية نذكرها لك

وكان الحارث يفضل التأجيل أيضاً ولكنه كان يلح على جبلة رغبة في ارضاء ابنه على انه خاف ان يكون في ذلك ما يسيء جبلة أو يكدر العلائق بينهما فقال وماذا نجيب عمك لو أجابنا بالقبول

قال نجيبه اننا في حال حرب لا تؤذن بالاقتران

قال ولكننا كنا في مثل هذه الحال يوم جئته وألححت عليه بطلب الفتاة وقد اعتذر اليَّ بحال الحرب فاجبته اننا نود الفراغ من الاقتران قبل انتشابها فكيف نعود اليه بهذا العذر ألا ترى في ذلك ما يحمله على اساءة الظن

قال لا يهمنا ساءه هذا الامر او سره فاننا نريد التأجيل

فعجب الحارث لطيش ابنه وتغافله عن حقيقة العلائق بينه وبين عمه فقال له ألا تعلم يا ولدي ان مثل هذه الظنون تسوق الى حرب بيننا وبينه فاذا كنت غافلاً عن ذلك فما أنا بغافل وعلى كل فان المسألة دقيقة تحتاج الى دقة نظر وحسن اسلوب

فلبث ثعلبة برهة يفكر وقد انتبه لحرج المقام وكانت الغيرة والانتقام قد غشيا بصره فقال لوالده ولكن حال اليوم غير ما كانت عليه يوم استعجلت جبلة في الاقتران فقد كان الاعداء اذ ذاك في عمان وهم قد اقاموا الآن من هناك وتحركوا نحو البلقاء فاجعل ذلك سبباً للتأجيل

فرأى الحارث في كلام ثعلبة بعض العذر فعول على الالتجاء اليه في مخاطبة جبلة

وفيما هما في ذلك جاءهما رسول من جبلة يستقدم الحارث للمداولة بشأن الحرب

فقال الحارث ها اني ذاهب الى البلقاء لترى ما تم من امر جبلة بشأن الحرب واذا خاطبني في امر هند عمدنا الى التأجيل كما قدمنا فاشتغل انت بتدبير الجند واكتب الى الامراء أن يجمع كل منهم رجاله تحت رايته ويتأهبوا لحرب ... ... فاذا رأيت فيهم تقاعداً استحثهم واستنهض هممهم وادفعهم

اليهم ما يحتاجونه من المال واستشر في ذلك البطريق رومانوس فانه قد أوعز الي ان اجمع عشائر غسان التابعين للواثنا ولا بد من انه قد كتب الى جبلة بمثل ذلك أيضاً فكن على استعداد وان تكن حالتنا مع اولئك الحجازيين لا تستدعي كثير اهتمام

فقال ثعلبة اني عامل على ما تريد ولكنني أرجو ان تتم ما تكلمنا فيه من تأجيل الاقتران . فوعد بذلك وركب وركبت حوله رجال حاشيته وسار قاصداً البلقاء

الفصل الخامس والثلاثون

جبلة والحارث

تركنا جبلة في حيرة من الاقتران وتأجيله وهو في طريقه من صرح الغدير الى البلقاء فلما وصل البلقاء سمع بتحرك الحجازيين من عمان فقال في نفسه ان هذا عذر يساعدني على ما اريد فان زحف الاعداء الينا عذر كاف للاشتغال به عن كل شاغل. فكتب الى الحارث يستقدمه اليه لان البلقاء أقرب الى عمان من بصرى وألح عليه في المجيء وذكر في كتابه انه يريد المداولة معه بشأن الحرب توصلاً بذلك الى تأجيل الاقتران فسار الحارث اليه كما تقدم

فلما التقيا سلما واسرعا الى خلوة تداولا فيها سراً

فقال جبلة قد دعوتك يا ابن العم للبحث في الوسائل التي يجب اتخاذها لدفع هؤلاء القادمين فقد علمت انهم تحركوا من عمان شمالاً فهم بلا ريب يقصدون هذه الديار ولا يلبثون ان يأتونا وقد بثثت العيون يراقبون حركاتهم لينبئونا بمعسكرهم فاعدد لهم رجالك وها اني قد اعددت رجالي

فقال الحارث قد شاهدت العشائر في الطريق يستعدون للمسير اليكم وأوصيت ولدنا ثعلبة ان يكتب الى العشائر الاخرى لتجتمع بجوار بصرى فاذا اجتمعوا وعلمنا معسكر الاعداء حملنا عليهم معاً ولا أظننا نلقى مشقة في دفعهم

لقلتهم وفقرهم وقد علمت انهم حفاة الاقدام لا يلبسون الا شملات يلتحفون بها كما يفعل سائر أهل الحجاز لا يكاد يتميز اميرهم من صعلوكهم (١)

ويلوح لي اذا رأينا منهم ما أتعبنا ارضيناهم بمال ندفعه اليهم ولا نظنهم جاؤنا الا طمعاً بذلك لعلمهم بخيرات الشام وغنى دولة الروم . قال ذلك ليوهم جبلة أن مجيئهم ليس مبنياً على سوء معاملته لحامل كتابهم اليه

قال جبلة لا أرى ان نعرض عليهم ذلك الا بعد ان نرى منهم مقاومة ولكنني لا أظنهم يقفون أمام جندنا يوماً واحداً

ثم تذكر جبلة أمر ثعلبة وهند فقال قد ذكرت أن ولدنا ثعلبة يهتم بمكاتبة العشائر فهل هو في بصرى الآن

قال نعم هو هناك وقد اسفت لهذه الحال التي ستحول بيننا وبين الاحتفال بزواجه بابنتنا هند

فقال جبلة (وقد سر بهذا العذر) بالحقيقة انه يوجب للاسف على اني لا أرى مانعاً من تأجيل الاقتران الى ما بعد الحرب فان فرحنا اذ ذاك يكون مزدوجاً والاثنان ولدانا والامر معقود لهما منذ ولدا

فابتسم الحارث فرحاً من تأجيل الاقتران عفواً فقال لجبلة بورك فيك فقد كنت أميل الى ذلك واستحسنه واخشى اذا ذكرته لك ان تظن سوءاً فنشكر الله على توارد رأيينا ولا بد من ان يكون ذلك هو الصواب

فقال جبلة نعم انه الرأي الصواب وسأسير الى صرح الغدير فاطلع سعدى وابنتها بما تم عليه الامر لئلا تكون مشتغلة في الاستعداد بعد ان خاطبتها في التعجيل على اثر تعجيلك فلا بد من ابلاغها خبر التأجيل ولا احب ان يكون ذلك على يد احد سواي (وهو انما يريد المسير بنفسه للمداولة بشأن المهمة التي يريد ارسال حماد فيها)

فقال الحارث افعل ما بدا لك وفقنا الله لما فيه الخير . ثم خرجا وسأل جبلة عمن سار لتفقد حركات الاعداء فقالوا انه جاء فاستقدمه وعاد به والحارث معهما الى مكان منفرد وكان الرسول ممن خالط الحجازيين وأحسن تقليدهم

---

(١) المقريزي

فاختاره جبلة ليختلط بهم ويستطلع حالهم فانبأهما بانهم قاموا من عمان وساروا يريدون مؤتة عند الكرك (١) وانهم سيصلونها قريباً

فقال الحارث انظهم يصلون الينا

قال جبلة ربما فعلوا ذلك . ثم تحول نحو الرسول فقال له وهل عرفت عددهم وقواتهم قال لا يتجاوزن ثلاثة آلاف مقاتل وليس معهم من العدة والسلاح الا شيء قليل لا يقاس بعدة رجالنا وأسلحتهم

فضحك الحارث مستهزئاً وقال أبثلاثة آلاف فارس جاءوا من اقاصي الحجاز ليحاربوا الروم وجنودنا تتجاوز مئة ألف(٢) ومعهم الخيول والسلاح

فقال الرسول وقد علمت انهم ادركوا ضعفهم وقلتهم وربما وقفوا هنيهة ريثما يأتيهم المدد من الحجاز

فقال الحارث أعلمت انهم بعثوا يستقدمون المدد

قال الرسول كلا ولكنهم تداولوا في ذلك والارجح انهم لا يفعلون فقد سمعت مداولتهم وانا جالس بين جماعة منهم كأني أحدهم فقال قائل من بينهم « كيف نهاجم بلاداً لا يقل جندها عن مائة ألف مقاتل وقد يبلغ المئتين فلنطلب المدد » فقام رجل من كبارهم اسمه عبد الله بن رواحة فقال لهم « يا قوم والله ان الذي تكرهون للذي خرجتم له . خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدة ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الا بهذا الذي اكرمنا الله تعالى به فانما هي احدى الحسنيين اما ظهور وأما شهادة » فسمعت الناس يضجون قائلين « صدق والله ابن رواحة » فلا أظنهم بعد ذلك يستمدون اهل الحجاز

فقال جبلة وهل سمعت شيئاً من أهل القرى التي مروا بها فلا بد من انهم تعرضوا لهم وقطعوا اشجارهم وآذوهم

قال لم اسمع منهم تشكياً ولقد عجبت لحال هؤلاء الحجازيين فانهم على فقرهم وما يظهر من ضنك احوالهم لم يؤذوا احداً من أهل القرى الا الذين

(١) ابن الاثير (٢) السيرة الحلبية

اعترضوهم . ولقد بت في دير بين عمان ومؤتة وسمعت حديث الرهبان بشأنهم فرأيتهم يثنون على حسن تصرفهم فقد مروا بهم ولم يكلفوهم امراً غير ما احتاجوا اليه من ماء أو علف

فقال الحارث الظاهر انهم يلتمسون ثقة الاهالي حتى لا يكونوا عوناً عليهم في أثناء الحرب

فقال الرسول لا أظن ذلك غرضهم ولكنني سمعت من رجل جالسته بالامس فاتخذني صديقاً وقص عليَّ قصصاً كثيرة هو معجب بها عن النبي الذي قاموا بنصرته ـ ومما قاله لي انه لما خرج لوداعهم خارج يثرب وسلم الالوية اليهم أوصاهم قائلاً « اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً . اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام وستجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء » (١)

فاعجب الحارث وجبلة بهذه الاقوال ثم قال الاول اما وقد اقترب هؤلاء من البلقاء فلنبعث الى دمشق نستعجل الجند الرومي وليكن لقاؤنا اياهم دفعة واحدة نصدمهم فيها ونعيدهم من حيث أتوا . فوافقه جبلة على ذلك ولكنه ما فتىء يفكر في هند وحماد وما صدق ان عاد الحارث من عنده حتى ركب قاصداً صرح الغدير لا يصحبه الا فارسان فوصل القصر على غير انتظار فلما علمت سعدى بقدومه اشتغل خاطرها ولكنها ما لبثت ان علمت بسبب مجيئه فخلا بها واطلعها على ما تم بينه وبين الحارث ثم قال وهل أنت على ما علمنا من امر ذلك الشاب أم تمكنت من تحويل هند عن عزمها فرجعت الى صوابها

قالت قلت لك قبل الآن ان من يحاول تحويل هند عن حماد فانه يلتمس امراً مستحيلاً

فتنهد أسفاً لما فرط منه تلك الليلة من القبول بمشورة سعدى بشأن هند وحماد ثم قال فاني بالحيلة التي عمدت بتدبيرها لاتخلص من هذه الورطة

---

(١) السيرة الحلبية

الفصل السادس والثلاثون

قرطا مارية

قالت أرى ان نطلب اليه شيئاً صعب المنال يقدمه مهراً لهند فاذا لم يستطعه كان الجاني على نفسه وكنا براء من لوم هند . وقد كلمتها بهذا الشأن فرأيت فيها ميلاً الى ذلك فهي تحب ان تعلو منزلة حماد في عيون أهلها فاذا اقترحنا عليه عملاً يعمله في سبيل الحصول عليها فانها تزداد افتخاراً به كلما زاد ذلك العمل عظماً وخطراً

فقال وهل خاطبتها في ماهية ذلك الاقتراح

قالت كلا

فقال وهل عينت الاقتراح في ذهنك أم انت تنتظرين البحث في شأنه الآن . قالت أظنني عينته وساعرضه عليك لعلك تستحسنه والا فاننا ننظر في سواه

قال وما هو قولي

قالت لا يخفى عليك ان جدتنا مارية بنت ظالم اخت هند الهنود امرأة حجر الكندي آكل المرار هي جدة ملوك غسان كافة

قال نعم اعلم أنها صاحبة القرطين اللذين يضرب المثل بهما

قال لقد نطقت بالصواب نعم اياها اعني فلا يخفى عليك ان قرطيها اللذين ذكرتهما لم يلبس ملوك الارض مثلهما لان فيهما درتين كبيضتي حمام لم ير الناس مثلهما ولم يدروا قيمتهما (١)

قال نعم انهما ثمينتان

قالت أتدري أين قرطاها الآن

فبهت جبلة مدة ثم قال نقل لي والدي عن جدي عمن قبله ان جدتنا

---

(١) مجمع الامثال للميداني

مارية اهدت قرطيها الى الكعبة في مكة على سبيل النذر ويظهر انها كانت وثنية ولولا ذلك لم تهدِ مثل هذه التحف الى الكعبة

فقالت مهما يكن من امرها فان قرطيها لا يزالان في الكعبة [1]

قال نعم

قالت فاري ان نقترح على حماد الاتيان بهما مهراً لهند تلبسهما في زفافها فما قولك

فاعجب جبلة بذكاء سعدى وحسن اختيارها ودقة نظرها وتبسم وقد ابرقت اسرته كأنه رأى باب الفرج قد فتح فقال بورك فيك ونعم الرأي رأيك انه اقتراح لا يتأتى لبشر ان يأتي بمثله لانه بعيد المنال واذا فرضنا ان حماداً استطاعه فانه يكون اهلا لهند فلا نمنعه منها فهل تظنين هنداً توافقنا في ذلك

قالت لا اظنها الا موافقة والا فيكونَ لنا عذر في رد حماد

قال ها قد تقرر الامر فخاطبيها بشأنه فاذا قبلت استدعي الشاب ونوبي عني في ذلك فاني في شاغل عن هذه الشؤون بما نحن فيه من امر الحرب المنتظرة

قالت حسناً وخرجت

وكانت هند في اثناء ذلك تمشي في الحديقة وقد علمت بمجيء والدها وتيقنت انه انما جاء لهذا الشأن وخصوصاً بعد ان رأته اختلى بوالدتها فلبثت تخطر في الحديقة وقلبها يخطر في صدرها وافكارها تجول في ماذا عسى ان يقر عليه القرار فلما رأت والدتها خارجة اسرعت نحوها وهمت بالاستفهام فاومأت اليها ان تصبر ريثما يعود والدها فانه سيسرع الى اللقاء حالا

وسارت سعدى الى الخدم فامرتهم باعداد الطعام ثم خرج جبلة الى الحديقة متظاهراً بالبحث عن هند فلما لاقاها قبلها وسلم عليها وهو يهش لها

---

(١) ذكر بعض مؤرخي الاسلام في عرض وصفه ملابس جبلة ان في تاجه لؤلؤتي قرطي مارية والظاهر ان ذلك على سبيل التمثيل فقط أي ان يكون في تاج جبلة لؤلؤتان كبيرتان تشبهان لؤلؤتي مارية [illegible] تخرجهما من الكعبة [illegible] سنة ١٣١٦

وعلامات الانبساط بادية على وجهه فتوسمت بذلك خيراً فمشت معه وهو يسألها عن صحتها وحالها ويحادثها بشؤون مختلفة الا الاقتران فانه لم يذكره قط اما هي فقد منعها الحياء من ذكره

. فبعد ان تناول جبلة الطعام ودع امرأته وابنته وعاد الى البلقاء ولم يكد يخرج من الحديقة حتى اسرعت هند الى والدتها تستطلع الخبر

فاجابتها سعدى وهي تبتسم قائلة ابشرك ببقاء والدك على عزمه فقد رد الحارث وابنه وقبل بحماد كما قلت لك ولكنه يرى وأرى انا أيضاً ان نقترح عليه عملاً يسد ما يتقوله الناس من غموض اصله وفصله . لانه كما لا يخفى عليك بطل باسل لا يرى الواشي سبيلاً الى الطعن فيه الا من جهة نسبه فاذا عمل عملاً تفرد هو فيه كان ذلك داعياً الى رفع منزلته وسكوت الناس عن الطعن في أصله

وكانت هند قد سمعت مثل ذلك من والدتها قبلاً فقالت ان ذلك يا أماه مما يوجب لي الفخر أيضاً واعلم ان حماداً لا يتوقف في سبيل هند عن عمل يستطيعه الناس فهل قرّ رأيكما على اقتراح تقترحانه عليه

قالت لقد رأيت ان يكون في اقتراحنا ما يزين بهرأسك فضلاً عن شرفك

قالت وما هو

قالت رأينا أن نطلب اليه الاتيان بقرطي مارية من الكعبة . واحكت لها حكايتها

فبهتت هند برهة وقد هالها ذلك الاقتراح ولكن انفتها منعتها من اكباره

قالت لا أظن حماداً الا فاعلاً باذن الله

قالت هلم بنا نستقدمه ونعرض عليه الامر

فلما سمعت باستقدامه رقص قلبها فرحاً بلقياه وقالت استقدميه والاتكال على الله . قالت ذلك وقد شغلها الفرح بقرب مشاهدته عن تقدير تلك المهمة حق قدرها

فنادت الخادم الذي رافق سلمان الى مقر حماد واوعزت اليه أن يستقدمه الى الصرح

الفصل السابع والثلاثون

حماد وآماله

تركنا حماداً وسلمان يفكران في عبد الله وهما بين الرجاء والقنوط من امره فقضى سلمان اياماً يتردد الى البلقاء وبصرى للبحث عنه فلم يقف له على خبر حتى ترجح لديه أخيراً انه سافر الى الحجاز

واما حماد فكان بين شاغلين عظيمين هند من جهة ووالده من جهة اخرى وكلما رأى قادماً ظنه رسولا من هند جاء يستقدمه اليها أو منبئاً ينبئه بخبر والده

حتى كان اليوم الذي تقرر فيه استقدامه واتفق أنه افاق في صباح ذلك اليوم منشرح الصدر واسع الآمال وكان قلما يصبح الا منقبضاً كئيباً لما يتوالى على ذهنه من المخاوف تارة على والده وطوراً على حبيبته حتى أثر ذلك في صحته فرق جسمه قليلا على انه كثيراً ماكان يخرج للصيد أو نحوه لترويح النفس ولولا ذلك ما نجا من غائلة المرض

فلما أصبح في ذلك اليوم على ما تقدم عجب واستبشر ولبث يتوقع خبراً مفرحاً وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام وهو على غير ما كان عليه سيده من الانشراح والاستبشار ولكنه ما لبث ان رأى فارساً قادماً مسرعاً فعلم من جهة مسيره انه يقصد مضربهم فتفرسه عن بعد فعلم أنه من رجال صرح الغدير فتوسم بقدومه خيراً فخف لملاقاته فلما دنا منه عرفه ورآه يبتسم فعلم انه أتيا جاء ببشرى خير . وقبل ان يصل الفارس الى سلمان ترجل ومشى وزمام الفرس بيده ومشى سلمان حتى التقيا فتصافحا وتعانقا فاستطلعه سلمان الخبر فقال جئت استقدم الامير حماداً الى سيدتي الاميرة سعدى في صرح الغدير لانها تريد مخاطبته في شأن

فقال سلمان وهل تدري ما هو ذلك الشأن . فضحك الخادم وقال لا

أدري ولا بد من أن تكون أعلم مني به . واما أهل القصر عندنا فقد لاحظوا من بعض ما سمعوه سرًّا وادركوه ضمناً ان مولاتنا هند ستخطب وكانـا ننتظر ذلك اليوم فانه سيكون يوماً سعيداً لم تر غسان اسعد منه لان مولانا جبلة كريم النفس سيخلع علينا خلعاً فاخرة وينثر علينا الذهب نثراً

فتبسم سلمان وقال هل علمتم من هو خطيبها

قال نعم هو ابن عمها ثعلبة اذ ليس من أولاد عمها من هو أقرب منـه اليها وقد طلبها ولـكني علمت من بعض الخدم انها لا تحبه ولا تقبل به

قال سلمان وهل يمكنها رفضه

قال لا أدري والظاهر انها رفضته . وكان الخادم قد سمع بامر حمـاد ورغبة هند فيه ولـكنه تجاهل لئلا يقال انه باح بالسر وود ان يكون سلمان البادىء بالخبر واما سلمان فلم يعد يستطيع صبراً على كتمان هذه الاخبار عن سيده ولـكنه اراد معرفة ما دعا الى استقدام حماد فقال وهل سمعت امراً حدث قريباً في القصر

قال لم اسمع شيئاً ولـكنني رأيت سيدي الامير جبلة جاء بالامس فمكث عندنا بضع ساعات قضاها في المسارة هو والاميرة ثم عاد الى البلقاء وفي حال خروجه استقدمتني سيدتي وانفذتني اليكم

فادرك سلمان ان مجيء جبلة لم يكن الا لامر الخطبـة وترجح عنده انه رضي بحماد ولولا ذلك لم يكن ثمة داع لاستقدام حماد على اثر رجوعه حالا . فدخل على سيده وكان متكئاً على اثر عودته من صيد قريب وقلبه يطفح سروراً ودلائل الانبساط ظاهرة على وجهه لسبب لا يعرفه احـد فدخل عليه سلمان وحياه وهو يبتسم

فقال له ما وراءك يا سلمان أني اراك مبشراً

قال عساها ان تكون بشرى خير يا سيدي

قال وما ذلك

قال ان اهل صرح الغدير بعثوا يستقدمونك اليهم فهل تذهب أم انت في شاغل الآن . قال ذلك وهو يضحك

فجلس حماد وهو يظنه مازحاً وقال لا أبالي دعاني اهل الصرح أم لا فاني اراني سعيداً منذ فتحت عيني في هذا الصباح

قال وما يضرك ان تتم سعادتك فان انشراح صدرك ان هو الا فاتحة السعادة وهذا خادم القصر قد جاءنا فهل أدخله عليك لينبئك بمهمته

فقال ليدخل

فدخل الفارس وهو لا يزال بلباس السفر فحيا الامير وانبأه بمهمته فقال حماد هل فارقتهم جميعاً في خير

قال فارقتهم يدعون لسيدي الامير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريباً ليتم سرورهم برؤيته . فاستبشر حماد بما وراء ذلك وقال اهدهم سلامي وقل انا سنصبحهم غداً ان شاء الله

فقبل الخادم يده وخرج فخرج سلمان لوداعه ودفع اليه عشرة دنانير وقال هذا ثمن عليق الفرس وسترى منا ما يشرح صدرك فسر الخادم بالهدية وبالوعد وود ان تتم خطبة هند لحماد لما ظهر من سخائه ورقة جانبه خلافاً لثعلبة فانه لم يكن احد من أهل الصرح يحبه لعجرفته وبخله

فلما سار الخادم عاد سلمان الى حماد فرآه مطرقاً يفكر

فقال ما بال سيدي يفكر ألعله بغت لتلك الدعوة على غير انتظار

قال كلا يا سلمان فقد كنت اتوقع خبراً مفرحاً منذ الصباح ولكنني أفكر في والدي ومكانه فانه طالما تمنى ان يزوجني ويفرح بي وقد كان يجب ان يسير هو معنا في هذه المهمة ولكن من ينبئنا بمكانه

فقال سلمان دع عنك الهواجس يا مولاي فقد تقرر في ذهني ان سيدي سار الى الحجاز ومتى فرغنا من مهمتنا هذه أذهب اليه بنفسي ولا أزال أبحث عنه حتى آتي به باذن الله فاستعد الان للذهاب الى صرح الغدير

فقال أرى ان نبرح هذا المكان قبل الفجر حتى نصبح في الصرح كما قلنا للخادم . قال حسناً واخذ في الاستعداد وحماد كلما تصور ملاقاته هنداً خفق قلبه وهاله الموقف وتذكر اجتماعه بها في دير بحيراء . ولكن سروره لم يكن تاماً مخافة ان لا تكون دعوته على ما يؤمله من الفوز بما يتمناه ولكن

الامل غلب عليه فتصور انه انما دعي لاتمام عقد الخطبة فقضى بقية ذلك اليوم في مثل هذه الافكار

الفصل الثامن والثلاثون

ساعة اللقاء

أما هند فلما عاد الرسول وأنبأها بمجيء حماد في صباح الغد خفق قلبها ولبثت تعد الساعات والدقائق فقضت ذلك اليوم ولم تنم من شدة الفرح فلما أصبحت سارت الى والدتها وسألتها عن المكان الذي سيجتمعون فيه فقالت قد أمرت الخدم ان يعدوا غرفة الضيافة ولا يدخلوا اليها أحداً في هذا اليوم وان يذبحوا الذبائح ويعدوا الاسمطة . فلبست هند ثوباً سماوياً جميلاً خاطته لها احدى خياطات دمشق وكانت خبأته لمثل ذلك اليوم ومشطت شعرها وضفرته وجعلت تتشاغل ببعض المهام اخفاء لما ثار في قلبها من الفواعل المتضاربة بين الفرح بلقيا حبيبها وهول موقفها ساعة اللقاء وخوفها عليه مما اعدوه له من امر المكيدة

وكانت سعدى قد انفذت جماعة من أهل القصر لاستقبال القادمين قبل وصولهم فلما كان الضحى ودنا الوقت جعلت هند تطل من النوافذ تنظر الى ساحة الميدان التي جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر ووراءها الآكام والغياض وكلما رأت غباراً او آنست أشباحاً ظنت حماداً قادماً فيخفق قلبها وتتورد وجنتاها حتى كانت الظهيرة فاذا بالغبار يتصاعد من بعض جوانب الافق ثم بان من تحته فرسان يسرعون وفي مقدمتهم فارس عرفت انه من أهل القصر وانه تقدم الجماعة ليبشر بقدومهم فازداد خفقان قلبها ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها حماد ملثماً بالكوفية فانكرته في بادىء الرأي لركوبه فرساً غير فرسه . ثم غلب عليها الضعف النسائي فاصطكت ركبتاها واستعظمت ساعة اللقاء فتحولت عن النافذة ولكنها ما انفكت تنظر اليه خلسة حتى دنا

من القصر وكانت والدتها واقفة الى جانبها وقد لحظت ما هي فيه من الهيام فقالت لها امكثي هنا ريثما استقدمهم الى دار الضيافة

وخرجت الى الحديقة وقد ترجل الفرسان وتركوا خيولهم في عهدة الخدم ودخلوا الحديقة وفي جملتهم حماد وكان ملتفاً بعباءته وقد حوّل اذيال كوفيته عن وجهه وارسلها الى كتفيه فبانت ملامح محياه . وتقدم وسلمان الى جانبه حتى دنوا من سعدى فتقدم سلمان اليها واخبره أنها الاميرة سعدى امرأة الملك جبلة فعلم أنها والدة هند فسلم عليها وهو يتوقع أن يرى هنداً فلم يرها فعلم ان الحياء منعها من القدوم للقائه وأنها لا تلبث ان تأتي

فاستقبلتهما سعدى وسارت بهما الى غرفة الضيافة فجلسوا والخدم وقوف بين ايديهم فقالت سعدى هل يأذن الامير بماء ليغتسل ويبدل ثياب السفر قبل تناول الطعام . فاجاب وغسل يديه ووجهه وجاءه سلمان برداء حريري وكوفية فلبسهما وجلس وعيناه شاخصتان نحو الباب وكلما سمع وقع اقدام او رأى شبحاً ظنه هنداً قادمة

اما سلمان فانه ترك سعدى وحماداً في الغرفة وخرج يبحث عن هند وكان قد عرف غرفتها في مجيئه اليهم قبلاً كما علمت فاذا هي بإزائه هناك تتلاهى بالاساور تديرها حول معصمها وافكارها تائهة وقد علت وجهها امارات البغتة . فلما رآها تظاهر بالسعال ليستلفت انتباهها وقد كانت لعظم تأثرها لا تمر نسمة الا سمعت لها صوتاً فكيف بسعال سلمان فانه ذعرها فالتفتت اليه فرأته يبتسم فابتسمت ولكنها شعرت بقشعريرة خفيفة ثم مشت وهي تحاول اخفاء ما بها فتقدم نحوها وهو يحاذر أن يدخل الغرفة لئلا يكون دخوله مخالفاً لمقتضيات العادة فمشت هي نحوه وسلمت عليه

فقال هل رضيت مولاتي عن راهب الدير جامع النذور

فابتسمت ولم تجب

فقال ها قد جئت باللص الذي سرق الدرع فهل تريدين معاقبته ولكنني أرجو أن لا تحكمي عليه بالسجن

فتذكرت زيارتها لدير الرهبان فضحكت ولكنها ما زالت تنتظر

الى معصمها وتتلاهى باساورها

فدنا منها وقال ما بالك لا تتكلمين يا مولاتي ألعلي أذنبت لاني تركت صاحب الدرع (أو لصه كما تزعمين) وجئت وحدي . فهل استدعيه اليك

فلم تجب ولكنه كان يقرأ آيات السرور على وجهها

فقال أراك تتظاهرين بان مجيئه لا يهمك ولكنني أقرأ على وجهك عبارة يكاد ينطق بها لسانك فقد فهمت مرادك بدون ان تتكلمي أني ذاهب لادعو الرجل اليك . فرفعت نظرها اليه كأنها تلومه على هذه المداعبة . أما هو فتحول عنها ضاحكاً حتى دخل غرفة الضيافة فرأى سعدى وحماداً جالسين وليس هناك سواهما فدنا من سعدى وقال وهو يتظاهر بالمزاح . ما بالي أرى هذه الغرفة قليلة النور كأنها بعيدة عن موقع أشعة الشمس

فقالت سعدى ألا ترى الاشعة داخلة من هذه النافذة

قال وهو يضحك لا أرى نوراً قط ويظهر لي ان شمسكم تشرق من الجنوب (وأشار الى غرفة هند) فادركت سعدى مراده فتبسمت وأطرق حماد خجلاً ولكنه ودّ از ياح سلمان باستقدام هند

فقال سلمان اراكم تضحكون من كلامي واراني اعلم منكم بمشرق شمس قصركم . ألا أذنت مولاتي بقدوم شمس هذا القصر بل شمس بني غسان الينا ... فاني أرى الاسمطة قد مدت وكأني بكم تتهيأون للغداء ولكن الطعام حرام علينا قبل مجيء سيدتي هند فانها محور أنسنا .. ولا اظنك تنكرين علينا ذلك

فقالت سعدى . أراك لجوجاً يا سلمان ولا مأرب لك في الامر

فضحك سلمان وقال لا مأرب لي صدقت لا مأرب لي ولكنني اعبر عن عواطف اناس آخرين وأشار بطرف عينيه الى حماد فتبسم حماد وقد توردت وجنتاه ونظر الى سلمان نظرة التوبيخ

فالتفت اليه سلمان وقال يظهر انك لا تريد مقابلة فتاة غسان فاذا كان هذا هو مرادك (استغفر الله) فما كان اغنانا عن تكبد هذه المشاق وهجر الحيرة والعراق

فنظرت سعدى الى سلمان والرزانة والتعقل يتدفقان من وجهها وقالت لم ندع ولدنا حماداً الا ليرى هنداً وتراه فانهما ولدانا ولا نجهل انهما يسران بالمقابلة فلا تكن عجولا ان هنداً لا تلبث ان تأتي وتتناول الطعام معنا

ثم وقفت وقالت وها أني ذاهبة لاستقدامها . وخرجت

فلما خرجت التفت حماد الى سلمان واراد معاتبته لما ابداه من الجرأة في خطاب الاميرة سعدى

فقال ولولا ذلك لطال زمن الوحدة ألعلنا جئنا لنأكل ونشرب

ثم عاد حماد الى التفكير في هند وقرب مجيئها وما سيكون من امرها ساعة اللقاء فما لبث ان سمع وقع اقدام علم من ازدواجها ان سعدى وهنداً قادمتان فتحفز للقيام. اما سلمان فوقف في الباب فرآها قادمتين فتبسم ونظر الى حماد ثم وصلتا الى باب الغرفة فدخلت سعدى وهند تتبعها مطارقة

فوقف حماد ومشى لاستقبالها وهو مطرق ايضاً ولكنه لم يتجرأ على مصافحتها ولا هي فعلت ولكن قلباهما كانا ولا ريب يختلجان فرحاً وكل منهما يتظاهر بالتجلد . فتشاغل هو باصلاح ردائه وارسال كوفيته الى كتفه وتلاهت هي باصلاح قرطها في اذنها ولا تسل عن تورد وجنتيها واصطكاك ركبتيها واختلاج قلبها . وحالما دخلت اشارت اليها والدتها ان تجلس على وسادة بالقرب منها فجلست وجلس الجميع ولبثوا برهة لا يتكلمون وحماد ينظر الى هند تحاذراً فرآها قد تغير حالها عما كانت عليه يوم دير بحيراء فذبل ورد وجنتيها وخف عضلها ولكنه رأى ذلك قد زادها جمالاً وهيبة وكانت هي تختلس النظر اليه ولا تكاد تصدق ان والدها رضي لها به ثم يعترضها امر قرطي ماريا فتوجس خيفة

فتحت سعدى الكلام قائلة وماذا تم من امر والدك هل التقيتم به أم عرفتم مقره

فقال حماد كلا يا مولاتي فقد شغل بالنا آخر دولتنا مكانا لم نسأل فيه عنه والفضل في هذا السعي لهذا الرفيق (واشار الى سلمان) فانه لم يأل جهداً في البحث والاستقصاء حتى وقف على خبر هند

فقال سلمان ولكني ارجح ذهابه الى الحجاز لما سمعته من حكاية صاحب الخان — واخذ يقص عليهم ما سمعه من الخاناتي في بيت المقدس وما كان من امر ابي سفيان وجواد حماد الخ

فاستفهمته عن حكاية الاسد فقص عليهم ما لقوه في مسبعة الزرقاء وكانت هند في اثناء الحديث شاخصة حتى سمعت ما لاقياه عند تلك الشجرة من غائلة الاسد وما كانا فيه من الخطر فتلألأت الدموع في عينيها . فلما رأى حماد منها ذلك أوشك ان يبكي لفرط ما آنس من رقة عواطفها . ثم أتم سلمان حكايته حتى انتهى الى آخرها والجميع مصغون لا يفوه احدهم بكلمة

فلما فرغ من كلامه قالت سعدى يؤخذ من مجمل ما سمعناه ان والدكم سافر الى الحجاز مع ابي سفيان ولو كان باقياً في البلقاء لجاء للبحث عنكم بعد ان نال العفو من القيصر . ثم تبسمت وسكتت كأن في نفسها شيء تكتمه فبقي الجميع صامتين لعلها تقول شيئاً . وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم وسأل الاميرة سعدى اذا كانت تأذن بمد السماط لان وقت الغذاء قد ازف فقالت هاتوا الطعام والتفتت الى حماد قائلة هلم بنا الى الغذاء وسنتم حديثنا بعده

فمدت الاسمطة وحملت الذبائح وجلسوا على المائدة وحماد يفكر في ماذا عسى أن يكون وراء تبسم سعدى

فلما فرغوا من الطعام عادوا الى الاستراحة وجلسوا ينتظرون حديث سعدى الا هنداً فانها لم تكن معهم لان والدتها اشارت اليها ان تتخلف هنيهة ريثما يتحادثون في شأنها

فلما استتب بهم الجلوس قالت سعدى اظنكم تنتظرون مني كلاماً ظهر لكم من تبسمي الان اني اكتمه

فقال حماد هو ذاك يا مولاتي فاتحفينا به

قالت تبسمت لما اتفق من ذهاب والدكم الى الحجاز وما نحن عازمون ان نعرضه عليكم مما يأول الى اجتماعكم به هناك

فعجب حماد لكلامها ولم يفقه مرادها فقال وماذا عسى أن يكون اقتراحكم

قالت لا يخفى على ولدنا حماد ان ما عرفناه من شهامتـه وكرم أخلاقه يكفي لاقناعنا باستحقاقه هنداً وانه جدير بالحصول عليها دون ابن عمها . ولـكننا معاشر العرب نحافظ على الانساب ونحترم القرابة ولا يخلو ان يكون قد بلغكم ان الحارث بن ابي شمر قد طلب هنداً لابنه ثعلبة وهو ابن عمها وأولى الناس بها ولـكننا آثرنا البقاء على ما ارادته هنـد ورضينا بحماد لما آنسنا فيه من كرم الاخلاق وعلو الهمة وعدلنا عن ثعلبة على كونه ابن عمها

فخجل حماد لهذا الاطناب واختلج قلبه فرحاً لما توسمه من رجوع الامر اليه وتحقق أمانيه فاطرق صامتاً

فقالت سعدى ولـكن والدها رأى رأياً اذا وافق عليه حماد كان فيـه دفع لتقول الناس وعتاب الاقارب وفخر لنا جميعاً

قال حماد مري يا مولاتي فاني رهين اشارتك

قالت رأينا أن تعمل عملاً نقترحه عليـك لا يعظم على باسل نظيرك فاذا فعلته قطعت ألسنة المعترضين وزدتنا اعجاباً وفخراً

فثارت الحمية في نفس حماد فقال قولي يا سيدتي أني فاعل ما تقولين ولا يثقل عليَّ أمر ترضى به هند

قالت نقترح عليك ان تلبس هنداً يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام

فقال ألعلك تعنين قرطي مارية

قالت اياهما اعني وهل تدري مكانهما

قال سمعت ان مارية جدتكم اهدتهما الى الكعبة منذ أجيال فهل هما هناك حتى الان

قالت أظنهما لا يزالان هناك وفي استخراجهما من جوف الكعبة بسالة واقتدار جديران بكم

فلما سمع سلمان ذلك اضطرب فؤاده خوفاً على سيده لعلمه ان الكعبة امنع من عقاب الجو وقد يستحيل الوصول اليها فقال هل تأذن سيدتي بكلمة أقولها

قالت تفضل

فقال هل تريدين ان نلبس مولاتي هنداً قرطي مارية عينهما أو قرطين آخرين مثلهما

قالت لا نلتمس شيئاً يقدر بالمال يا سلمان فاننا من نعم الله في سعة وبسطة عيش ولكننا نريد أن تفاخر أعمامنا باننا لم نرض لهند الا رجلاً استخرج قرطي مارية من جوف الكعبة وهذا ما أضحكني لما سمعت حكاية الامير عبد الله وذهابه الى الحجاز فقلت في نفسي ان الله قد أذن بذهاب حماد ليلتقي بابيه هناك لان مقام ابي سفيان في مكة حيث الكعبة ايضاً

فالتفت حماد الى سعدى وملامح البسالة تجلى في وجهه وقال لقد طلبت أمراً يحتمر كثيراً في سبيل مرضاة هند ولسوف ترين منا فوق ذلك باذن الله. وأما سلمان فانه استعظم الطلب ولكنه لبث صامتاً احتراماً لمقال سيده

أما هند فانها كانت جالسة في غرفتها وهي تعلم بما ستقوله والدتها فلما تصورت الخطر المحدق بهذه المهمة ندمت لمجاراة والدتها في ذلك وأدركت انها انما دبرت حيلة للتخلص منه فعظم الامر عليها حتى بكت

وفيما هي في ذلك دخلت الخادمة تدعوها الى والدتها فمسحت دموعها وسارت والكآبة ظاهرة على وجهها فلما دخلت الغرفة ورآها حماد على تلك الحال أثر منظرها في نفسه وهاجت فيه حمية الرجال وقد أدرك انها انما تبكي جزعاً عليه فقال لها لا تجزعي يا هند انك ستلبسين قرطي مارية وتفاخرين بهما أهل الخافقين

فصمتت هند ولم تجب ولكن كلام حماد أثار فيها ساكن الغرام وهاج عواطفها فازدادت اعجاباً بشهامته وحبه على أن خوفها عليه اعترض مجرى أفكارها فهبت الحرارة في جسمها كأنك كشفت الغطاء عن نار متقدة في فؤادها فانبعث لهيبها الى سائر أطراف البدن وتلألأت الدموع في عينيها فاطرقت وجعلت تتلاهى بثنية اطراف اكمامها مخافة أن يظهر اضطرابها لحماد

أما هو فلم يفته حديث قلبها ولا غفل عما تضارب في ذهنها من العوامل ولكنه اراد تشجيعها فالتفت الى والدتها وقال طالما شاقني المسير الى الكعبة لمشاهدة ما اسمعه عنها من حج الناس اليها من اقطار العالم وكثيراً ما سمعت

حديث والدي عن الاصنام القائمة فيها وما يقدمه العرب من الضحايا . وقد قرأت في بعض الكتب انها قديمة البناء جداً وانها كانت حجاً يؤمه الناس من أطراف الارض وقد بنيت في بادىء الرأي لعبادة الله ثم جعلها بعض العرب مجمعاً لاوثان حملوها اليها من أنحاء شتى من العالم الوثني وفي جملة ذلك صنم حملوه اليها من هذه البلاد (البلقاء) اسمه هبل وكان قبل أن حملوه اليها من البلقاء يسمى (هبعل) وهو لفظ عبراني معناه البعل أي الاله [1] يشبهه في لغة الكلدان جيراننا بالعراق لفظ (بل) وقد حملوا اليها أصناماً اخرى من مصر واشور وغيرها فاجتمعت فيها مئات منها فاصبح ذلك البيت مجمعاً للاصنام

فانتبه سلمان وكان تائهاً في بحار الهواجس خوفاً على سيده فلما وصل حماد الى حكايات اصنام الكعبة قال سلمان نعم ان الاصنام كثيرة في الكعبة ولكن كثيرين من عقلاء قريش لا يحترمونها وقد سمعت كثيراً منهم يخاطب سيدي الامير عبد الله في بعض سفراتنا الى مكة بشأن تلك الاصنام فاكد له أن جماعة كبيرة من عقلاء مكة وهم من قريش انما يزورون الكعبة لعبادة الله وان الاعتقاد بالله قد اتصل اليهم بالتلقين من سيدنا ابراهيم ولكن بعضهم ضل عن سواء السبيل بما زين لهم من عبادة الاوثان [2]

فقالت سعدى وقد وجهت خطابها الى حماد يظهر ان والدكم الامير قد سافر الى الحجاز قبل الان

قال نعم يا مولاتي انه نزلها مراراً ولذلك ظننا انه سار اليها هذه المرة ايضاً

فقالت ان ذلك مما يؤكد ذهابه اليها الان فعسى ان تلتقوا به هناك

قال أني أرجو ذلك وأتمناه لتتم به سعادتي . ثم فكر قليلا وقال متى تظنين يا مولاتي اننا نبرح البلقاء

قالت متى شئتم وخير البر عاجله

قال أرى ان نودع سيدي الملك جبلة قبل السفر فنلتمس دعاءه بالتوفيق

---

(١) أديان العرب قبل الاسلام في السنة الخامسة من الهلال (٢) تاريخ الانبياء

قالت ذلك راجع اليك أما هـو فقد فوض الينا ان نبلغك رضاءه وما تم عليه الاتفاق فاذا شئت مقابلته فلا شك أنه يسر بلقياك

كل ذلك وهند مطرقة وعيناها تكادان تدمعان لو لم يشغلها حديث الكعبة

فلما تحول الحديث الى والدها استحسنت رأي حماد في زيارته على أمل أن يتحول عزم والدها عن اقتراحه . فقالت تفعل حسناً بزيارة والدي قبل سفرك

فازداد حماد رغبة في ذلك فقال غداً نصابح مجلس الملك ان شاء الله فنسلم عليه ونودعه . هل تعرف الطريق الى البقاء ياسلمان

فقالت سعدى سنرسل رجالاً يسيرون في ركابكم اليها

أما سلمان فما انفك منقبض النفس من أمر هذه المهمة لعلمه أنها شديدة الخطر جداً ولكنه سلم أمره الى الله

وقضوا بقية اليوم في صرح الغدير ولكن هنداً لم تهنأ بذلك الاجتماع لخوفها من الفراق العاجل وقرب الخطر الشديد على انها شغلت بحديث حبيبها ولهت برؤيته عن كل المخاوف فلم يكن يوم أسعد عليها من ذلك اليوم وودت لو انه يوم يشوع بن نون خوفاً من انقضائه ولا تسل عن حماد وسروره وقد سهل عليه المسير الى الكعبة امله بلقاء والده هناك

الفصل التاسع والثلاثون

الوداع

وفي صباح اليوم التالي اصبحت هند كئيبة حزينة وأحست بلهفة وجزع لم تشعر بهما قبلا فكانت كلما نظرت الى حماد خيل لها أن احداً يحاول اختطافه من بين ذراعيها فيضطرب قلبها وتسود الدنيا في عينيها فحدثتها نفسها لاول وهلة ان يتواطأا على رفض أمر القرطين ولكن الانفة وعزة النفس اعترضتاها فصبرت نفسها متعللة بالآمال

فلما اشرقت الشمس كانت الخيول قد أعدت لركوب حماد وسلمان الى البلقاء مع بعض الفرسان من أهل القصر فنهض حماد لوداع هند ووالدتها وكانتا تنتظرانه في غرفة الضيافة فدخل وهو في لباس السفر فوقفت له هند وركبتاها ترتجفان فمد يده اليها فمدت يدها فامسكها فاحس بها باردة كالثلج ونظر الى وجهها فاذا به قد امتقع لونه فلما خاطبها خطاب الوداع تناثر الدمع من عينيها بغتة وجذبت يدها من بين أنامله بلطف واطرقت ولم تجب فعلم انها انما فعلت ذلك خوفاً عليه من هذا السفر الخطر

فالتفت اليها مبتسما وقال ما بالي ارى هنداً خائفة وعهدي بها تنافس اشجع الرجال وتسابق أفرس الفرسان

فنظرت اليه بطرف عينيها وتنهدت تنهداً عميقاً ولبثت صامتة ولسان حالها يقول « أن مسابقة الفرسان شيء ومفارقة الاحباب شيء آخر »

فادرك حماد مرادها ولكنه خاف اذا طال وقوفه أن يخرجه الغرام عما يليق به في ذلك الموقف فتحول لوداع سعدى ثم عاد الى هند فودعها وتبسم لها فتبسمت مجاراة له ولكن قلبها لم يفرح فقال لها أدعي لنا بسلامة العود فاذا عدنا كما اردنا كان حماد اهل لهند فلا تخشى هي ان تذكره ولا تخجل اذا ذكره سواها واما اذا لم . . . .

فقطعت هند كلامه على عجل وقالت وهي تتلجلج بكلامها لا تقل (اذا) فانك ستعود الينا سالماً باذن الله ثم غلب عليها الضعف فتناثرت الدموع من عينيها وهي تحاول اخفاء عواطفها امام والدتها

اما سعدى فرأت من الحكمة ان لا تطيل الوقوف على هذه الصورة فقالت سر يا ولدي بحراسة الله وهو ينيلك بغيتك على أهون سبيل فتعود الينا سالماً وقد التقيت بوالدك

فاثنى على لطفها وودعها وقبل يدها وخرج الى الحديقة وكان سلمان في انتظاره هناك وقد هيأ الموكب . فلما خرج مولاه وسعدى وهند تتبعانه تقدم اليهما وودعهما وهو على غير ما آنساه منه صباح الامس من انبساط النفس والمجون ولكنه تظاهر بالامتنان والانبساط واركب حماداً ثم ركب هو وسائر الموكب

وخرجوا قاصدين البلقاء وهند وسعدى واقفتان تنظران اليهم . أما هند فلم يكد حماد يدير عنان جواده حتى غاب عليها اليأس وشعرت بما دبره والداها فتحولت الى غرفتها وأخذت في البكاء وجعلت تندب سوء حظها وحظ حماد فتبعتها والدتها وهي تخفف عنها وتصبرها بالوعود

فقالت دعيني يا أماه ها قد نفذ السهم وقضي الامر ان حماداً قد سار الى مكان لا نرجو عوده منه وقد كان الاجدر بكم ان ترفضوا طلبه بدلاً من ارساله في هذه المهمة قالت ذلك وهي تبكي

فقالت سعدى خلي عنك الاوهام ان حماداً شجاع باسل وخادمه سلمان خبير بكل شيء فلا يعسر عليهما العود بالقرطين وفي ذلك نخر لك ولنا من أثقال ثعلبة وابيه على الاقل

فلما سمعت اسم ثعلبة تذكرت ما قاسته من مساعيه فهان عليها ما يقاسيه حماد في سبيل انقاذها منه فسكتت والهواجس تتقاذفها

أما حماد فما زال حتى أتى البلقاء وسلمان صامت لا يفوه بكلمة وكان حماد يبالغ في اظهار ارتياحه الى تلك السفرة وآماله في عواقبها

وكانت البشائر قد سبقتهما الى جبلة تنبئه بمجيء حماد والناس يحسبونه أميراً جاء لغرض يتعلق بالحرب لان الروم كانوا قد خابروا كل القبائل المجاورة يلتمسون نجدتهم في حرب الحجازيين

اما جبلة فعلم أنه جاء لامر يتعلق بخطبته فاذن بدخوله عليه في خلوة فلما التقيا همَّ حماد بتقبيل يدي جبلة فانحنى جبلة لتقبيله ثم جلس وجبلة يرحب به فقال حماد قد جئت يا عماه أشكرك على ما تكرمت به عليَّ من الرضا والتمس دعاءك في ذهابي الى مكة فاني شاخص اليها على عجل

فقال جبلة رافقتك السلامة في المسير والاقامة وجعل الله مسيرك سعيداً ولا حرمك مما تريد ولكنني أوصيك يا ولدي ان تبقي ما دار بشأن هند مكتوماً حتى تعود لئلا يسبب لنا ذلك مشقة وربما حال دون ما نحن ساعون فيه

فادرك حماد مراده فوعده بالكتمان ثم قال معي خادم بل هو رفيق يود

تقبيل يديك قبل السفر لانه سيرافقني ويكون عوناً لي فهل يأذن مولاي بمثوله بين يديه

قال ليدخل

فخرج حماد ثم عاد وسلمان معه فتقدم سلمان الى جبلة وقبل يده ولبثوا هنيهة يتحدثون في ما لم يخرج عن الموضوع من تشجيع حماد وتحبيب الامر اليه. ثم نهض حماد وسلمان وودعا جبلة وخرجا يريدان خيمتهما عند الشيخ النبطي وكل منهما في هاجس

أما سلمان فلم يكن راضياً بما رآه وسمعه ولكنه رأى حماداً راضياً به مصمماً على تنفيذه فلم يشأ تثبيط عزائمه وعول في باطن سره على ان يبذل جهده في مساعدته الى آخر نسمة من حياته

الفصل الاربعون

السفر الى الحجاز

فوصلا الخيمة في المساء وكان النبطي قد استبطأهما لغيابهما يومين كاملين فلما عادا رحب بهما فنزلا وهما يفكران في امر السفر والاستعداد له والعمدة في ذلك على سلمان فابتاع جملين لحمل الماء والثياب والزاد وسألا الشيخ النبطي عن رجل خبير بالطرق يرافقهما الى مكة باجرة ترضيه فسألهما عن سبب السفر فانتحلا سبباً أسكته

فقال أما الدليل فاني ادلكما على رجل من أهل يثرب وهي المدينة التي جاء منها الحجازيون الذين قلت لكم انهم سيخرجون هذه البلاد من أيدي بني غسان وقد جاءني أمس بمهمة من بعض امراء ذلك الجيش فدللته على بعض الاماكن التي يمكنهم الحصول فيها على زاد لهم وسمعته يقول انه لايلبث ان يعود الى بلده فاذا رافقكما اليها كان لكم به خير رفيق ومتى وصلتم يثرب هان عليكم الوصول منها الى مكة

فقال سلمان والظاهر ان صاحبك هـذا من اتباع صاحب الدعوة الاسلامية بالمدينة

فقال نعم هو مسلم وقد جاء في جملة المسلمين الى عمان وسيعود بمهمة خصوصية فهل استقدمه اليكم

قال سلمان استقدمه

فخرج من الخيمة ونادى « ابا سعيد » فسمعوا صوتاً يقول « لبيك يا أخا العرب »

فقال النبطي هلم اليّ

فجاء بدوي طويل القامة عريض الاكتاف خفيف اللحية يظهر من ملامح وجهه انه في الاربعين من العمر عاري الرأس والقدمين ملتحف شملة من نسيج ابيض تغطي بدنه فيلف بعضها حول عنقه ويترك منها زائدة ينشرها على رأسه اذا اشتد عليه الحر وفي يده رمح ونبلة

فلما رآه سلمان عرف من شكل ملابسه وملامح وجهه انه حجازي من أهل المدينة فلما وصل أبو سعيد الى حماد بهره ما عليه من اللباس الفاخر من الخز والديباج والحرير فعلم انه امير ولكنه ظنه من امراء غسان فلم يهش له فابتدره النبطي قائلاً

أن الامير ليس من غسان كما قد يخال لك بل هو من العراق فلا تنقبض نفسك لرؤيته

فقال ابو سعيد لا بأس من ان يكون غسانياً فاننا تجاورنا في منزلك فنحن الان أخوة

فقال حماد بورك فيك يا أخا العرب . ممن أنت

قال من أهل يثرب

قال سلمان أن اهل يثرب اكثرهم من اليهود

قال نعم فيها كثير منهم فهل قدمتها قبل الان

قال نعم جئتها منذ عشر سنوات

قال لقد تغيرت حالها عما كانت عليه في ذلك الحين باشراق نور الاسلام

فقال سلمان ألعل نبي الاسلام منكم ام من قريش في مكة

قال لا ليس منا ولكننا قمنا بنصرته وفتحنا له صدورنا ومنازلنا فهو يقيم في مدينتنا وقد سمانا الانصار

قال سلمان اذن انت سائر الى المدينة

قال نعم والى اين انتم ذاهبون

قال الى مكة فهل ترافقنا اليها

قال الرجل يا حبذا لو كان ذلك في الامكان

فقال سلمان وهل يمنعك من ذلك بعد المسافة أم أنت سائر في مهمة على عجل

قال نعم اني سائر في مهمة على عجل ولكن ذلك لا يمنعني من المسير الى مكة لو لم يكن اعداؤنا لنا فيها بالمرصاد

فقال سلمان وأي الاعداء تعني

قال اعني بني قريش اعمام نبينا فانهم لا يزالون يتوقعون الفرصة لافتك به وهو انما جاء المدينة مهاجراً فنصرناه كما قدمت وقد تحالفوا على عدوانه وفي مقدمتهم أبو سفيان الامير التاجر الشهير

فقال سلمان في نفسه ان تلك مشكلة لم تكن في حسباننا وتصور ان في الطريق بين المدينة ومكة خطراً لما بين اهل البلدين من العداوة فنظر الى المدني وقال هب اننا تركناك في المدينة فهل في طريقنا الى مكة من خطر

قال لا خطر عليكم اذا سرتم في طريق معروف ولو كنتم من دعاة الاسلام مثلنا لكان في مسيركم خطر ولكنكم غرباء سائرون في سبيلكم ولعل الافضل ان تسيروا في قافلة لانكم تكونون في قافلة فلا خوف عليكم من طارق باذن الله . قال ذلك وصمت واطرق كأنه يفكر في امر طرق ذهنه بغتة

فنظر سلمان الى حماد يستطلع رأيه بعد ما سمعناه من ذلك اليثربي فقال حماد ارى ان ترافق الرجل الى المدينة ثم ننظر ما يكون من أمرنا ثم التفتا الى الرجل فاذا هو مطرق ينكث الارض بابهام رجله فابتدره سلمان قائلاً ما بال اخا قريش مطرقاً يفكر ألعل رأياً جديداً فتح عليه به

قال لم يخطر لي رأي جديد ولكنني تذكرت امراً ذا بال أظنه يهمكم أيضاً

فتطاول سلمان بعنقه وقال وما ذاك

قال تذكرت حديثاً سمعته من معسكرنا في عمان فاذا صح مسيرنا الى مكة قوياً دخلتموها آمنين مطمئنين

فلم يدرك سلمان كنه كلامه فقال وماذا تعني بمسيركم الى مكة

قال اعني ان نبينا (صلعم) سيحمل على مكة برجاله فيفتحها ويكسر اصنامها فتصير في حيازتنا فاذا دخلتموها كنتم آمنين

فقال وهل انت موقن بهذا الخبر وهل المسير اليها قريب

قال اني واثق بصدق الرواية ولكنني لم أتحقق الزمن الذي ينوي فيه المسير وعلى كل فاننا متى وصلنا المدينة علمنا حقيقة الحال فهلم الى الاستعداد قال ذلك وتركهما وذهب

فنظر سلمان الى حماد وقال له لم يسرني الخبر كثيراً لان وصولنا الى الكعبة وبحثنا فيها عن القرطين قد يكون أسهل علينا قبل ذلك الفتح

فقال حماد لا أرى رأيك في ذلك اذ ربما كان لنا بعد الفتح سبيل أسهل وطريق أقرب وسنرى ما يأتي به الغد فعليك الآن باعداد السفر من الجمال والمياه والزاد ونحوها

فقال سلمان أرى ان نركب خيلنا ونأخذ جملين لحمل الماء والزاد على ان يكونا ذخراً لنا في حال الاضطرار الى الركوب لان الجمال أصبر على العطش من الخيل . قال ذلك وأخذ في الاستعداد

وفي صباح اليوم التالي استحضروا جملين وخادمين وحملوا احمالهم مما خف وغلا وتركوا ما بقي من الثياب وغيرها عن الشيخ النبطي وساروا يطلبون الحجاز

ولما تبطنوا الصحراء وبعدوا عن البلقاء أحس حماد بالوحشة وتمثل له خطر المسير وتحقق كلام سلمان ولكنه تجلد واتكل على الله

وبعد مسيرة أيام أشرفوا على جبال المدينة فقال اليثربي ها نحن اولاء على مقربة من يثرب ولا نلبث ان نشرف عليها

فقال سلمان اني أعرف المدينة وطرقها فقد نزلتها منذ أعوام

فقال اليثربي لا تلبث ان تشرف عليها فترى فيها تغييراً طرأ عليها بعد نزول النبي فيها فقد بنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان لكثرة من هاجر اليها من اصحاب الرسول وغيرهم

وبعد هنيهة أشرفوا على المدينة فاذا هي في منبسط من الارض تحدق بها البساتين والغياض . فقال اليثربي هذه يثرب فهل تنزلان فيها ريثما تصحبان من يرافقكما الى مكة أو تريان رأياً آخر

قال حماد اني افضل النزول هنا مدة لاشاهد المدينة واهلها وأرى صاحبكم واصحابه بعد ما ملأت اذني من احاديث حروبه واوصافه

فانحدروا حتى صاروا على مقربة من السور لا يستفهم أحد ممن رآهم لان بينهم أحد الانصار وقد ظن كثيرون انهم انما جاؤا يلتمسون الاسلام لكثرة من كان يفد على المدينة من القبائل في تلك الايام وا كثرهم كانوا يجيئون رغبة في الاسلام

فلما دنوا من السور قال سلمان ارى ان نضرب خيامنا هنا فنستريح هنيهة ثم نترك دوابنا ومضربنا في عهدة الخدم وندخل المدينة خفافاً

فقال اليثربي اما انا فلا أستطيع الصبر عن المسير الى المدينة الساعة لاني في مهمة فارجو أن نلتقي هناك

فقالا سر بحراسة الله

فودعهم ومضى

فلما خرج التفت سلمان الى حماد وقال اراك راغباً في دخول المدينة

قال نعم

قال ولكنني لا ارى ذلك

قال ولماذا

قال لاننا لم نترك البلقاء ونتجشم الاسفار لنقيم في هذا المكان فضلاً عن الخطر الذي قد ينتابنا لمجرد دخولنا المدينة

فقال وأي خطر علينا من ذلك

قال أخاف أن يرانا هنا احد من عيون ابي سفيان فاذا رآنا في مكة عرفنا فيحسبنا من المسلمين فيعرقل مساعينا

قال اذا رأينا ابا سفيان قلنا له ان عبد الله والدي او ربما رأينا والدي معه فنأمن الخطر

قال لو كنا على يقين من وجود مولاي والدك عنده لهان علينا العسير ولكننا انما قلنا ذلك على سبيل الظن

فلبث حماد برهة يفكر فتذكر والده وخطيبته وحاله فرغب في اتمام مهمته بالمسير الى مكة فقال اراك مصيباً في رأيك فالافضل لنا ان نسير الى مكة لنبحث عن القرطين فاذا ظفرنا بهما هان علينا كل ما نريده

وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فارسلا خادماً يبتاع زاداً وعلفاً فعاد عند الغروب فاكلا واطعما الجملين والجوادين وباتوا تلك الليلة وأصبحوا في الغد باكراً فملأوا القرب وركبوا يريدون مكة . وكان سلمان لا يعرف الطريق اليها ولعله كان يعرفها ونسيها ولكنه لا يزال يذكر طريقاً تؤدي الى مكة عن طريق آبار بدر غربي المدينة ففضل المسير الى تلك الآبار ليبيتوا عندها ثم يملأون قربهم ويسيرون نحو مكة . أما حماد فلم يكن يعلم شيئاً من تلك الطرق وكان اعتماده على سلمان في كل شيء

الفصل الحادي والاربعون

البحيرة

فساروا طول ذلك النهار سيراً بطيئاً لعلمهم ان الآبار غير بعيدة عنهم وأنهم يأتون هناك لا محالة فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة فخلوا الاحمال وجلسوا للطعام ثم توسدوا العشب تحت شجرة كبيرة يلتمسون القيلولة واشتغل الخادمان برعاية الجملين

فافاقا عند العصر والتفتا فلم يريا الجملين ولا راعيهما فبغت سلمان ونهض

للحال ونظر الى ما حوله فرأى كل شيء في مكانه كما فارقه فاخذ يتشوف عن التلال لعله يرى أثر الجملين فلم ير آثاراً ولكنه رأى أثر خفافهما على الرمال فهمّ بتتبع الاثر وقال لحماد تربص هنا ريثما ارى ما تم لهما . فمكث حماد وسار سلمان حتى غاب عن النظر ومالت الشمس نحو المغيب ولم يرجع سلمان فقلق حماد كثيراً وخاف ان يدركه الظلام وهو منفرد في تلك الارض

وفيما هو في ذلك رأى أشباحاً تقترب فتفرسها فاذا هي ثلاثة من الابل ومعها الخادمان وسلمان فعجب للجمل الزائد فلما وصلوا استطلعهم الخبر

فقال سلمان أرأيت هذه الناقة

فنظر حماد اليها فاذا هي مشقوقة الاذنين فعجب لحالها وقال وما خبرها وما الذي جرى لها

قال هذه هي الناقة التي يسميها الحجازيون البحيرة فان من عوائدهم التي قد أخذت تتلاشى بعد ظهور الاسلام ان الرجل منهم اذا ولدت ناقته خمسة ابطن وكان الاخير ذكراً بحر اذنها اي شقها وامتنع من ركوبها واطلق سراحها لا يمنعها من ماء ولا مرعى فكأن خادمينا رأيا هذه الناقة سائبة فارادا القبض عليها فهمّ بها احدهما فنفرت منه فظن انه اذا ركب احدى ناقتينا ادركها فتعقبها بها فلم يدركها فاستبطأه رفيقه فركب الجمل الآخر ولحق به حتى لحقت انا بهما فرأيتهما قد قبضا عليها بعد جهد شديد وعادا وقد وبختهما على ما ارتكباه فوعدا ان لا يعودا الى مثل ذلك مرة اخرى

الفصل الثاني والاربعون

آبار بدر

فعجب حماد لحكاية البحيرة ولكنه تأسف لضياع الوقت حتى دنا المغيب ولم يصلا الآبار فقال ارى يا سلمان ان نترك هذه الناقة وشأنها لاننا لسنا في حاجة اليها ولا عندنا من علف نطعمها اياه ولنهم بالمسير لكي ندرك الآبار فهل نحن بعيدون عنها

فقال سلمان اننا على مسافة قصيرة فهلم بنا اليها قال ذلك وامر فركبوا جميعاً وساروا يقطعون السهول والاودية حتى خيم الغسق وقد نفد ماؤهم ولم يصلوا الآبار فقلق سلمان وخاف ان يكون قد اخطأ الطريق فساق جواده الى اكمة أطل منها على منخفض علم بما يحيط به من الجبال انه المكان المقصود ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك لبعد المكان وظلامه فعاد الى حماد وانبأه بما كان فاتفق رأيهما على ان يتركا الخادمين والجملين هناك ويسيرا على الفرسين ليتفقدا المكان فاذا كان هو بعينه شربا وسقيا الفرسين لان الخيل لا تصبر على العطش ثم يناديان الخادمين

فهمزا الجوادين فسارا في ارض وعرة والجو هادىء لا يسمع فيه غير وقع الحوافر على تلك الصخور وكان الظلام آخذاً في الاشتداد ولكن القمر كان قد ارسل أشعة ضعيفة تبشر بقدومه قبل طلوعه . فلما وصلا الى قمة الجبال المحيطة بمكان الآبار اخذا في الانحدار وهما ينتظران طلوع القمر [illegible] ليساعدهما على تعيين المكان فوصلا الى منبسط من الوادي ونظرا الى ما حولهما فاذا هما في واد مظلم تحف به الجبال من اكثر جهاته لا يسمع فيه صوت ولا يهب فيه نسيم وكان القمر قد طلع لكن اشعته لم تدرك أسفل المكان بعد فتحقق سلمان انها آبار بدر ثم استنار الوادي فتأمله سلمان فاذا هو بعينه ورأى الاماكن التي كانت تقام فيها السوق كل عام وكانت تجتمع فيها القبائل للبيع والشراء والاخذ والعطاء ولكنه آنس في المكان وحشة وهجراً كأنه مهجور منذ أعوام ثم خطر له أن الليل يريه ذلك فأخذ يبحث عن محل الآبار وحماد في اثناء ذلك صامت لا يبدي حراكاً

وترجلا عن الفرسين وسارا يقودانهما وقد ظمئا وندما لتلك المخاطرة وكان أعظمهما ندماً سلمان لانه ساق سيده الى الخطر ولكنه تجلد وسار وحماد الى جانبه لا يتكلمان حتى وصلا الى حفر متفرقة فصاح سلمان هذه هي الآبار قد ادركناها وكانا قد اعدا ما يستقيان به من دلو أو نحوه فألقى سلمان الدلو فسمع صوته يصادم قعر البئر فارغة فتعجب لذلك ثم ما لبث ان سمع حركة ورأى حيواناً وثب من البئر وفر فتأمله فاذا هو يشبه الذئب او الكلب فازداد

استغرابه وبغت حماد وقال ما هذا يا سلمان أيخرج من الآبار ثعالب

قال اني في غاية الاستغراب من هذا الاتفاق . ان المكان هو هو بعينه قد نزلت فيه منذ بضع سنوات وشربت من مائه ورأيت الناس يستقون منه فلا أدري ماذا جرى له فيلوح لي ان أنزل هذه البئر فاني أراها غير عميقة لعلي استطلع من أمرها شيئاً . فأنزل قدماً ثم الثانية حتى ادرك القعر فاحس كأنه واقف على عظام فمد يده وامسك العظام بيده فاذا هي مدفونة كلها أو بعضها بالتراب واستخرج شيئاً منها فتصاعدت عنها روائح كريهة ولمس عظاماً طويلة ومستديرة وكروية على اشكال شتى فاقشعر جسمه لانه علم من أشكالها انها عظام آدميين فصعد للحال وقد هاله الموقف ولم يشأ ان يخبر حماداً بذلك لئلا يخاف وتاقت نفسه الى استجلاء حقيقة الامر عن تلك الجماجم والعظام ولكنه كتم ذلك وأوعز الى حماد بالعودة فعاد حماد وهو ينتظر ان يسمع شيئاً جديداً فلم يفه سلمان بكلمة . فظلا سائرين في ذلك المنخفض وحماد ينتظر حديث سلمان وسلمان يفكر في غريب ما رآه والليل هادئ لا يسمع فيه الا صوت وقع الحوافر . فلما ابطأ سلمان في الحديث هم حماد في السؤال عما رآه واذا بصوت جمل يهدر عن قرب فوقفا وانصتا ليعرفا جهة الصوت فاذا هو جمل منحدر من أعلى الجبل من الجهة التي جاءا منها اولاً فظناه احد الخادمين قادماً بخبر جديد فلبثا واقفين ينتظران ماذا يكون فاذا بالراكب في لباس غير لباس الخادم فتأملاه فاذا هو رفيقهما اليثربي فلما دنا منهما ناداهما فعرفا صوته فأجابه سلمان فتعارفوا

فلما وصل اليثربي اليهما قال ما الذي جاء بكما الى هذا المكان

قال سلمان جئنا نلتمس الماء

قال أتلتمسون الماء من هذا المكان وقد أصبح مجتمعاً للرمم ومرضاً للجيف

قال سلمان لا أعرفه الا مستقى فيه ماء عذب وقد عجبت لما تقول وخصوصاً بعد أن رأيت الجماجم بنفسي وشممت رائحتها

فبغت حماد لذلك وقال أتقول الصدق يا سلمان

قال نعم يا مولاي قد لمست الجماجم بيدي والاعظام [illegible] وكتمت ذلك

[illegible]

قال حماد لقد عرفت سر سكوتك كل هذه المدة وأنا اتوقع خطابك بعد نزولك الى قاع البئر . ثم التفت الى اليثربي وقال وما الذي حول هذه الماء الى رمم وعظام

قال أن لذلك خبراً طويلاً سأقصه عليكما متى جلسنا فقد جئتكما بالماء ووضعته عند الخادمين وراء هذه الاكمة وقد تستغربان مجيئي اليكما في هذا الليل على غير موعد بيننا وأما السبب في ذلك فاني كنت في انتظاركما اليوم في باب المدينة فلما استبطأتكما جئت افتقدكما فلم أجدكما فعلمت من قرائن مختلفة انكما سرتما نحو هذه الآبار ولما كنت عالماً بجفافها حملت اليكما قربة ماء وسرت أقتص خبركما حتى جئت الى خادميكما فقالا لي انكما تطلبان الماء من هنا فجئت اليكما على عجل كما تريان . قال ذلك وأشار اليهما ان يتبعاه فركبوا وساروا جميعاً وكل منهما يتأمل هيبة ذلك المكان بعد ما عاموا من أمره حتى وصلوا الى اعلى الوادي وتحولوا نحو الخادمين وكانا في انتظارهم فلما وصلوا ترجلوا جميعاً وجلسوا على دكة فتناولوا الطعام وشربوا وسقوا الخيل والجمال وسلمان وحماد ينتظران خبر بدر بفارغ الصبر

فلما استتب بهم الجلوس قال حماد اراني في قلق لا مزيد عليه فهل تتكرم علينا بخبر تلك الآبار

قال ان خبرها غريب يطول شرحه فاذا كنتم مستعدين لاستماعه الليلة قصصته عليكم والا فاني أقصه في الغد

فصاحا معاً بل تقصه علينا الليلة فان القمر قد أبدر وتاقت نفوسنا الى السمر الا اذا كان في ذلك ثقلة عليك

قال أني شديد الرغبة في قص هذه الحكاية لأنها تبين كرامة نبينا وبها يفتخر المسلمون كما ستسمعون

ثم جلسوا واخذ اليثربي يقص حكايته وحماد وسلمان والجمالان يتطاولان عن بعد لاستماع الخبر

الفصل الثالث والاربعون

سبب الغزوات

قال اليثربي اعلموا اني اقص عليكم خبر اعظم واقعة حدثت في الاسلام وقد شهدها رسول الله بنفسه منذ نحو خمس سنوات وكنت في جملة المحاربين فرأيت وسمعت ما تشيب لهوله الاطفال

فقال سلمان ومن هم الذين حاربتموهم هناك

قال هم بنو قريش من اقرباء الرسول ولكنهم اعداءه

قال وكيف يكونون اقرباؤه ولا يقومون لنصرته بل يكونون اعداءه

قال ان لذلك خبراً طويلا لا استطيع بسطه الليلة ولكنني اذكر ملخصه تمهيداً لذكر واقعة بدر التي نحن في صددها فرعوني سمعكم

قالوا كلنا آذان فشنف مسامعنا

فقال لا يخفى عليكم ان نبينا لما قام يدعو الناس الى الاسلام لم يجبه الا نفر من قريش وظل اعمامه واكثر ذوي قرابته على دين آبائهم واكثرهم انما رغبوا عن هذا الدين القويم خوفاً على تجارتهم ان تكسد لما في تأييد الاسلام من احتقار الاوثان وابطال عبادتها فينحط قدر الكعبة فيقل الحجاج اليها ومعاش قريش وسائر أهل مكة من التجارة ولا تجارة الا بالحجاج فضلاً عما يتمتع به القرشيون من السيادة والنفوذ ببقاء الكعبة فهم حجابها ولهم بذلك فخر وسؤدد . فهذه الاسباب وغيرها حملت بني قريش على مقاومة نبينا ولكنه لم يحرم انصاراً شدوا ازره وصدقوا بدعوته ومنهم جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها على انهم لم يستطيعوا حمايته من الاذى فهاجر وهاجروا معه الى مدينتنا يثرب التي كنا بالقرب منها البارحة فاستقبلناه بالاكرام فنزل بيننا على الرحب والسعة وسررنا بهذا الشرف العظيم

ولا يخفى عليكم ان المدينة واقعة في الطريق بين مكة والشام فمن اراد تجارة

او سفر بينهما لا بد له من المرور بها فاخذ من يوم نزوله المدينة يجمع اصحابه الذين هاجروا معه وهم المهاجرون والمدنيون الذين نصروه وهم الانصار ويخرج بهم للغزو أو يرسلهم ويقيم. فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام أو غيرها بتجارة أو أموال خرج برجاله ليغزوهم وما اصابه من مال أو غيره وزعه على رجاله ».

الفصل الرابع والاربعون

غزوة بدر الكبرى

ففي السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى وسببها ان ابا سفيان بن حرب رجل قريش واكبر زعمائهم كان قادماً من الشام في ابل لقريش عليها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلا او اربعون من قريش وكلهم من اعداء الاسلام وفي جملتهم عمرو بن العاص وكانت آبار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام للاستقاء في طريقها الى مكة . فلما علم رسول الله عزم وزمان تدبنا للخروج عليهم فعلم ابو سفيان بذلك فانفذ بعضاً من رجاله الى مكة يستنفرون الناس للقدوم الى الابار لحماية أموالهم فكان الرجل منهم اذا وصل الى مكة وقف على بعيره وقد جدعه وحول رحاله وشق قميصه وهو يقول « يا معشر قريش اللطمية اللطمية ان أموالكم مع ابي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا ادري ان تدركوها الغوث الغوث » فتجهز القرشيون سراعاً ولم يتخلف من أشرافهم الا من عجز عن المسير فبلغ عدد السائرين الف رجل ومئة فرس وسبعمائة بعير واما رجالنا فكان عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وسبعين بعيراً وفرسين. فسارت رجالنا يتقدمهم النبي حتى وصلنا الى مكان اسمه الصفراء فبعث من يتجسس خبر ابي سفيان فقيل له أنه بالقرب من بدر . فجمعنا في جلسة وجمع أصحابه المهاجرين معنا وشاورنا جميعاً وكان قد استطلع قوة العدو واطلعنا عليها وقال ما تقولون هل نحاربهم فاجابوه جميعاً بصوت واحد وقلب واحد موافقين وسأل الانصار فقلنا « فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا

هذا البحر لخضته لنخوضنه معك وما نكره أن تلقى العدو بنا غداً لعل الله يريك منا ما تقر به عيناك فسر بنا على بركة الله »

فلما سمع كلامهم اثنى عليهم وسار وسرنا جميعاً وكان ابو سفيان قد نزع الى الحديعة في اثناء تلك الفترة فسار من عين الابار حتى تجاوزها والعير معه فلقي رجال قريش في مكان يقال له الجحفة فخاطب اشراف قريش قائلاً هذه العير والاموال قد نجت فارجعوا الى مكة وكان في جملة اولئك رجل اسمه ابو جهل لعنة الله عليه فابى الا ان يمر بالابار فساروا حتى دنوا من الوادي اما نحن فسرنا نطلب الابار فنزلنا عندها ومنعنا الاعداء منها فتقدم زعيم الانصار منا وهو سعد ابن معاذ وقال يا رسول الله نبني لك عريشاً من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فان اعزنا الله واظهرنا عليهم كان ذلك مما أحببناه وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام ما نحن باشد حباً لك منهم ولو ظنوا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك » فاثنى الرسول عليه خيراً فبنينا له عريشاً

وبعد قليل رأينا غبار قريش ثم ظهرت رجالهم وفرسانهم وعليهم العدة والسلاح يتقدمهم امراؤهم في أفخر اللباس وكانوا اهل بذخ وترف وقد أخذت بهم الخيلاء والفخر . فلما دنوا منا عسكروا امامنا ثم ارسلوا رجلاً منهم ليحزرنا اي يقدر عددنا فجال بفرسه قليلا وعاد فنبأهم بقلة عددنا فتشاوروا في الامر طويلاً وفيهم من يشير بالرجوع وكانوا بين ان يرجعوا أو يهاجموا لان الماء في حوزتنا فاذا لبثوا مكانهم هلكوا عطشاً فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم وقلتنا فقرروا الهجوم فخرج منهم افراد طلبوا البراز فبارزناهم فقتلنا عدة من كبارهم فهجم آخرون منهم وهجم بعض منا والتحم الفريقان وكان يوماً عظيماً خاف فيه المسلمون خوفاً شديداً لما رأوه من قتالهم وقد سمعت رسول الله يقول وقد رأى احتدام الحرب « اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الارض اللهم انجز لي ما وعدتني » قال ذلك وهو يتنقل في رجاله ويحرضهم بالنصر وقد سمعت ذلك باذني لاني كنت في

جماعة من الانصار مع سعد بن معاذ واقفين بباب العريش نحرس رسول الله خوفاً عليه من كرة العدو . ولقد رأيت ما كان من فتك المسلمين بالمشركين مما ينشرح له الصدر وخصوصاً لما رأيت ابا جهل زعيم القرشيين مجندلاً يتخبط بدمه وكان اشد الناس عداوة لنبي الله ورأيت غيره من امرائهم مقتولين منهم حنظلة بن ابي سفيان وشيبة وعتبة وامية وغيرهم ورأيت أشد المسلمين فتكاً في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول فقد رأيته يخترق الجماهير وفي صدره ريشة نعامة يمتاز بها عن غيره

ومن غريب ما شاهدته من بسالة المسلمين في ذلك اليوم واستهلاكهم في نصرة الاسلام ان معاذ بن عمر بن الجموح كرَّ على ابي جهل المتقدم ذكره وكان محاطاً بزمرة من رجاله فاخترق الناس اليه فضربه ضربة اصابت ساقه فهجم عكرمة بن ابي جهل على معاذ بضربة قطعت يده فطرحها عن عاتقه ولكنها ظلت معلقة بجلدة من جثته فما زال معاذ يقاتل كل ذلك اليوم ويده تجر وراءه فكنت انظر الى يده واشعر كأن يدي في مثل ذلك أما هو فلم يكن يبالي فلما آذته يده وعاقته عن الحرب جعل رجله عليها وتمطى حتى انفصلت فتركها وعاد الى الحرب . وكان في جملة المشركين العباس بن عبد المطلب فانه كان لا يزال متردداً بين الاسلام وما كان عليه أجداده . فلما حمل القرشيون على بدر حمل معهم مكرهاً فاسر في جملة من اسر ولكن امره لم يطل لان النبي امر باطلاقه حالاً

ولم يمض زمن حتى رأينا المشركين هموا بالفرار فقبضنا على جماعة كبيرة منهم ولما انقضت الحرب أمر رسول الله ان يؤتى بجثث القتلى الى القليب فجيء بها فتكومت كوماً وفيها جثث نخبة أمراء قريش وهي التي رأيتم بقاياها في الآبار الليلة ثم جمعت الغنائم ففرقت فينا وحملت بشائر النصر الى المدينة وأخبار الويل الى مكة . وقد كانت هذه المعركة قاضية على مشركي قريش اذ قتل فيها جماعة من ألد أعداء الاسلام وأشدهم بطشاً وفي جملتهم أبو لهب عم الرسول وكان

شيخاً كبيراً لم يحضر الحرب فلما بلغته نكبة القرشيين اشتد الامر عليه فمات بعد تسعة أيام

فاصبح زعيم القرشيين بعد هذه المعركة أبي سفيان الذي ذكرته لكم وهو مشهور وكثيراً ما يسير الى الشام فلا يخلو ان تكونوا قد رأيتموه هناك

فقال سلمان نعم رأيته غير مرة وهو أشهر من ان يذكر

فقال وسترونه قريباً عند وصولكم مكة فانه عاد اليها منذ بضعة أسابيع

فلما سمعا ذكر أبي سفيان توهما ان يكون عبدالله معه ولكنهما كتما ذلك

ثم قال اليثربي وأصبحت الآبار بعد تلك المعركة مهجورة وقد ألقوا الجثث فيها فانتنت . وبطل موسمها السنوي من ذلك الحين

هذه هي حكاية الآبار فاشكروا الله انكم لم تلقوا فيها وحشاً ضارياً أو نحوه فلنبت الليلة هنا ولنعد في الغد الى المدينة نمكث فيها يوماً ثم تسيرون منها في قافلة الى مكة والا فاختاروا لانفسكم

فاعجب حماد بكرم خلق ذلك الرجل وغيرته عليهم ورغبته في انقاذهم وقال انا والله شاكرون لحسن صنيعك جزاك الله خيراً وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع ان نكون طوع بنانك نسير معك حيثما سرت ولكننا نرى سرعة المسير الى مكة لعلنا نلتقي فيها بأبي سفيان قبل خروجه منها

فقال اليثربي ألعلكم تعاملونه معاملة التجار فان له علاقات كثيرة مع تجار الشام

قال سلمان لا علاقة تجارية بيننا وبينه لكننا نفتش عن صديق لنا سار برفقته من بيت المقدس

فقال اليثربي انصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير فهل تنتصحون بها

قال نعم ويكون لك علينا الفضل

قال انصح لكم اذا لقيتم أحداً من المسلمين في المدينة أو غيرها وعرض عليكم ذكر أبي سفيان فلا تذكروا علاقة بينكم وبينه فان ذلك يوقع عليكم شبهة وربما يلحق بكم من جراء ذلك ضرر

فقال سلمان لقد أخلصت النصيحة وأردت بنا خيراً فشكراً لك على ذلك ونحن لو لم نتوسم فيك الاخلاص لما فرط منا ذكر ذلك الرجل على أننا لم نقل أننا اصدقاؤه وانما قلنا أن صديقنا سار برفقته

فقال اليثربي ومهما يكن من الامر فقد نبهتكم الى ما لا يخلو من فائدة

قال حماد لا ريب في ذلك عندنا فنشكرك عليه شكراً جزيلاً

وكان قد مضى معظم الليل وغلب النعاس على الجميع فنهضوا للرقاد . فلما أصبحوا خيرهم اليثربي في الذهاب معه الى المدينة أو الذهاب الى مكة تواً فأثنوا عليه واعتذروا بأنهم يؤثرون المسير تواً الى مكة على نية ان يمروا بالمدينة في عودتهم فأطاعهم وأوصاهم وصايا تتعلق بسفرتهم وودعهم وعاد الى المدينة وتركهم يستعدون للسفر الى مكة

الفصل الخامس والاربعون

بكر وخزاعة

فلما خلا حماد بنفسه تذكر حاله مع هند وما هو ذاهب من أجله وكان في أثناء حديث اليثربي عن أبي سفيان يهم في الاستفهام عن والده ثم يخاف العاقبة فيمتنع وأخيراً صبر نفسه ريثما يصل مكة ويلتقي بأبي سفيان

وفي صباح اليوم الثاني ركبوا وساروا لا يلوون على شيء فأمسى المساء وقد ادركوا بقعة من الارض يكسوها المرعى وفي أحد جوانبها شجرة تحتها عين ماء عذب اعتاد المارة الجلوس اليها التماسا للراحة من وعثاء السفر اثناء مسيرهم بين مكة والمدينة

فجلسوا الى الشجرة وأوقدوا ناراً يستضيئون بها أو يستخدمونها في معالجة طعامهم تلك الليلة حتى اذا أكلوا جلسوا يتسامرون ريثما يتغلب عليهم النعاس فلما انقضى الهزيع الاول من الليل هموا بالرقاد وقد أمروا الخادمين أن يتناوبا السهر خوفاً من طارىء يفاجئهم. ولم يكد يغمض لهم جفن حتى افاق سلمان

فسمع ضوضاء عن بعد فالصق اذنه بالارض فتبين له أن بضع عشرات قادمون من مكة مسرعين ومعهم الخيول وعلم أنهم نازلون عند تلك العين لا محالة فخاف ان يكون عليهم من نزولهم بأس فالتفت الى حماد فاذا هو لا يزال نائماً فتردد بين أن يوقظه او ان يتركه نائماً وفيما هو يتردد أفاق حماد من تلقاء نفسه فرأى سلمان جالساً على فراشه فبغت وناداه واستطلعه الخبر

فقال كنت عازماً على ايقاظك لو لم تستيقظ من تلقاء نفسك

قال حماد وما سبب ذلك

قال اني اسمع أصوات خيول واناس قادمين من جهة مكة فاخشى ان يكونوا سائرين في حرب وربما اوقعوا بنا سوءا

فقال حماد وما الرأي اذن

قال الرأي ان نتواطأ على كلام نقوله لهم يضمن لنا النجاة . فقال وما هو

قال يغلب على الظن ان القادمين من اهل مكة الذين لم يؤمنوا بالنبي الجديد وانهم يريدون المدينة لحرب او لاستطلاع فهم من اعداء المسلمين وعلينا نحن أن نتجاهل أمر الاسلام ونتظاهر باننا انما جئنا نريد الاعتمار في مكة

فقال حماد وما معنى الاعتمار ان ذلك لا اثر له في ديننا

قال هو الحج الى الكعبة والكعبة حج يؤمها الناس من اقاصي الارض على اختلاف الملل والنحل فاذا قلنا اننا غرباء قاصدون زيارة الكعبة لا تستغشوننا

فقال حماد افعل ما بدا لك وكن انت المتكلم عني

ولم يكادا يتمان الحديث حتى جاء خادم سلمان ينبئهم ان الجمع قد اقترب وانهم يقصدون ذلك الماء

فلبثوا تحت جنح الظلام ينتظرون وصولهم وقد زادوا نارهم وقوداً استئناساً بالنور

فلم يمض قليل حتى وصل الماء فارس ملثم فلما اقترب من النار نادى من القوم النزول ها هنا

فقال سلمان عرب من لخم . ومن القادم علينا

قال عرب من خزاعة وما الذي جاء بكم الى هذا المكان

قال سلمان جئنا لزيارة البيت الحرام

قال وهل مررتم بالمدينة

قال مررنا بها عن بعد ولم ندخلها

وما اتم كلامه حتى وصل رفاقه وفيهم الفارس والراجل فترجلوا جميعاً ودنوا من الماء فتفرس فيهم سلمان ليرى عددهم فاذا هم نحو الاربعين يتقدمهم رجل بلباس فاخر لم يستطع معرفته لشدة الظلام وكان هذا الرجل هو وجيه القوم يأمرهم وينهاهم . فعلم سلمان انه رئيسهم وكان قد امرهم ان ينصبوا خيمة بالقرب من تلك الشجرة فاخذوا في ذلك وسلمان ينظر اليهم ثم لاح له ان يستطلع حقيقة حالهم من زعيمهم فدنا منه وحياه فرد الفارس التحية والارتباك ظاهر على وجهه لكنه التفت الى سلمان وقال قد انبأني دليلنا انكم من لخم فهل انتم قادمون من العراق

قال نعم يا مولاي

قال ونحن نعلم ان اللخميين في العراق من اهل النصرانية

قال نعم ونحن كذلك

قال وكيف تقول انكم جئتم لزيارة البيت الحرام والنصارى يحجون الى بيت المقدس

فبغت سلمان ولبث برهة صامتاً لا يدري بماذا يجيب وظهر الارتباك على وجهه ولكنه تجلد وقال وهل تقفل ابواب الكعبة دون النصارى اذا جاؤها معتمرين

قال كلا فان الناس يقدمون اليها من اقاصي العالم على اختلاف الملل والنحل ولكن النصارى قلما يجيئونها وزد على ذلك ان الوقت ليس وقت الحج فاصدقني الخبر

قال سلمان ليس في حقيقة خبرنا ما نخشى بيانه ولكنني رأيتكم جمعاً كبيراً فارتبنا من امركم فاذا علمنا من انتم افدناكم عن حقيقة امرنا .

وفيما هو يقول ذلك جاءه رجل يقول ان الخيمة قد نصبت والمائدة أعدت

فالتفت الى سلمان قائلا اذا شئت ان تضيفنا على الطعام أتممنا الحديث فاننا نحتاج بعد طول السفر الى الراحة

فقال نترك أتمام الحديث الى صباح الغد

قال حسناً وافترقا فسار سلمان الى سيده فاذا هو لا يزال جالساً على فراشه ينتظر عودته بخبر القوم فلما رآه عائداً استطلعه الخبر فانبأه بما كان واستمهله الى الغد ليستطلع الحقيقة

فباتوا تلك الليلة على حذر ولما أصبح الصباح خرج سلمان الى مضرب القوم فاذا اكثرهم من الفرسان وتأمل لباسهم وحالهم فاذا هم من أهل الحجاز ففكر في أمرهم فرأى ان يصطحب سيده وان يسيرا معاً الى رجل الامس فاصطحبه وسارا

فلما وصلا الخيمة استأذنا في الدخول فاذن لهما فدخلا فوجدا الرجل جالساً على وسادة مقطب الوجه كأنه يفكر في امر همه فلما وقع نظره على سلمان وقف له ورحب به فبالغ سلمان في الاعتذار لما سببه له من المشقة بتلك الزيارة ولكنه قدم سيده في الجلوس فادرك صاحب الخيمة انه سيد له فرحب به بنوع خاص واجلسه الى جانبه ثم التفت الى سلمان وقال أرى ضيفنا في هذا الصباح عراقياً ايضاً

قال سلمان نعم يا سيدي انه أمير من امراء العراق وانا خادم له فهل يتفضل مولاي بالافادة عن اسمه

قال أني عمر بن سالم الخزاعي من بني كعب سائر في جماعة من خزاعة تريد المدينة (١)

قال سلمان ألعلكم من أهل مكة

قال نعم نحن نقيم في مكة ولكننا سائرون الى المدينة في مهمة فهل انتم قادمون منها

قال كلا يا مولاي لم نكن في المدينة ولكننا مررنا بها عن بعد

قال يا حبذا لو انكم دخلتموها

(١) السيرة الحلبية

فتعجب سلمان لتمنيه هذا وعهده بأهل مكة اذ ذاك اعداء لاهل المدينة على أثر ما كان من مهاجرة النبي وأصحابه منها

فقال هل تأذن لي بسؤال يزيل عني الالتباس

قال تفضل

قال قلتم انكم من أهل مكة تقصدون المدينةوقد بلغنا ان بينكم وبين أهل المدينة عداوة

قال صدقتم ولكن بين أهل مكة جماعة كبيرة هم على دعوة أهل المدينة أي انهم مسلمون ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفاً من كبار قريش ان يصيبوهم بسوء [1] على اني سألتكم عن حقيقة امركم فلم تجيبني فهل انتم سائرون الى مكة للحج حقيقة

قال سلمان اما وقد انسنا فيك ما أنسناه من كرم الخلق وحسن الوفادة فاني أطلعك على جلية امرنا لعلك تكون لنا عوناً في ما نحن فيه

قال وما ذلك

قال نحن يا مولاي كما قلت لك من أهل العراق وهذا الامير حماد سيدي وقد جئنا قاصدين مكة للتفتيش عن الامير عبد الله والد مولاي هذا فقد قيل لنا أنه جاء الحجاز برفقة ابي سفيان منذ أشهر فهل تعلم عنه شيئاً

قال اذكر اني شاهدت ابا سفيان بعد عودته من الشام هذا العام ولكنني لم أعلم شيئاً عن الامير عبد الله فربما كان معه ولم أره

فقال سلمان هل يخبرني سيدي عن سبب قدومه الى المدينة وهو من اهل مكة فاني اخاف ان يكون وراء مجيئكم ما يدعو الى حرب تقفل بها ابواب مكة دوننا

قال اما سبب مجيئنا الى المدينة فهو اننا من خزاعة كما اخبرتكم وقدكانت قبيلتنا في خصام مع قبيلة اخرى يقال لها بنو بكر فكان النزاع بيننا لا يفتر حتى ظهر الاسلام وكانت الغزوات فجاء المسلمون منذ عامين الى الحديبية بالقرب من مكة ومعهم نبيهم يريدون الاعتمار فخاف أهل مكة ان يكونوا عازمين

(١) السيرة الحلبية

على حرب فمنعوهم من دخولها ثم كانت خصومة انتهت بعهد أبرم بين المسلمين وقريش يقضي بهدنة وسلام فدخل بنو بكر في عقد قريش ودخلنا نحن في عقد المسلمين ثم رجع المسلمون واطمأنت قلوبنا . فلما دخل هذا العام رأينا من بني بكر خروجاً من العقد فتعرضوا لنا وقتلوا منا بعضاً ورأينا بني قريش يضافرونهم على ذلك فاعتبرنا هذا العمل نقضاً للعهد الذي كان معقوداً بينهم وبين المسلمين وكأني بالقرشيين ساعون الى حتفهم بظلفهم فقد كانت مكة آمنة مطمئنة فعرضوها لهجمات المسلمين . فلما استفحل الامر ورأينا القرشيين يعاونون البكريين علينا جئنا بهذا الجمع نريد المدينة لنبلغ ذلك الى صاحب الرسالة الاسلامية

فقال سلمان وما ظنك به بعد ذلك

قال أظنه يحمل على مكة برجاله فيفتحها عنوة وفي فتحها عز للمسلمين

قال سلمان يظهر انكم على دعوة صاحب الرسالة فهل انتم مصدقون لما جاء به

قال لقد جرنا الحديث الى امور طالما وددنا كتمانها ولكننا أصبحنا في حال لا نرى معها بداً من التصريح فاننا نرى صاحب هذه الدعوة صادقاً في دعوته ولا نظنه الا غالباً . ومما يدلنا على ذلك نصرته في حروبه حيثما توجه

فعاد سلمان الى ما هم فيه من امر القرطين والامير عبد الله فاخذ يفكر في وسيلة يستخدم بها تلك الفرصة فقال أما وقد آنسنا منك هذه الاريحية فهل ترى ان تهدينا الى سبيل نتصل به الى ابي سفيان للبحث عن مولاي الامير عبد الله

فقال وما الذي عساي ان افعله في هذا السبيل

قال توصي بنا رجلاً من خاصتك تثق باخلاصه وتعقله ليدربنا في مكة لاننا غرباء والغريب أعمى ولو كان بصيراً

ففكر عمر ساعة ثم قال لي عم شيخ يقيم في الكعبة ثم داره كله وهو واسع الاطلاع نافذ الكلمة لدى ابي سفيان فاذا لقيتموه واستعنتم به في شأن هداكم الى سواء السبيل واسمه حرب فاذا دخلتم مكة وجئتم الكعبة اسألوا

عن حرب الخزاعي فاذا لقيتموه رأيتم فيه شيخاً طاعناً في السن فقولوا له ان ابن اخيك عمر بن سالم يقرأك السلام فاذا وصفتم له حالنا وما شرحته لكم من امر خزاعة وبكر علم انكم صادقون في قولكم فاسألوه ما شئتم فانه خير مرشد لكم في ما تريدون

فنهض حماد وسلمان عند ذلك واثنيا على عمر وودعاه وانصرفا الى خيمتهما وبعد قليل نهض الركب الخزاعي ويمموا المدينة وقد سر سلمان لتلك الصدفة وأمل ان ينال بها خيراً

الفصل السادس والاربعون

مكة المكرمة

وفي ظهيرة ذلك اليوم ركبوا يريدون مكة فوصلوها بعد مسير يوم فدخلوها فرأوا اهلها في هرج ومرج لا حديث لهم الا امر خزاعة وبكر فساروا في طرقها لا يستفهمهم احد لكثرة الواردين على الكعبة من الغرباء . وأرادوا المسير الى الكعبة في ذلك اليوم فقال سلمان هلم بنا الى خان ننزل فيه بجمالنا واثقالنا ثم نزل الكعبة وانا انزل وحدي اتجسس الاخبار واعود اليك . فقصدوا خاناً بالقرب من الكعبة نزلوا فيه فبدلوا ثيابهم وتناولوا طعاماً واستراحوا بقية يومهم وسلمان يفكر في وسيلة تكفل لهم نجح مسعاهم

فلما اصبحوا في اليوم التالي قال سلمان امكث هنا يا مولاي ريثما اتدبر الامر بنفسي وآتيك بالاخبار واذا ابطأت عليك فلا يشغلن بالك

قال حماد سر بحراسة الله

فخرج سلمان وقد تزيا بزي أهل الحجاز لا يريد بذلك تنكراً ولكنه خاف ان يكون غرابة لباسه موجباً لاستلفات الانظار اليه فوصل المسجد الحرام فدخل من بعض جوانبه فرأى في ساحته جماعة كبيرة عراة يطوفون (١) وفيهم الجالس والواقف والراكع ورأى في بعض الجوانب جماعات جالسين

(١) السيرة الحلبية

يتحادثون ويتحاورون . فسار هنيهة في وسط الساحة فرأى بناء مربعاً تجلله استار من القباطي علم من طواف الناس حولها أنها الكعبة تجللها الاستار فلم يجسر على الطواف حولها أو الدنو منها ولكنه نظر الى داخلها عن بعد فرأى فيها احجاراً قائمة علم انها الانصاب ورأى حول الكعبة وفوقها اصنام هائلة رأى بعض الناس يحلقون ويغتسلون حولها . فادهشه كل ذلك وقال في نفسه اذا لم يكن في قيام الاسلام غير هدم هذه الانصاب وابطال عبادتها لكفى به فضلاً

ثم تأمل في بناء الكعبة وأخذ يفكر في امر القرطين وكيف يمكن ان يكونا هناك واذا وجدا فأين يمكن ان يكون موضعهما فلم يزدد الا ابهاماً ولا زادته تلك الزيارة الا يأساً

ثم تحول نحو الجماهير لعله يرى ذلك الشيخ فطاف المكان يسأل عنه باسمه فقال له بعضهم انه خرج الى منزله بالامس لتوعك اصابه . فسأل عن منزله فقيل له انه في مر الظهران بضواحي مكة (١)

فخرج الى مر الظهران وفيما هو في طريقه اليها يسأل عن الطرق ويستفهم عن الرجل رأى اهل مكة في هرج يجتمعون جماعات ثم يتفرقون كأنهم في خوف من امر ذي بال فعلم أنهم يتحدثون بشأن أهل المدينة . ومر بجماعة منهم كبيرة قد تألفوا امام منزل فخم قد ربطت حوله الخيول فعلم انه بيت امير كبير فسأل عن صاحبه فقيل له انه منزل ابي سفيان . فلما سمع اسمه شكر الله لوصوله اليه تلك الساعة على غير انتظار وأخذ يتفرس في وجوه الناس لعله يرى سيده بينهم فلم يجده فسأل بعض الوقوف عنه فاخبره بعضهم انه فارقهم بقرب عمان وانهم لم يروه من ذلك الحين . فأسف لذلك أسفاً شديداً واظلمت الدنيا في عينيه وتشاءم من تلك الصدفة ولكنه تجلد وسار في طريقه الى مر الظهران وهو غارق في بحار الهواجس فوصل المكان بعد العصر فسأل عن منزل حرب فدلوه عليه فجاءه وهو لا يرجو ان يصيب منه خيراً

فسأل عن الرجل فقيل له انه مصاب بمرض شديد فلا يستطيع ان يخاطب

(١) السيرة الشامية

احداً فعاد على عقبيه كاسف البال وقد اخذ منه اليأس مأخذاً عظيما لا يدري كيف يلاقي حماداً

فوصل الخان والليل قد سدل نقابه فرأى حماداً في انتظاره على مثل الجمر فتظاهر بالتجلد ولم يخبره بخبر والده ولكنه انبأه بمرض حرب ووعده بان يواصل السؤال عنه حتى يشفى من مرضه على انه لم يكن يرجو شفاءه لشيخوخته وعجزه ولكنه ألقى اتكاله على الله وصبر نفسه

وقضى سلمان شهراً يتردد على بيت حرب يسأل عنه ويدعو له بالشفاء وعلم سلمان بعد ذلك ان الشيخ آخذ في التقدم نحو الشفاء فعادت اليه آماله

فسار اليه ذات يوم وهو يرجو ان يقابله ويشكو اليه امره . وفيما هو في الطريق رأى أهل مكة في قلق شديد فمر بمنزل ابي سفيان لعله يتنسم خبراً عن سيده فرأى المنزل قفراً فسأل عن السبب فقال مخبر ان ابا سفيان لما سمع بقدوم المسلمين على مكة خرج اليهم وربما اعتنق دينهم لانه خرج خائفاً . فسأل سلمان عن جند المسلمين فقيل له أنه قادم وقد صار على مقربة من مكة

فتفرس سلمان في اهل مكة فرأى علامات الفشل ظاهرة في وجوههم فسمع بعضهم يمتدح الاسلام وينقم على ابي سفيان وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم ونكثهم عهد بني خزاعة . فعلم ان الامر عائد للمسلمين لا محاله فخرج من مكة حتى جاء مر الظهران واراد السؤال عن حرب فرأى الناس يهرعون والنساء يولولن وينادين بالويل والثبور. فالتفت فرأى الغبار يتصاعد عن بعد فصعد على اكمة في ضواحي مكة ليرى ما يكون فرأى الغبار قد شف عن جند كثيف تتقدمهم الفرسان بالرايات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين وكان ذلك في شهر رمضان فعسكر الجند على مسافة من مكة وعاد سلمان الى الخان خوفاً على سيده من غائلة ذلك الفتح . وفيما هو سائر في الطريق رأى كوكبة من الفرسان يتقدمهم ابو سفيان عائداً من سفرته وهو يدعو الناس الى الاسلام بالتحذير والتهديد مع النصيحة فلم يسمع الا ازدراء واحتقاراً وسمع رجاله ينادون «من يدخل منزل ابي سفيان او منزل العباس بن عبد المطلب فهو

آمن من سيوف المسلمين ومن يدخل المسجد او يدخل منزله ويغلق بابه فهو آمن » فاطمأن بال سلمان

فسار وهو يزاحم الجماهير في الاسواق فرأى اسراباً من القرشيين يتأهبون للقاء المسلمين وفيهم الفارس والراجل فلم يكد يصل الخان حتى فرغ صبره . فدخل فرأى حماداً قد لبس ثيابه للخروج فقال له ما بالك يا مولاي

قال استبطأتك ورأيت الناس في هرج فخرجت لارى ما يكون

قال لا تعجل فقد علمت ما لم تعلم اجلس لاقص الخبر عليك قال قل وما ذلك

قال قد بلغك خبر الخزاعيين وما كان من نكث عهد قريش . وقد كنا نتوقع قدوم المسلمين بسبب ذلك لفتح مكة فتحقق ظننا لان المسلمين جاؤوا وهم الان في ضواحي مكة واظنهم يهاجمونها غداً . وقد علمت ان ابا سفيان سار الى المسلمين وسلم لهم وعاد يدعو الناس الى الاسلام بعد ان كان من ألد اعدائه كما تعلم . وسمعت رجاله ينادون بالامان على كل من يدخل منزله او منزل العباس عم صاحب هذه الرسالة او يدخل المسجد او يغلق بابه فنحن اذا اغلقنا بابنا كنا في مأمن والا فلنذهب الى المسجد فانه خير ملجأ فما الرأي

قال حماد ارى ان نغلق بابنا ولكننا نكون مع ذلك في خطر اذ ربما يعتدي علينا احد سهواً فالمسير الى المسجد اولى . فهل انت محقق هجومهم على المدينة غداً

قال لا ادري ولكنني سأخرج صباحاً وآتيك بالخبر اليقين

الفصل السابع والاربعون

فتح مكة

وباتوا تلك الليلة وأصبحوا في الغد فبكر سلمان الى اكمة الاسن فاشرف على جيش المسلمين فسار اليه يستطلع الخبر فلم يكد يبلغه حتى رآه قد اصطف ومشى يتقدمه الفرسان وأصحاب الرايات وفيهم قبائل اسلم وغفار وأشجع وسليم وغيرهم فتأمل عددهم فاذا هو يزيد على عشرة آلاف وشاهد في الوسط موكباً هائلاً في وسطه راحلة عليها رجل معتجر بشقة حمراء (١) وعلى رأسه عمامة سوداء حرقانية واضعاً رأسه على رحله وشاهد على الرحل وراءه رجلاً رديفاً فعجب لذلك واشتاق لمعرفته فرأى رجلاً قادماً من جهة الجيش فسأله عن هذا الموكب فقال له موكب رسول الله وان الراكب هو الرسول نفسه قد جعل رأسه الشريف على رحله واردف اسامة بن زيد خادمه (٢) تواضعاً فعجب سلمان لذلك المشهد البهيج وقال في نفسه لا عجب اذا نصر من كانت هذه خلاله . ثم سأل الرجل عن عزمهم على الفتح . فقال له انهم سائرون الى مكة من أعلاها في تلك الساعة وان فرقة منهم سائرة بامارة خالد بن الوليد من اسفلها . فهرول سلمان باسرع من لمح البصر فرأى جموع القرشيين يتألبون للدفاع وفيهم الفرسان ولكن الفشل كان يتجلى على وجوههم . وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعر يستحثثن الرجال بالاناشيد وفي أيديهن الخمر يضربن بها وجوه الخيل تحريضاً وتوبيخاً . فلم يزدد سلمان من تلك المناظر الا رهبة وخوفاً وتحقق اذ ذاك ان المسلمين فاتحوها لا محالة . فما زال سائراً حتى اتى الخان فقال هيا بنا يا مولاي الى المسجد فانه خير ملجأ لنا

فاقفلا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا في بعض جوانبه فرأيا الناس هناك زرافات ووحداناً وقد استولى عليهم الخوف

وبعد ساعات قليلة ضج الناس في المسجد وهم يقولون « لقد اقبل رسول الله »

(١) البخاري (٢) السيرة الشامية

فتحقق سلمان أن الفتح قد تم للمسلمين فوقف ومعه حماد في موقف يرى النبي وهو داخل المسجد فما لبث ان سمع الناس يكبرون ورأى النبي داخلاً على قدميه ووراءه رجل من اصحابه آخذ بزمام ناقته فطاف حول الكعبة سبعاً وفي كل مرة كان يأخذ الحجر الاسود بمحجفه والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم فاشار اليهم ان اسكتوا (١)

وكان في المسجد ثلاثمئة وستون صنما لكل حي من احياء العرب صنم قد شدوا اقدامها بالرصاص فجاء النبي وفي يده قضيب فجعل يهوي على كل صنم منها فيهوي على وجهه او قفاه وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (٢)

وكان حماد وسلمان ينظران الى ذلك ويعجبان ثم رأياه جاء الى صنم كبير الى جانب الكعبة كان قد عرفا انه هبل الاكبر فكسره . وكان في الكعبة صور شتى للانبياء وفيها صورة ابراهيم واسماعيل وعيسى ومريم فامر بماء فمسحت كلها (٣)

ولما تكسرت الاصنام وامحت الصور جلس النبي في ناحية المسجد وعلى رأسه شيخ وقور علم بعد ذلك انه ابو بكر الصديق ثم امر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلى فيها ركعتين

ثم وقف على باب الكعبة والناس وقوف صامتون كأن على رؤوسهم الطير فقال « لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيراً من الاحكام منها « لا يقتل مسلم بكافر ولا يتوارث اهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها والبينة على المدعي واليمين على من انكر ولا تسافر المرأة ثلاثة ايام الا مع ذي حرم ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ولا يصام يوم الاضحى ويوم الفطر » ثم قال « يامعشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء والناس من آدم وآدم من تراب » ثم قال « ماذا تقولون وماذا تظنون اني فاعل فيكم » قالوا « خير اخ كريم وابن اخ

(١) السيرة الحلبية (٢) السيرة الشامية (٣) السيرة الحلبية

كريم وقد قدرت ؟ فقال : اقول كما قال اخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين اذهبوا فانتم الطلقاء (١) وقال أقوالا اخرى ادهشت حماداً وسلمان لما حوته من الحكمة والموعظة . فنظر سلمان الى حماد وقال والله اني لاعجب للناس قاوموا هذا النبي وهذه تعاليمه واقواله ولا ريب عندي ان سلطانه سيتسع حتى يغطي الارض ويمحو دولتي الروم والفرس

ثم التفت حماد فرأى القرشيين يعتنقون الاسلام وهم يصلون ويهنىء بعضهم بعضاً وقد هدأت الاحوال وآب الناس الى السكينة وانطلقوا الى منازلهم واشغالهم فخرج سلمان وحماد الى الخان

فلما استتب بهما الجلوس هناك التفت حماد الى سلمان فقال له لقد شغلتنا بهذه الاحوال عما جئنا من اجله ولقد نظرت الى الكعبة فعظم عليَّ امر القرشيتين ولم افهم أين موضعهما ولا كيف نستطيع الوصول اليهما وخصوصاً بعد هذه الحروب ويحتمل انهما في حوزة المسلمين

فقال سلمان أتأذن لي يا سيدي ان اصارحك انه قد اقترح عليك امراً مستحيلاً ولكننا سنشاور الشيخ الخراساني ونرى رأيه في الامر وليس بعد الجهد حيلة

فقال حماد وقد فاتنا استطلاع امر والدي من أبي سفيان

فتنهد سلمان ولم يجب

فعجب حماد لسكوته فقال له ما بالك لا تجيب

فقال بماذا اجيب وليس في الجواب فائدة

فقال ألعلك سألت عنه ولم تخبرني به

فقال نعم يا مولاي ان سيدك ليس مع ابي سفيان فقد علمت انهم فارقوه عند مكان كذا بعيد عن ساحة الحرب

فانقبضت نفس حماد لهذا الخبر وبهت مدة لا يتكلم ثم قال والدموع تكاد تترقرق في عينيه أرى يا سلمان ان الدهر قد اعد لنا ايام تعاسة لا تنقضي والظاهر ان نجم سعدي قد أفل يوم خروجه من [illegible] قال ذلك وتساقطت

(١) السيرة الحلبية

الدموع من عينيه على الرغم منه

فتجلد سلمان وقال له تشجع يا مولاي ولا تيأس فان الله لا يتركك ولا يهملك وانت انما تسعى في ما يؤول لرفع منزلتك رغبة في ارضاء فتاة انت تحبها وهي تحبك

فلما سمع كلمات سلمان تذكر هنداً وحبها وما آنسه من ضعف الامل في الحصول عليها فلم يتمالك عن البكاء وسلمان ساكت لا يرى ما يعزيه به فقال له ان البكاء شأن النساء يا مولاي وعهدي بك حازم باسل لا تجزعك حوادث الايام فاصبر ان الله مع الصابرين

قال انا اعلم يا سلمان ان البكاء عار على الرجال ولكن الحب ... آه من الحب . آه من ثعلبة . آه من جبلة . وسكت

فاخذ سلمان يخفف عنه ويؤمله بما سيسمعونه من الشيخ الخزاعي فسكت

الفصل الثامن والاربعون

اليأس

وفي صباح اليوم التالي خرج سلمان الى مر الظهران يطلب ذلك الخزاعي فعلم انه نقه من مرضه والتمس مقابلته فادخلوه عليه فاذا هو شيخ هرم قد اعتراه الكبر حتى ابيض شعر لحيته واسترسل على صدره وتجعد وجهه وغارت عيناه وغطاهما شعر الحاجبين فحياه سلمان فرد التحية وأشار اليه ان يجلس الى جانبه ففعل

فبدأ سلمان بالسؤال عن صحته ثم استطرد الى خبر الفتح ثم عرفه بنفسه وما جاء من اجله فرحب به

فقال سلمان قد جئنك يا اخا خزاعة نستطلع امراً يهمنا كثيراً ولا نرى احداً سواك يستطيع مساعدتنا فيه

فقال مرحباً بك قل ما بدا لك

قال نرجو ان يكون كلامنا سراً لا يعرف به احد سوانا

قال قل لقد وقعت على خزانة أسرار

قال نحن نعلم ان احدى ملكات غسان واسمها مارية اهدت الكعبة قرطين ثمينين منذ نحو قرنين فهل تعرف شيئاً من ذلك

ففكر الشيخ قليلا ثم قال نعم يا ولدي اني اعلم ذلك

قال سلمان فهل تعلم مكان هذين القرطين الان

قال ان حكاية هذين القرطين قد أصبحت في خبر كان لان الكعبة قد هدمت وبنيت مراراً بعد اهداء ذينك القرطين وآخر مرة هدمت فيها كانت منذ نحو اربعين سنة وبناها عبد المطلب جد نبينا صلى الله عليه وسلم الذي شاهدتم فتحه مكة أمس وهو الذي تولى رفع الحجر الاسود حينئذ ووضعه في مكانه قبل ظهور دعوته ببضع سنين فقد كانت القبائل مختلفة على من يحمل ذلك الحجر الشريف ويضعه في مكانه وحاولت كل قبيلة اكتساب ذلك الشرف لها فحكموا هذا النبي في ما بينهم وهم لا يعلمون شيئاً من كرامته فاشار بوضع الحجر في ملاءة واسعة وأوعز الى كل قبيلة ان تحمل بطرف من أطرافها وبذلك انحسم الخلاف والخلاصة ان القرطين لا يعلم أحد بمكانهما الان والارجح انهما بيعا الى احد المتجولين والبحث عنهما يعد من قبيل العبث

فتكدر سلمان لذلك الامر والتفت الى الشيخ قائلا فهل تظن البحث عن القرطين عبثاً

قال هذا ما أراه على ان دخول الكعبة لمثل هذا الغرض امر مستحيل اليوم بعد دخولها في حوزة المسلمين

فانقبضت نفس سلمان ولم يعد يستطيع البقاء هناك فنهض فودع الشيخ وخرج الى حماد وكان ينتظر عودته بفارغ الصبر . فلما رآه استطلعه الخبر فاطلعه على حديث الشيخ وهو يكاد يبكي لشدة الاسف ولكنه أشفع حديثه بعبارات التعزية واماله بوسيلة يتخذها للتعويض عن هذين القرطين امام هند على ان ذلك لم يكن ليخفف شيئاً من قلق حماد

﴿ تم الجزء الاول ﴾